

# تاريخ الأمم والرُسل

الدكتور

**يوسف الزاملي**

أستاذ التاريخ المساعد  
جامعة الأقصى

الدكتور

**هاني الجزار**

المحاضر بجامعة الأقصى  
جامعة الأقصى

الدكتور

**نسليم أبو شلوف**

أستاذ التاريخ المساعد  
جامعة الأقصى



الطبعة الأولى

1436هـ - 2015م



## المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعليه وعلى  
أله افضل الصلاة وأتم التسليم وبعد ،،

النبوة هبة من الله عز وجل ، واصطفاء رباني ، وأصر ثقيل خص خص بها الله  
سبحانه وتعالى انبياءه الكرام ليكونوا مشعل نور وهداية يهتدي بها التائهون في  
درب الحياة ويقتدي بها الباحثون عن الهداية من البشر ، ليكونوا قاعدة الحضارة  
الإنسانية على مر السنين ، يوجهوها الوجهة الخيرة ، فهم الأسوة الصالحة  
والأنموذج الرفيع في قومهم ، فما عرفت أقوامهم خيراً من هؤلاء الأنبياء صفاءً  
ونقاءً سريرة ب، وطيبة قلب ، وحرصاً على مصلحة القوم .

أنهم رسل الله منذرين ومبشرين اصطفاهم الله ليخلصوا البشرية من ظلام الكفر  
إلى نور الإيمان ، حذروا أقومهم من سخط الله القاهر فوق عباده ، وبشروا بجنة  
عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين يقبلون على فعل  
الخيرات وينأون بأنفسهم عن ارتكاب الشرور والآثام ، فينالوا السعادة في الدنيا  
والآخرة ، لقد كان بعث الأنبياء والرسل خلاصاً للبشرية ، وليطهر الباري  
سبحانه وتعالى الأرض من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد .

وجاء هذا الكتاب ليتناول جوانب مهمة ، واضاءات منيرة لحياة هؤلاء الأنبياء  
والرسل ، حيث بين دعوتهم وبين ما لاقاه هؤلاء الرسل الكرام من مشاق ومتاعب  
وأثر هؤلاء الأنبياء على الحضارة الإنسانية الغابرة والحاضرة .

كما تناول الكتاب مواقف الأنبياء و الرسل الكرام وصبرهم وصفاتهم الخيرة  
الصافية التي لا تشوبها شائبة، كما بين الكتاب صبرهم على البلاء والابتلاء ،  
والجهود الهائلة التي بذلوها لاقتناع أقوامهم في الإيمان بالله ايماناً خالصاً من  
الشرك .

فجاءت هذه الدراسة جامعة لسير الانبياء والمرسلين الأطهار بعيدة عن  
الأساطير والروايات الاسرائيلية الحاقدة على رسل الله الكرام

كما قمنا بالرد على الشبهات والافتراءات والمغالطات التي تناولها بعض المؤرخين بقصد ودون قصد لسيرة هؤلاء الأنبياء الأخيار ورجحنا ما رأيناه صواباً بعيدين عن الهوى معتمدين على الأخبار الصادقة وكتب ثقة المؤرخين .

لقد حرص هذا الكتاب على تحديد أماكن الأنبياء وأماكن دعوتهم ، فكان حريصاً على عنصر المكان حرصه على عنصر الزمان يتعايش مع طلابنا الأعزاء مع هؤلاء الأنبياء وسيسير معهم أينما حلوا وأينما ارتحلوا ، مستدلين على ذلك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة وأقوال المؤرخين والمفسرين الذين يعتد بهم .

والله ولي التوفيق

د. يوسف ابراهيم الزامل

## آدم عليه السلام

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)) (الحجر الآيتان 28-29) وقوله تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73)) (سورة ص، الآية 71-73)، لقد قال تعالى للملائكة إنني خالف بشراً من طين فإذا نفخت فيه فاسجدوا له. نحن لم نشهد خلق الخلق ولكننا نشهد نقص الحياة وهو الموت، فمن رحمة الله بنا أن يجعل لكل قضيته غيبية قضية مشهودة.

ويأتي بعد الخلق قوله تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي) (الأعراف آية 7) سؤال يطرحه الله على إبليس لم لا تسجد لهذا الكائن الذي صنعه بقدرتي ونفخت فيه من روحي، وواضح أن البشرية في مأزق بشأن الروح، ما هي الروح؟

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (سورة الاسراء، الآية 85).

فالروح إذا التقت بالجسد تكلف شرعاً إما إذا خرجت منه فهي غير مكلفة فالتكليف الإلهي لا يكون إلا في الحياة الدنيا، عندما تلتقي الروح بالجسد، فهي فترة زمنية قصيرة لكنها تحدد مستقبل الإنسان الأخروي فحياة الخلود هي الحياة الحقيقية، أي أن إتباع المنهج الإلهي هو الذي يهيأ لنا الحياة الكريمة المنعمة، إذن فحديثنا عن الروح سر لا نستطيع أن نكشف أسرارها، حتى أن صاحب الجسد البشري يعجز عن تحديد الروح، سر إخفاء الروح دليل على الوجود بلا رؤية مثلها في ذلك مثل أشياء كثيرة في حياتنا نستعملها دون أن نعرف كيف تعمل.

فهل يدرك الأمي كيف يعمل جهاز التلفاز رغم أنه ينتفع به إذن سواء علمنا سر الروح أو لم نعلمه فهي موجودة، والذي يهمنا في هذا الاستطراد أن الله خلق آدم ونفخ فيه

الروح وسجد الملائكة كلهم لآدم إلا إبليس استنكر أن يسجد لهذا المخلوق فخرج عن طاعة الله.

أراد الله أن يكرم آدم فبعد أن بسط له الأرض وسخر الشمس والقمر والنجوم أخبر الملائكة أنه خلق خلقاً قبل آدم.

أما وقد خلق آدم فقد جاء الأمر الإلهي بالسجود لهذا المخلوق كناية عن تكريمه لأن عليه عبئاً ثقيلاً في إعمار الأرض، وهي الأمانة التي عرضها على السموات والأرض وأشفق من حملها فكان الإنسان ظلوماً جهولاً كثير الظلم عظيم الجهل.

فهو ظلوم لأنه سيرتكب المعاصي على الأرض وسيحاسب عليها وستكون حياته في الدنيا دليلاً على سعادته أو شقوته في الآخرة، وهو عظيم الجهل لأن هذه الأرض التي سيعيش عليها سيخرج منها مهما بلغ من العمر فسيموت. والإنسان جهول لأن الكون مسخر له من بر أو بحر ويرى مخلوقات الله ويرتكب المعاصي ولا يسحب لها حساباً لقد حمل أمانة التكليف وهي امتحان له. وهذا ما حصل لإبليس امر بالسجود فأبى والله تعالى يكرم من يشاء ولا يسأل عمل يفعل.

لقد سأل الملائكة رب العزة لم سيجعل آدم خليفة على الأرض وتحدثوا عن الإفساد الذي حصل قبل آدم وأول سؤال يتبادر إلى أذهاننا لماذا أخبر الله الملائكة أنه سيجعل آدم خليفة على الأرض؟

إن سبب إعلام الملائكة لأن فيهم من سيلزم بني آدم يكتبون أعماله ويحصونها، منهم سيكونون (كراماً كاتبين) ومن الملائكة موكلة بنفخ الأرواح في الأرحام، وملائكة موكلة بقبض الأرواح، فإعلام الله للملائكة هو لإعلامهم بالمهام التي ستوكل إليهم.

فالإنسان مستخلف في الأرض أي ان الله خلق كل ما في السماوات والأرض وسخرها لخدمته فتعمل من أجله قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33)) (سورة ابراهيم، الآية 32 / 33).

أما لماذا قالت الملائكة أن الإنسان سيفسد ويسفك الدماء؟ فهو أن تجربة لخلق آخر خلقهم الله قبل آدم فعصوا الله وأفسدوا في الأرض بعد أن تعهدوا بإصلاحها.

وقد يكون هذا الخلق من الجن فشاهد الملائكة الجن التي تفسق وتسفك الدماء (وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) (سورة الجن، الآية 14-15) والثابت أن الجان خلقوا قبل الانسان فمنحوا حرية الاختيار فمنهم المؤمن ومنهم الفاسق.

ومعلوم أن الملائكة لم تصرح بهذا السؤال لأنها تعلم مراد الله فهي مخلوقة لعبادته، وظنت الملائكة أن الله سيخلق بشراً يسبح بحمده فقالوا " وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ " فقال لهم رب العزة إني أعلم ما لا تعلمون ويمضي السياق القرآني (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (سورة البقرة، الآية 31).

إعجاز قرآني عظيم مفاده أن تعلم الأشياء يكون بتعلم الأسماء فنقول للطفل هذا دفتر، هذا قلم، هذا ماء، فعندما يتعلم الأسماء يبدأ بتعلم التحصيل فآدم علمه الله الأسماء كلها وعرض على آدم والملائكة بعض مخلوقاته سبحانه.

فقال الباري (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) في فهم مراد الله من خلق آدم، ومن جعله خليفة في الأرض فقالت الملائكة (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (سورة البقرة) فمتى صادف العلم شخصاً يبحث في علم وحده؟ لأن العلم موجود ويحتاج إلى من يكشفه، ولأن نواميس الحياة موجودة تحتاج إلى من يكشفها فالإنسان ينسب العلم لنفسه رغم أن العلم موجود أصلاً فكل شيء في الكون بدايته ونهايته منسوب إلى الله تعالى.

فقال الله تعالى (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۚ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) (سورة البقرة، الآية 33) فأنبأ آدم الملائكة بلسان يفهمه الملائكة ولكن من أين تعلم آدم هذه اللغة واللغة صناعة الإنسان؟ وآدم هو من أول المخلوقات البشرية فمن أين سمع آدم هذه اللغة؟ لا

بد أن يكون آدم قد تعلم اللغة من خالقه سبحانه وهذا يعني أن الله سبحانه هو الذي علم الإنسان الكلام، قال تعالى (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) (سورة البقرة، الآية 33).

وهذا دليل على أن الملائكة كتموا تسألهم فأطلع عليه الله وأطلع على ما يكتُمونه، وهذا دليل على أن لا أحد يعرف أو يحيط بمراد الله حتى أقرب الملائكة، والأمر الثاني هو أن الله عندما جعل الإنسان خليفة سخر له كل شيء، وأن الإنسان مخير في اختيار ما يفعل واختيار ما لا يفعل والإنسان أصله من عند الله ونهايته من عند الله.

وإن اللغة علمها الله لمخلوقاته وقد تعلمها البشر بالسمع والمشاهدة هذه أمور نستطيع أن نستنبطها من خلق الله تعالى لآدم لكن آدم هذا المخلوق الضعيف المكرم من الله ومن ملائكته وقف الشيطان منه موقفاً معادياً فكانت معصية إبليس لخالقه وتم إيماله إلى يوم الدين، وأقسم اللعين أن سيغوي ابن آدم ليجعل النار تأكل جسمه، ومنح الله آدم حرية الاختيار فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

### لماذا خرج إبليس عن طاعة ربه؟

قال تعالى (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ {73} إِلَّا إِبْلِيسَ ) ويقول الحق في (سورة ص، الآية 74) (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ) وفي (سورة البقرة، الآية 34) قال تعالى (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) وفي (سورة الكهف، الآية 50) قال الحق: (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ).

إبليس إذن رفض السجود واستكبر وعصى أمر ربه، كان إبليس مختاراً فله أن يفعل ما يأمره الله وله ألا يفعل هذا الاختيار جعله عاصياً عن تنفيذ الأمر الإلهي خارجاً عن طاعته وبذلك وصل إلى مرحلة الكفر وصار شاهداً على نفسه بالوقوع في الكفر فأبليس قال (أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً) وقال (أنا خير منه) عندما وقف إبليس هذا الموقف المتعالي قال له رب العزة (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)) (سورة ص، الآية 77 / 78) فطرد إبليس من رحمة الله وطرد من جنته قال تعالى (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ



الصَّاعِرِينَ) (سورة الأعراف، الآية 13) فخرج إبليس من رحمة الله فطلب إبليس أن يمهله الله إلى يوم الدين وتوسل أن يكون من المنظرين، عندها طفحت عوامل الشر في نفس إبليس فأقسم أن سيغوي البشر وسينتقم من بني آدم ويزين لهم حب الدنيا ويزين لهم الباطل والبعد عن الصراط المستقيم لكن ذلك كله لا يستطيع أن يفعله الشيطان فإن الله يحمي المؤمن ويحرسه من كيد الشيطان، فإن عباد الله الصالحين ليس له سلطان عليهم الشيطان إنن يتوعد ويهدد. (وَاسْتَفْزِرْ مَنِ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (سورة الاسراء، الآية 64) الشيطان يغوي الناس في أموالهم وأرزاقهم.

### بداية الخلق

خلق الله سبحانه آدم أولاً ثم خلق حواء من ضلع آدم وشاءت ارادة الله أن يكون التكاثر من الذكر والأنثى لقد حذر الله آدم من كيد إبليس، حتى لا يلتمس آدم العذر في الوقوع في الخطأ وخلق حواء وحذرهما من إبليس (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرِوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (119)) (سورة طه، الآيات 117 - 118 - 119).

دخل آدم الجنة وبشره ربه أنه لن يجوع لكثرة الثمار ولن يعرى، فانه قد كفل مقومات الحياة لآدم وزوجه، ولكن شاءت إرادة الله أن يخرج عن النهج فقد حذره الباري من الاقتراب والأكل من الشجرة، وهذا أول اختبار لآدم فوسوس لهما الشيطان كي يعصيا الله تعالى وقال لهما الشيطان (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى) آدم لم يخلق ليعيش في جنة الخلد وإنما ليعيش على الأرض وهذه مشكلة الإنسان... الإنسان يظن نفسه أن سيخلد والإنسان يخشى أن يفارق النعمة أو تفارقه ومن هنا وسوس له الشيطان فأكلا من الشجرة ويكون الشيطان بذلك قد انتقم من الانسان قال تعالى (وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21)) (سورة الأعراف، الآية 21/20).

أقسم الشيطان أنه لهما من الناصحين، فبم أقسم وهو الكافر لقد وقع آدم وزوجه في المعصية.

## آدم على الأرض

عصى آدم وحواء عليهما السلام أمر الله فأكلا من الشجرة ورغم كثرة الأشجار الكثيرة المباحة فقد استطاع إبليس أن يغرر بهما ويقودهما إلى معصية الله تعالى.

فكان أمر الله ألا يقربا هذه الشجرة وألا ينظرا إليها وألا يجلسا تحتها فالاقتراب من المحرمات توقع الإنسان في المعصية، وهذا ما حصل فالذي يصاحب شارب الخمر قد يقع في معصية الله ويشرب الخمرة، ومن يصاحب المدخن قد يتعلم منه التدخين، فمرة يمنحه سيجارة ثم اثنتين ثم يذهب لشراء علبة التدخين.

الأمر الآخر أن إبليس أقنعهما بالاقتراب من الشجرة فهذا عصيان وأكلا منها وهذا عصيان آخر.

ولما أكلا من الشجرة ظهرت عورتهما فكأن الشيطان أراد أن يظهر عورة الإنسان فيغريه بالشر، والإنسان إذا اطاع الشيطان صار مفضوحاً ولما يعد أمام آدم وحواء عذر فيما حدث. (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (سورة الأعراف، الآية 23) اعترف آدم وحواء بالخطأ وشعرا بالذنب وصمما على التوبة وعندها أدرك آدم أنه سينزل على الأرض وعلى الأرض أشياء مباحة وأخرى محرمة فعليه أن يلتزم بأوامر الله، وأن الأرض ستكون محوراً للنزاع بين الشيطان وبني آدم، فنزل إلى الأرض، وجعل الأرض مستقراً لبني آدم عليها يحيون و فيها يموتون ومنها يخرجون (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) )) (سورة الأعراف، الآية 24/25) فأبناء بني آدم سينشأ بينهم صراع في الدنيا، فقد عرف آدم ستحصل لنزيبته مشاكل كثيرة: سفك دماء وحروب كثيرة عندما لا يلتزم هؤلاء الأبناء بشرع الله.

تلقى آدم صنيعه بالاستغفار عندما هبط على الأرض فتاب الله عليه وهكذا فإن من يزعم أننا نحمل خطيئة آدم أمر غير صحيح لأن الله تاب على آدم.

فقد ابتلى أبناء آدم، فداود ابتلي في ولده ونوح ابتلى بولده وآسيه زوجة فرعون ابتليت بزوجها، ولوط ابتلي بقومه وزوجه وكفر أحد من هؤلاء لا يحمل أوزراه أحد وقد أخطأ أبو تمام عندما قال في شعب (بوان) في فارس:

مغاني الشعب طيباً في الأغاني      بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها      غريب الوجه واليد واللسان

أبوكم آدم ورث المعاني      وعلمكم مفارقة الجنان

إن هذه المعاني الفاسدة تدل على ضيق أفق معتققيها فلا يتحمل أحد وزر أحد فالكمل مسئول عما فعل، ولا يؤخذ أحد بجريرة أحد.

وقد أرشدنا الباري سبحانه أن كشف العورة توقع في المعاصي لذا يجب ستر ما أمر الله ستره، وكل من يدعو إلى كشف العورة هو شيطان يتبع مذهب إبليس لعنه الله فالتقوى خير لباس والنعمة التي ينعمها الله على عباده تستحق الشكر، والنفوس البشرية التي تنشأ في طاعة الله تسعى إلى الخير تساعد المحتاج وتنصر المظلوم.

ويوجه الباري تحذيره إلى الجنس البشري أن الشيطان الذي أمهله الله ليوم الدين هو عدو للإنسان سيحاول أن يفتن الإنسان بشتى الطرق، وعلى الإنسان أن يبتعد عن خطوات الشيطان وألا يستعجل النفع لنفسه، فإن لم يحصل على النفع الدنيوي فسيحصل على النفع الأخروي، والإنسان بالغاً ما بلغ مرده إلى الله تعالى فالذي يلتزم بأوامر الله سيعيش الحياة السعيدة الدائمة فعلى الإنسان العاقل ألا يفتن من عدو البشرية وهو الشيطان (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ

عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَّاهُمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (سورة الأعراف، الآية 27).

الشيطان يعيش مع الإنسان فالإنسان إذا سرق حبيب إليه السرقة وإذا زنى يحبيب له الزنا، فعلى المرء أن يتسلح بالإيمان لأن المؤمن لا سلطان للشيطان عليه.

فكل من استغنى عن الإيمان استغنى الله عنه وعداوة الشيطان للإنسان فظيعة فالشيطان يتمنى أن يصير مصير البشر كلهم إلى النار حتى لا يكون العذاب مصيره هو وذريته، والعياذ بالله من شرور الشيطان ووسوسته.

وبكفي الإنسان تكريماً أن الله كرمه على كثير ممن خلق فالأجدر بالإنسان أن يكون أهلاً لهذا التكريم.

ورغم كثرة التحذيرات من الله للبشر إلا أن أول جريمة حصلت بين إبني آدم هابيل وقابيل، كانت أوامر الله تقضي أن يتزوج الأخ من الأخت التي جاءت في الحمل مع الأخ الآخر.

وجد قابيل أن الأخت التي جاءت مع هابيل في الحمل كانت فتاة دميعة الخلقة، فرفض أن يتزوجها وأصر على الزواج من الأخت التي جاءت معه في الحمل، وهذا مخالف لأمر الله.

ذهب قابيل إلى والده يشكو، فقال له هذه أوامر الله فاتهم الابن (قابيل) أباه أنه متحيز لهابيل فاستفحل الخلاف ووجد آدم حلاً وهو أن يقرب كل واحد منهما قريباً إلى الله وبذلك يكون الاحتكام إلى شرع الله تعالى.

كان قابيل يحس أنه الأقوى وأنه المسيطر الذي سيفرض نفسه فقرب إلى الله تمرات، أما هابيل فقرب إلى الله أحسن كبش عنده وظل الإخوان ينتظران.. أكلت النار قربان هابيل دلالة على قبوله ثارت ثائرة قابيل، وهدد بقتل أخيه ودار حوار بين الأخوين سجله لنا القرآن وظل قابيل يهدد وكان رد هابيل (لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأُفَتِّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (المائدة: 28).

أراد هابيل بذلك أن يثير نوازع الخير في قلب أخيه وتصرف الحكماء وظن هابيل أن نفس أخيه ستسكن وارتكب قابيل الجريمة، وكان الشيطان حاضراً (فطوعت له نفسه قتل أخيه) سورة المائدة: الآية 30، إن نفس قابيل جبلت على الشر فحدثت الجريمة. فقد استذل الشيطان قابيل فقتل أخاه. (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ) (سورة المائدة، الآية 31) وماذا يفعل قابيل؟

وقد عمر آدم طويلاً وإنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة شمسية. قال ابن عساكر لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام غسل وحنط وحفر له لحد وصلي عليه ودفن وحثي عليه التراب أما موقع قبره فمختلف فيه ف قيل دفن في الهند وقيل في جبل أبي قبيس والله أعلم.

قام بالأمر بعده شيث ثم ابنه أنوسن وبعده قينن ثم مهلايل وادمت دولته أربعين سنة، أوصى للحكم إلى إدريس عليه السلام، أما حواء فقد ماتت بعده بسنة.

كانت وفاة هابيل أول حالة وفاة على الأرض، وكان قابيل كلما نظر إلى الجثة شعر بقشعريرة في بدنه، لأن الجريمة تقلق المجرم إذ تذكرها فجاء الغراب بأمر الله واقتتل مع غراب آخر، فقتله وواراه في التراب.

عندها أحس قابيل بالندامة على قتل أخيه وأحس بالعجز والضعف قال تعالى (يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي) (سورة المائدة، الآية 31).

لقد أظهر قابيل عجزه وتنبه على أعظم جريمة ولكن بعد فوات الأوان. لقد كان الشيطان سبباً في هذه الجريمة، وصارت بذور الخير والشر واضحة في الجنس البشري فكانت الحاجة ماسة إلى إرسال الرسل.

## نوح عليه السلام

### العراق قبل نوح:

بعد أن قتل قابيل أخاه ترك إخوته وأباه وهاجر شرقاً وكما تقول التوراة: سكن أرض نود. شرقي عدن.

وتكاثر أبناء قابيل وزاد عددهم فلم تعد أرض نود تكفيهم - فارتحلوا شرقاً أيضاً، بحذاء ساحل البحر. ثم تبعوا الشريط الساحلي شمالاً، حتى وصلوا إلى مكان مضيق هرمز. وفي ذلك الوقت من أواخر العصر الجليدي الرابع، كان المضيق جافاً، فعبرته جماعات منهم اتجهوا إلى جنوب شرق آسيا. وواصل آخرون السير شمالاً حتى وصلوا أرض العراق الخصبة، وأرض ما بين النهرين.

وتكاثر أبناء قابيل وبلغ عددهم في الجيل السادس حوالي المليون نسمة. وحين وصلت جماعات منهم إلى أرض ما بين النهرين وجدت الماء الوفير والأرض الصالحة للزراعة - فتوافر الغذاء للإنسان والحيوان، ومكّنت هذه العوامل على الاستقرار. وهذا هو أول طريق الحضارة. لذلك فقد شهدت أرض ما بين النهرين ثاني حضارة في العالم. فقد سبقتها مصر إذ وصلها أبناء شيث واستقروا في وادي النيل وكونوا أول الحضارات، ولما كان جنوب العراق تغطيه المستنقعات والأحراش. فقد واصل الزحف السكاني مسيرته إلى شمال العراق واستقر الناس في الوديان وحول المجاري المائية. وبدأت في الألف الخامس قبل الميلاد - أولى مظاهر الاستقرار وكشفت البحوث الأثرية عن حضارات الحقبة الحجرية الحديثة في ثلاث مناطق:

في جarmo: شرق منطقة كركوك الحالية.

في حسونة: جنوب الموصل الحالية.

في حلف: في أعالي نهر الخابور.

وتكاثر أبناء قابيل، وكانوا - كما تقول الكتب - مثل جدهم قابيل. غلاظ القلوب قساة. وفي المراحل الأولى من هجرتهم - شرقي عدن - لعلمهم اشتاقول لرؤية جدهم الأكبر آدم.

ولم يكونوا ليستطيعوا العودة لرؤيته في حياته، أو لزيارة قبره بعد مماته. ولعل الشيطان أغواهم ووسوس لبعضهم أن يصنع تمثالاً على هيئة رجل، ليرمز لأبيهم آدم - وكانوا

يطوفون حوله ويذكرون الله. وعلى مر الأيام نسي الأحفاد وأبناء الأحفاد - ذكر الله، وعبدوا الصنم ذاته. وكانت هذه بداية الشرك بالله.

ولما ملأت الذرية شمال العراق يقال أنه ظهر فيهم خمسة رجال صالحين، هم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وأحبهم الناس لعدلهم وصلاتهم. وتصادف أن ماتوا جميعاً في شهر واحد. فجزع القوم عليهم. فقال رجل من نسل قابيل: هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم حتى تذكروهم؟ فنحت لهم خمسة أصنام ونصبها لهم. ومرت السنون وقدموها وعبدوها.

ويقال إن شيث عبر مضيق باب المندب وسار بنوه شمالاً وعمروا أرض وادي النيل وظهرت فيهم عبادة التماثيل والأصنام فأرسل الله إليهم إدريس عليه السلام - فأمنوا به - وترسخت فكرة البعث والحساب في الآخرة في الوجدان المصري منذ القدم - إلا أن القوم - بعد أن رُفع إدريس عليه السلام - لم يلبثوا إلا قليلاً حتى عاودهم الضلال. وضاعت أرض مصر بسكانها. فارتحلت قبائل منهم في اتجاه الشمال الشرقي، ووصلت أرض فلسطين، ثم الشام، ثم شمال العراق - حيث التقوا بأبناء عمومتهم أبناء قابيل.

وقال ابن عباس: كان آدم قد أوصى ألا يناكح بنو شيث بني قابيل. وكانوا بنو قابيل يعيشون في السهول، بينما بنو شيث يعيشون في الجبال، وظلوا يتجنبون الاختلاط بهم فترة من الزمن. ويستطرد ابن عباس قائلاً: وقال مائة من بني شيث لو نظرنا ما فعل بنو عمنا - يعنون بني قابيل. فهبطت مائة من الرجال إلى السهل. ورأوا النساء من بني قابيل، وكُن صباح الوجوه، واحتبس النساء الرجال فلم يعودوا. فنزل مائة أخرى احتبسهم النساء أيضاً. ثم هبط بنو شيث كلهم واختلطوا ببني قابيل وظهرت المعاصي فيهم أيضاً.

قد تكون هذه القصة صحيحة وقد تكون مجرد تعبير عن إرجاع الفساد والضلال إلى أبناء قابيل.

وتكاثر الناس، وظهرت حضارات ذكرها جورجي زيدان في كتابه "العرب قبل الإسلام"، أخذاً عن الترجمة اليونانية لكتاب الكاهن بروسوس. وقال إن عدة دول وجدت في بلاد ما بين النهرين قبل الطوفان. وأن عدد ملوكها 10 وأن سنى حكمهم بلغت 432000 سنة. ومن المؤكد أن هناك خطأ في عدد الأصفار والأقرب للعقل أن تكون سنى حكمهم 4320 سنة فيكون حكم كل ملك هو 432 سنة وهي فترة معقولة بالنسبة للأعمار في ذلك الوقت.

وخلال هذه الحقب الطويلة نسيت الأجيال أي ذكر عن الله. ونشدوا تجسيد القوة الخالقة في تماثيل صنعوها وعبدوها. وسبق أن ذكرنا أنهم عبدوا الأسلاف. ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً. وبنو المعابد لهذه الأصنام وقدموا القرابين وتسלט الكهنة والملوك على الرعية، وساد الظلم وفشت الفاحشة، وخاصة بين أبناء قابيل، والذي تقول التوراة عن أن يوبال - وهو من ذرية قابيل - كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. ونحن نعلم ما لتأثير الموسيقى على النفوس. ولعله وضع من الألحان والترايم ما يضى على الجو الرهبة. مما يزيد من تسلط الكهنة ونفوذهم. ولم يقتصر الضلال على أبناء قابيل وحدهم فقد ضل أيضاً كثير من نسل شيث . إلا بطناً واحداً من نسل إدريس عليه السلام.

وكان إدريس عليه السلام في مصر وقد وُلد له عند عمر 65 سنة ابنه متوشالch ثم وُلد لمتوشالch عند عمر 187 سنة ولد سماه لامك، وعاش لامك 777 سنة. ولا بد أن متوشالch ولامك كانا ضمن من هاجروا من مصر إلى فلسطين ثم عبروا سوريا واستقروا في شمال العراق وكان لامك ابن 182 سنة لما وُلد له ولدٌ سماه نوحاً .

تقول التوراة إصحاح 5: وعاش لامك مائة واثنين وثمانين سنة. ودعا اسمه نوحاً قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا منقبل الأرض التي لعنها الرب.

ونفهم من هذا أن الاسم مشتق من ناح ينوح بمعنى العزاء والراحة والاسترواح والتتعم. ومنها جاء استخدام المسيحيين لفظ "المتيح" بمعنى المرحوم. وصفا ودعاء للميت بالرحمة والراحة والتتعم في الآخرة.



إلا أن بعض المفسرين يرونه مشتقاً من النوح.

كما أن الأستاذ رؤوف أبوسعدة يرى أنه مشتق من ناح ينوح العبري، بمعنى البقيا والتلبث لطول مكثه في قومه (ألف سنة إلا خمسين عاماً).

وقد يكون هذا صحيحاً لو كان الذي اختار له الاسم هو الله سبحانه وتعالى. كما كان مع إسماعيل وإسحاق، إذ أن الملائكة التي بشرت بهذين النبيين أعطتهما أسميهما عند البشرى بهما - أما نوح فليس هناك من دليل على أن الله هو الذي اختار له هذا الاسم. ولم يكن لامك يعرف أن ابنه نوحاً سيعيش هذا العمر المديد ليسميه نوحاً من البقيا والتلبث.

كذلك لا نرى معنى للإشتقاق من النوح لأن كل الأطفال تبكي في الصغر. وإن كانوا يقصدون النوح على قومه لعدم إيمانهم به. فما كان لامك يعرف أن ابنه سيكون نبياً وأن قومه سيكذبونه، وسيكون النوح عليهم.

ولذلك لا بأس من الأخذ بما قيل من أنه سمى نوحاً من قبل والده - بمعنى الراحة والاسترواح والتنعيم بعد تعبته في فلاحه الأرض.

### نوح في قومه

وشب نوح - كما يشب غيره من الشباب. ولا نعرف إن كان رعى الغنم في شبابه، كما فعل كثير من الأنبياء. كذلك فعل والده كان نجاراً، فأخذ نوح عنه النجارة كصناعة أو أن صناعته للسفينة فيما بعد كانت إلهاماً من الله بدون سابق معرفة أو خبرة، وتكون هذه معجزة أخرى لقوله تعالى: " وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا " (من 37- هود).

ومن المرجح أيضاً أن والده - لامك - لم يكن من المتدينين أو لم يكن من المتعصبين لديانة قومه. فلم يُجبر نوحاً على الركوع أو السجود للأصنام التي كان يعبدها قومه. لعصمة الأنبياء من ذلك حتى في طفولتهم أو المراحل الأولى من شبابهم.

وشب نوح، ورأى الضلال الذي عليه القوم ولم يقتنع أن هذه الأصنام التي يعبدها قومه إلهة حقه، أو أنها قادرة على نفع الناس أو ضرهم. فالناس هم الذي يصنعونها بأيديهم.

وراح يقلب بصره في السماء يطلب الهداية. وانجابت عن قلبه الغشاوة، وغمره نور، وجاءته البينة، وحيّاً من الله، يصب في قلبه العقيدة الحقة، وهي أن خالق هذا الكون هو إله واحد لا إله إلا هو واحد أحد لا شريك له.

" إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ " (33- آل عمران).

واختلفوا في سن نوح يوم بعثه. عن ابن جرير قال ابن خمسين سنة. وقيل أيضاً ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وعن ابن عباس قيل ابن أربعمائة وثمانين سنة.

ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وحذرهم من مغبة العصيان.

" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ". (59- الأعراف).

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ". (25- 26 هود).

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ". (23- المؤمنون).

بهذه الآيات من ثلاث سور مختلفة كانت بداية ذكر قصة نوح ويمكن استخلاص الكيفية التي دعاهم بها إلى دين الله كالآتي:

- دعوة إلى عبادة الله.
- ليس هناك إله إلا الله وحده.
- أنذرهم إن خالفوا وعصوا. وتوعدهم بعذاب، وصف مرة بأنه عذاب عظيم، ومرة أخرى بأنه عذاب أليم.

وَأَمَّنْ بِهِ نَفَرٌ قَلِيلٌ - مِنَ الضَّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَرَقِيقِي الْحَالِ. وَكَذَبَ بِهِ كِبَرَاءُ الْقَوْمِ وَوَجَهَاؤُهُمْ. بِالطَّبَعِ حِرْصاً عَلَى مَكَانَتِهِمْ وَثَرَائِهِمْ. وَلَكِنْهُمْ رَاحُوا يَتَلَمَّسُونَ أَعْذَاراً يَبْدُونَهَا - يَغْلَفُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ فَقَالُوا: " مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشِراً مِثْلَنَا ". (26- هود).

أَيُّ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ وَاحِداً مِنْهُمْ - لَا يَمْتَنِزُ عَلَيْهِمْ بِشْيءٌ - لَا بِالْغِنَى وَلَا بِالثَّرَاءِ فَاسْتَبَعَدُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ اخْتَارَهُ لَذَلِكَ الْأَمْرِ. وَقَالُوا إِنَّهُ إِنَّمَا يَرِيدُ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، أَنْ يَتَّخِذَ مَجْلِسَ الصَّدَارَةِ فِيهِمْ. وَأَنْ يَكُونَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهِمْ أَوْ يَرَأْسُهُمْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ.

"فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ" (24 المؤمنون).

" أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟ " (63- الأعراف).

وَنَفَى أَنَّهُ يَرِيدُ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ أَجْراً، مِنْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ عَلَيْهِمْ.

" وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ". (29- هود).

وقال: " إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ".  
وَأَكَّدَ لَهُمْ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَبَشَرٌ مِثْلَهُمْ، وَلَكِنْ اللَّهُ مَنَّ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ.

" وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ " (31- هود).

وَلَعَلَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ بَعْضَ الْخَوَارِقِ، مِثْلَ أَنْ يَرْزُقَهُمْ مَالاً كَثِيراً وَذَهَباً. أَوْ يَخْبِرَهُمْ بِمَا يَحْدُثُ فِي الْغَدِ أَوْ كَذَا وَكَذَا. وَهَذَا دَابُّ الْمَكْذِبِينَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ. فَقَدْ قَالَ الْكَافِرُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ

رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ". (89- 94 الإسراء).

سبب آخر أبدوه لعدم اتباعهم لنوح عليه السلام، وهو أن الذين اتبعوه هم من الضعفاء. كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعه الأشراف ولا أثرياء القوم. ثم قالوا له إن هؤلاء الذين اتبعوه لم يتبعوه عن ترو منهم أو تفكر، بل بمجرد دعاهم أجاوبه ولبوا دعوته من أول الأمر ومن مبدئه وأن هؤلاء لا يفضلونهم بمال أو جاه.

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) (27 - هود).

" قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ". (111 - الشعراء).

ثم قالوا إن هؤلاء الضعفاء الذين آمنوا به، منهم من كان خطأ من قبل، فكان الرد عليهم إنه لا يلزمه شيء بما كانوا يعملون في الماضي وأن حسابهم في ذلك على ربهم.

وطلبوا منه إن كان يريدهم أن يؤمنوا به أن يطرد هؤلاء الضعفاء أنفة منهم أن يجلسوا معهم واستكباراً عليهم وكان الرد بالرفض:

(قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115)) (111- 115 الشعراء).

" وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ". (من آية 29- هود).

وكان هذا نفس ما طلبه أشراف قريش من نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم - إذ طلبوا أن يجعل لهم مجلساً خاصاً لا يشاركون فيه الفقراء ولا الضعفاء ولا العبيد. فنزل قوله تعالى: " وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ". (52- الأنعام).

ثم راح قوم نوح يلتمسون الأعذار لعدم ايمانهم به. وألهمه الله الرد على هذه الأعذار. قالوا إنه افترى هذا الأمر.

" أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي " (35- هود).

وقالوا إنه حاد عما كانوا يعبدون وضل عن شريعتهم

" قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (60- 61 الأعراف).

قالوا إنه مجنون

" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ " (9- القمر).

" إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَنَرَّبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ " (25- المؤمنون).

كذلك كانت امرأة نوح تقول لقومها عنه إنه مجنون لأنها كانت كافرة مثلهم. وكانت هذه خيانة منها لزوجها - إذ المفروض أن الزوجة ألصق الناس بزوجها وأعلمهم بحاله. وكانت تعلم جيداً أن ما يدعو إليه هو وحي من الله تعالى. ولكنها مجارة لكفرها ولقومها كانت تشيع عنه أنه مجنون وعبر عن ذلك القرآن الكريم بالخيانة في قوله تعالى:

"ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ". (9- 10 التحريم).

ورغبهم في الإيمان بأن لهم الثواب في الدنيا. مطر غزير تكثر به الغلة وتزداد المواشي فتزداد ثروتهم وأموالهم، ويكثر أبناؤهم وتخضر الأرض، وتصبح كأنها جنة تجرى من خلالها أنهار كثيرة. وكيف أنهم بعد كل ذلك لا يطمعون في ثواب الله فيعظمونه ويوقرونه. وأن الله سيغفر لهم ما سبق من تكذيبهم ومن خطاياهم.

" فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ". (10- 11 نوح).

ولكنهم أصروا على تكذيبه بل وهددوه بالرجم. " قَالُوا لئن لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ". (116- الشعراء). وبدأوا في إيذاؤه.

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله، فيجتمعون عليه ويضربونه بالضرب المبرح، ويخنقونه حتى يغشى عليه، ثم يلقونه في حصير ويرمون به في الطريق، ويقولون أنه سيموت بعد هذا اليوم، فيعيده الله سبحانه وتعالى إلى قوته، فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله، فيفعلون به مثل ذلك.

وقال مجاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

وقال ابن عباس: جاء رجل يتوكأ على عصا ومعه ابنه إلى نوح. فدعاه نوح إلى عباده الله. فقال الولد. يا أبت أمكني من العصا. فأخذ العصا وضرب نوحاً فشجه في رأسه وسالت الدماء منه. فقال نوح "رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خير فاهداهم. وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين.

وقيل إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه. فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه، أعطني حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه.

وهكذا بقى النبي الكريم يؤذى ويُعذب، وهو مع ذلك صابر، لا يدعو على قومه بالعذاب، وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح ويقول، لعل الله يخرج من أبنائهم من يؤمن بالله، ومع هذه المدة الطويلة التي ظل نوح يدعوهم فيه - لم يؤمن معه إلا القليل منهم. وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده جيل أخبث وألعن. فلقد كان القوم يوصون أولادهم بعدم الإيمان به. وكان الوالد يقول لوده إذا بلغ وعقل - يا بني احذر هذا، لا يغرنك عن دينك وآلهتك (تفسير القرطبي).

وأقام فيهم ست مائة سنة داعياً ومذكراً وناصحاً، وسلك جميع الطرق لإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان، ومع ذلك لم تثن قلوبهم وقابلوا الإحسان بالشدة ومالوا عليه بالضرب ونفذوا تهديدهم بأن يكون من المرجومين ورجموه.

قال لهم لقد لبث فيكم مدة طويلة وطال مُقامي بينكم وكثر تذكيري بآيات الله عليكم ودعوتي لكم لتعبده. وقد توكلت على الله فلا أبالي بشيء بعد ذلك. وطلب إليهم أن يجتمعوا هم وشركاؤهم الذي يدعونهم من دون الله وكذلك المشركون أمثالهم. وألا يكون الأمر ملتبساً عليهم. بل يدرسوا الأمر جيداً ويفصلوا فيه، ويتخذوا قراراً بصدده: وطلب منهم أن يخبروه بعد ذلك بما استقر عليه رأيهم، إن كانوا سيؤمنون به أم يظلون على كفرهم، وطلب منهم ألا يتأخروا في إخباره بما استقر عليه رأيهم، وذكرهم ثانية بأنهم إن كذبوه ولم يطيعوه، فإن ذلك لن يكون سببه أنه طلب منهم أجراً لا يطيقونه فهو لم يسألهم أجراً، وإنما أجره على الله وأن كل ما يهدف إليه هو أن يؤمنوا به ويكونوا لله مسلمين.

"وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَتَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ".

ثم بدأ يندرهم بعذاب الله إن أصروا على كفرهم.

"إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (نوح).

وأصروا على الكفر وعبادة الأصنام فبدأ نوح يضيق بهم وبكفرهم.

" قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22) وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ آلَهِتُكُمْ وَلَا تَنْزِلْ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً" (نوح).

وكرر عليهم الدعوة للإيمان أكثر من مرة بالليل والنهار. ولكنهم كانوا لا يستجيبون لدعوته - بل إنهم كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعو ما يدعوهم إليه. وهم في هذا يحاكون ما فعله كفار قريش مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرنا بذلك الله في قوله: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" (26- فصلت).

واستمر قوم نوح على ما هم فيه من الكفر والشرك.

وكانوا يغطون رؤوسهم بتيابهم حتى لا يسمعو قوله واستكبروا أن يطيعوه، واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له، ودعاهم جهرة بصوت يسمعه كل الناس، ثم كرر عليهم الدعوة كل على حدة، فيما بينه وبينهم. وطلب منهم أن يرجعوا عما هم فيه من الضلالة وأنهم لو استغفروا لذنوبهم وما سبق من تكذيبهم له. فإن الله سيغفر لهم ذلك. بل وسيرسل عليهم المطر الغزير وتزدهر الأرض وتصبح كأنها جنات - لكل واحد منهم جنة - وتكثر الأنهار. وسألهم سؤال توبيخ وتقريع - لماذا لا توقرون الله وتعظمونه حق عظمتة وفي هذا استفهام ضمني: ألا تخافون بأسه وغضبه ونقمته!!

" قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً " (5 - 12 نوح).



ولبت فيهم مئات السنين يدعوهم فلم يؤمن به إلا نفر قليل، وضاقوا به وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي توعدهم به إن كان صادقاً في أمره.

" قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " (32 - هود).

وضاق هو بهم أيضاً كما ضاقوا به. واشتكى إلى الله وطلب منه أن يفصل في الأمر وأن ينجيه هو ومن معه من المؤمنين قال: " قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " (117 - 118 الشعراء).

كانوا قد تحدوه أن ينزل بهم ما يتوعدهم به من العذاب إن كان صادقاً في دعواه، إذ قالوا "فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين" وكان رده أن العذاب الذي توعدهم به ليس من عنده هو بل من عند الله عز وجل، وراجع إلى مشيئته، وهو وحده الذي يحدد متى ينزل بهم العذاب. وقال إن كل شيء مرده إلى الله، وحتى نصحه لهم لن يكون ذا نفع لهم إن كان الله قد كتب عليهم الضلالة بما علم من فساد طوبيتهم وخبت سريرتهم. وأنهم في الآخرة راجعون إلى الله، وفي هذا إشارة وتذكير لهم بأن هناك حساب في الآخرة على أفعالهم وتكذيبهم.

" قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (33 - 34 - هود).

وأخبر الله نوحاً أنه لن يؤمن به قومه، إلا نفر القليل الذين آمنوا به، وأمره ألا يحزن بسبب ذلك، وبما كانوا يجيبونه وما كانوا يفعلون به عندما كان يدعوهم إلى الله.

" وَأَوْحِيْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " (36 - هود).

فلما كان الأمر كذلك، وعلم أن الغالبية الكافرة لن تؤمن مهما كرر عليهم الدعوة للإيمان فهم سادرون في غيهم، ضلوا ويضلّون غيرهم.

" وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا " (24 - نوح).

وعلم أن لا فائدة من دعوتهم إلى الهدى ولا فائدة حتى من بقائهم على الأرض أحياء.. لأنهم حتى إن بقوا فإن نسلهم سيكون كافراً مثلهم. بل إنهم سيعملون على نشر الكفر في الأرض. فتوجه بالدعاء إلى الله أن يبيدهم.

" وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا " (26 - 27 نوح).

واستجاب الله لدعوة نوح.

" وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ " (75 - 82 الصافات).

وصدر أمر الله.

" ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " (37 - هود).

ولكن كيف يكون غرقهم وكيف تكون نجاته هو وأهله؟

" وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ " (37 هود).

بأعيننا كناية عن عناية الله به أثناء صنعه للسفينة، من تعدى الكفار عليه، وكذلك لتكون السفينة جيدة الصنع، وقيل المراد من أعيننا، ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً لحفظك ولمعونتك والمراد بوحينا أن نوحاً عليه السلام لم يكن يدري كيف يصنع السفينة فأوحى الله إليه طريقة صنعها وقيل إن الله بعث جبريل عليه السلام فعلمه طريقة صنعها.

وأمره الله تعالى ألا يراجعه في امر الذين ظلموا وكذبوه، بأن يطلب لهم التأجيل أو دفع العذاب عنهم، لأنهم قد حُكم عليهم بالإغراق، وجرى بذلك أمر الله وقضاؤه، ولا راد لقضائه فهم مغرقون.

وبدأ نوح عليه السلام في صناعة الفلك.

" وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ " (37- 39 هود).

كانوا يسخرون لأنه لا توجد بحار في هذه المنطقة، والسفن التي كانت تصلح للسر في الأنهار وفروعها - لا بد أن تكون أصغر من ذلك بكثير، من هنا كانت سخريتهم. وقيل: كانوا يتضاحكون ويقولون: يا نوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً. وكان رده عليهم أنهم بقولهم هذا يستوجبون السخرية منهم. وقيل لم يسخر منهم فعلاً لأن السخرية لا تليق بالأنبياء. فكان السخرية مجازاً بسبب جهلهم، ومكافئة لسخريتهم به، وسيحل عليهم العذاب الذي يخزيهم وينلهم ويهلكهم. ولهم في الآخرة عذاب مقيم ودائم في النار.

### صنع السفينة:

لم يتعرض القرآن الكريم لطريقة صنع السفينة ولا أبعادها لأن الهدف من القصص القرآني هو العبرة والعظة وليس في طريقة صنع السفينة - أو كم ذراعاً طولها وعرضها، أو كيف طليت بالقار أو من أين جاء القار كل هذه تفاصيل قد تشتت ذهن القارئ عن العبرة المستهدفة، وهو أن تكذيبهم لنبيهم كان هو السبب في عذابهم واغراقهم.

### الطوفان:

كانت العلامة على بدء الطوفان، أن يفور التتور أي يخرج الماء من الفرن الكائن في بيت نوح عليه السلام.

" حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ " (40- هود).

" فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعَذَّبُونَ " (27 - المؤمنون).

وكلنا يعرف اندفاع الماء بقوة من قاع قدر على النار إلى السطح عند غليان الماء وفورانه ولذلك كان لفظ وفار التتور تعبيراً عن اندفاع الماء بقوة كأنه يغلي.

اعقب ذلك هطول الأمطار الغزيرة من السماء، واندفاع الماء بقوة من عيون تفجرت عنها الأرض.

" فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ " (11- 12 القمر).

وقد شبهت السماء في هذه الآية كأنها بحر عظيم. وقاعه له أبواب، ثم فتحت هذه الأبواب، ولنا أن نتصور شدة اندفاع الماء النازل منها، ليس على شكل قطرات، بل كأنه السيل المنهمر المتواصل المندفع وراء بعضه. كذلك تفجرت العيون في الأرض في كل مكان. ويكتمل المشهد الرهيب بأن يلتقي الماء النازل من السماء والماء المتفجر من الأرض فيصبح الماء في كل مكان. مغرقاً كل شيء كما قدر الله سبحانه وتعالى.

"فالنتقى الماء على أمر قد قدر". وصدق الله العظيم.

### من دخل السفينة؟

أمر نوح عليه السلام ان يحمل في السفينة ثلاثة أصناف:

- 1- من كل زوجين اثنين.
- 2- وأهلك إلا من سبق عليه القول.
- 3- ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل.

## الصنف الأول:

من كل زوجين اثنين، ذكر وأنثى. من كل صنوف الحيوانات، وقيل هبط جبريل عليه السلام إلى الأرض وحمل إلى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين. وكان نوح قد صنع أقفاصاً للوحوش وهو يصنع السفينة.

بعضهم قال وأيضاً من النباتات. وهذا قول فيه نظر فالنباتات لا يخشى عليها من الغرق. ولو غرقت فإنها - بعد أن يجف الماء - لا تلبث أن تنبت من جديد ولذلك فلا داعي لحملها - إلا أن تكون علفاً للحيوانات.

## الصنف الثاني:

أمر الله نوح أن يحمل معه في السفينة أهله، واستثنى بعضهم لقوله: "وأهلك إلا من سبق عليه القول". (40- هود). "وأهلك إلا من سبق القول منهم". (27- المؤمنون).

وهم أهل بيت نوح عليه السلام وأهل قرابته. إلا من سبق عليه القول وسبق أن دعاه نوح إلى الإيمان ولم يؤمن. وكان ممن دعاهم نوح ولم يؤمنوا ابنه يام (وقيل اسمه كنعان) الذي انعزل وحده، ولجأ إلى قمة جبل مرتفع ظناً منه أن الماء لن يصل إليه، كذلك لم يركب معه امرأة نوح وكانت كافرة. لم تؤمن به وكانت تنتهمه بالجنون.

وهنا خلاف. إذ قال قتادة: لم يكن في السفينة إلا نوح وامراته وثلاثة من بنيهِ: سام وحام ويافث ونسأؤهم. فجميعهم ثمانية: وهذا لا يتعارض مع الرأي القائل بأن امرأة نوح كانت كافرة وكانت من المغرقين، فلا بد أن كانت له زوجتان إحداهما كافرة غرقت، والأخرى مؤمنة ركبت معه السفينة.

وقال الأعمش: كانوا سبعة، نوح وثلاثة بنين وثلاث كنانن له.

## الصنف الثالث:

من الذين أمر بحملهم في السفينة هم: من آمن وما آمن معه إلا قليل. حسب نص القرآن الكريم.

فقال اسحق كانوا عشرة. وقال مقاتل كانوا سبعين، بالإضافة إلى نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم فكان الجميع ثمانية وسبعين نفساً، وقال ابن عباس كانوا ثمانين انساناً. وقال علي بن أحمد عن عكرمة ابن عباس قال: فلما ركب نوح في الفلك وأدخل معه كل من آمن، تفجرت ينابيع الأرض، وأمطرت السماء كأفواه القرب أربعين يوماً وليلة، ثم احتمل الماء الفلك.

" وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ " (41- 42 هود).

وكان لنوح ابن لم يؤمن واختلف في اسم هذا الابن، قالوا اسمه يام، وبعضهم قال كنعان. ولجأ إلى جبل، ظناً منه أن الماء لن يصل إليه، ولكن الماء ارتفع، ووصل إلى مكانه، فارتقى إلى قمة الجبل، ولكن الماء ارتفع حتى طاله فكان من المغرقين.

" وَتَادَى نُوحٌ ابْنُهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ " (42- 43 هود).

وغرق كل من كان في أرض العراق وكان ممن وصلتهم دعوة نوح عليه السلام ولم يؤمن وبالتالي لم يكن ممن ركبوا في السفينة.

وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل: لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبي. وذلك أنها خشيت عليه من الماء، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبال وحملت الصبي. فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بها الماء فلو رحم أحداً لرحم هذه.

بعض المفسرين والعلماء يقولون إن الله أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة، فلم يولد لهم في تلك الفترة مولود. وبذلك كان جميع قومه بالغوا التكليف وحق على المكذابين العذاب وحق بهم الهلاك.

لم يتعرض القرآن الكريم لمدة هطول المطر. فهذه ليست بذات أهمية، المهم أن يستمر الماء في الزيادة والارتفاع حتى يبلغ قمم الجبال وهي التي يأمل الكافرون أن يلجأوا إليها إنقاذاً لأنفسهم من الغرق، وبالطبع لجأوا إليها وبالطبع ارتفع الماء فوقها فكانوا من المغرقين، وظلت السفينة طافية على الماء وبها نوح والقلة المؤمنة التي معه.

" فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ " (28 - 29 المؤمنون).

" وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (44- هود).

أمر الله الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها، وأمر السماء أن تكف عن المطر، وشرع الماء في النقصان وتم أمر الله وقضائه من إغراق القوم الكافرين. وقضى الله كما توعدهم نوح بقوله:

"فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ويحل عليه عذاب مقيم" (39- هود).

وتم تحقيق دعوة نوح عليهم "وقال نوح رب لا تنر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً". (26- 27 نوح).

وكان جزاء كفرهم وصددهم عن سبيل الله أنهم أغرقوا في الدنيا ولهم في الآخرة النار، ولم ينصرهم أحد من عذاب الله.

" مِمَّا خَطَبَا تَهُمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً " . (25- نوح).

واستقرت السفينة على جبل الجودي، وهو أحد سلسلة جبال أراراط في شمال العراق أو جنوب شرق تركيا، فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه. فبعث الحمامة فأنته بورق الزيتون ملطخة رجليها بالطين، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط ومن معه من السفينة. وكان خروجهم من السفينة في عاشوراء من المحرم.

## هل كان الطوفان عاماً أم خاصاً؟

بمعنى هل عم الطوفان الكرة الأرضية كلها، أم عم المنطقة التي كان بها قوم نوح، ولم يغمر غيرها من المناطق؟

بعض العلماء يميل إلى أن الطوفان كان عاماً وأنه أهلك كل من وما على وجه الأرض ولم يبق على وجه الأرض إلا نوح ومن كانوا معه ويحتجون على ذلك بالآية الكريمة:

"وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً". (26-نوح).

أي لا تترك على وجه الأرض منهم دياراً، أي ولا دياراً واحداً، والديار هو الذي يسكن الدار وقال السدي: فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين. واستدلوا على ذلك بالحديث الشريف والمروي عن عائشة رضي الله عنها عن ابن عباس حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها... الخ الحديث.

وقالوا إن معنى هذا الحديث أنه لم ينج من الغرق ممن كانوا على وجه الأرض إلا من ركبوا السفينة مع نوح.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: "فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون. قم أغرقنا بعد الباقين". (119- 120 الشعراء).

وقوله تعالى: "وجعلنا ذريته هم الباقين" (77- الصافات).

ولكن هاتين الآيتين لا تدلان على أن جميع البشر على سطح الكرة الأرضية كلها قد بادوا إلى من حملة نوح معه في السفينة - بل تدل على أن الله أنجاه ومن معه في السفينة. وغرق الآخرون. وأن من غرقوا. هم الذين لم يؤمنوا به، ولم يركبوا معه في السفينة من قومه. وبذلك كانت ذريته هم الباقون بعد هلاك المكذبين.

كما أن آية - رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً - لا تعني بالضرورة عموم الكرة الأرضية كلها وإنما تستعمل لتدل على جزء من سطح الأرض ففي سورة يوسف:



"قال اجعلني على خزائن الأرض". و"كذلك مكنا ليوسف في الأرض". والمراد هنا أرض مصر. لا كل الأرض، ولا كل الكرة الأرضية وكذلك قوله تعالى: "وإن فرعون لعال في الأرض" وكذلك قول فرعون لموسى وهارون: "وتكون لكما الكبرياء في الأرض". والمراد هنا أيضاً أرض مصر. وقوله تعالى: "وإن كانوا ليستفزونك من الأرض، ليخرجوك منها". (76- الاسراء؟) والمراد بالأرض هنا أرض مكة.

وكذلك يكون معنى رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً - أي على أرض القوم الذين أرسلت إليهم وكفروا - وهي أرض العراق.

وقد قال الإمام محمد عبده. إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان.

ويقول السيد محمد رشيد رضا إن ظاهر القرآن أن الطوفان كان شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم ولكنه لا يقتضى أن يكون عاماً للأرض إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض.

والقول بأن قوم نوح لم يكن في الأرض غيرهم ليس عليه دليل. فقد كانت مصر عامرة بالسكان من أبناء شيث . كذلك وسط وجنوب شرق آسيا.

ويتبنى آخرون الرأي القائل بأن الطوفان عم المنطقة التي كان يعيش فيها نوح وقومه. وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها الطوفان وهذا الرأي هو الأقرب إلى الصحة.

وأورد الأستاذ الدكتور محمد بيومي مهران أدلة كثيرة على صحة هذا الرأي، أولها أن كل آيات القرآن الكريم تنص دائماً دون لبس أو غموض - على أن نوحاً إنما أرسل إلى قومه خاصة ومن ذلك قوله تعالى:

" إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ " . (1 - 2 نوح).

وغير ذلك من الآيات. التي تؤكد كل التأكيد أن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة - شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء والرسل - إلا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . فهو الوحيد الذي أرسل إلى الناس كافة ومن ذلك قوله تعالى:

"وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً". (28- سبأ).

وهناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم، يذكر فيها الله سبحانه وتعالى عالمية الرسالة المحمدية.

ولما كان الأمر كذلك، وكانت القاعدة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، هي ألا يعذب الله قوماً إلا إذا أرسل إليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل. تصديقاً لقوله تعالى:

"وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً". (15- الاسراء).

ولما كان نوح عليه السلام في العراق فكيف يعذب الله ويغرق أهل مصر، أو سكان الجزيرة العربية. بسبب كفر العراقيين بنوح؟

وإن القرآن الكريم يقول: " مِمَّا خَطَبُوا فَنَرَاهُمْ فِي شَرٍّ أُولُوعَيْنَ بِآيَاتِنَا " (25- نوح).

وهذا يعني أن الذين غرقوا. إنما بسبب خطيئاتهم في حق نوح وكفرهم بدعوته.

وقال نوح عنهم: "قال رب إنهم عصوني".

وكذلك الآية: " وَأَوْحِيْ اِلَى نُوحٍ اِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ اِلَّا مَنْ قَدْ اٰمَنَ " (26- هود).

كل هذا يدل على أن الكافرين الذين أغرقوا كانوا من قوم نوح.

" فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي السَّفَرِ الْفُلْكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ "

أما باقي سكان الكرة الأرضية في مصر وآسيا مثلاً، فلم تشملهم دعوته، وبالتالي لم يكونوا ضمن المكذبين، وبالتالي لم يكونوا ضمن المغرقين.

أما قول البعض بأن الطوفان كان عاماً، ويستدلون بوجود بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء فوق الجبال وهذا يستدعى وجود طوفان غمر هذه الجبال، وهي في أماكن متفرقة من العالم، فإن هذا في الحقيقة دليل ضد عمومية الطوفان فإن طوفان نوح عليه السلام، بفرض أنه عم الأرض كلها - فقد دام مدة قصيرة قيل أربعين يوماً، وقيل 150 يوماً، وأكثر ما قيل سنة شمسية كاملة. وإن صعود الماء إلى الجبال هذه الفترة المحدودة، لا تكفي لتكوين أحياء مائية، إذ أن ذلك يستغرق آلاف وملايين السنين.

وأضيف أيضاً أن الماء الذي كون الفيضان كان ماء عذباً، من مطر السماء وعيون الأرض. والأحياء التي وجدت بقاياها على قمم الجبال كانت بقايا لحياة بحرية لا تعيش إلا في المياه المالحة. والأرجح أن تلك الرواسب إنما حدثت في عصور قديمة ارتفع فيها سطح الماء في البحار والمحيطات فغطى أجزاء كبيرة من اليابسة. ثم انخفض سطح البحر في العصور الجليدية، فتكشفت الأرض وما بها من رواسب، وعلماء الجيولوجيا يقولون بتكرار ذلك عدة مرات. وهذا يفسر وجود تلك الرواسب في عدة طبقات تمثل فترات ما بين العصور الجليدية.

ولو قيل إن الطوفان كان عاماً شمل اليابسة والبحار، فاختلفت مياه المحيطات بالمياه العذبة وانتقلت إليها الأحياء البحرية ولو حدث ذلك لأصبحت الأراضي الزراعية مالحة لا تصلح للزراعة بعد الطوفان وهذا ما لم يحدث إذ تم اعمار الأرض وزراعتها بطريقة عادية بعد الطوفان.

لعل القائلين بعمومية الطوفان يظنون أن عموميته معجزة أكبر من كونه خاصاً. ونقول إن الصيحة التي أهلك بها قوم صالح كان من الممكن أن تبلغ كل أنحاء الأرض وتهلك الناس جميعاً. إلا أن الله جعلها قاصرة على المكذبين من قوم صالح. أما المؤمنين، ولم يكونوا قد ابتعدوا كثيراً فقد حماهم الله من الأثر المهلك لهذه الصيحة. وهذا في حد ذاته معجزة أخرى.

كذلك فإن خصوصية الطوفان لا تقل إعجازاً عن عموميته، فإن ماء الطوفان، وقد ارتفع فوق قمم الجبال بخمسة عشر ذراعاً وفي قول آخر بثمانين ذراعاً - في المنطقة التي كان بها قوم نوح - وهي شمال العراق - وهي أصلاً مرتفعة كثيراً عن جنوبه بدليل جريان ماء دجلة والفرات من الشمال إلى الجنوب باندفاع شديد - ولو أخذنا بخصوصية الطوفان فلا بد أن حافة المياه ناحية صحراء الشام وصحراء الجزيرة العربية كانت كالطود العظيم، بحيث أنها لم تغرق هذه الأمكنة - بدلاً من ذهاب المفسرين إلى أن البيت المعمور بمكة رفع على جبل أبي قبيس - كما جاء في الطبري - أو كما في قول آخر - أن الله أمر جبريل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة، وخبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس. ويرى آخرون أن البيت لم يكن مبنياً قبل أيام إبراهيم عليه السلام. وأن الروايات التي قالت بأن آدم قد نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا لآدم قد طفنا قبلك بهذا البيت. أو أن السفينة قد طافت به ودارت بالحرم أسبوعاً أو أربعين يوماً، فهي كلها مبالغات وخيالات، ولعلها مأخوذة عن بني إسرائيل.

وأضيف أيضاً، أن وجود عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً، في بعض القبائل في أطراف الجزيرة العربية في فترة وجيزة بعد الطوفان - فقد وجد في دولة معين في اليمن تمثال ود - يدل على أن عبادة هذه الأصنام قد انتقلت من قوم نوح إلى البلدان عن طريق قوافل التجارة. ولما حدث الطوفان في العراق اندثرت عبادة هذه الأصنام (ود وسواع ...) وبقاؤها في هذه القبائل العربية بعد الطوفان بفترة وجيزة تدل على أن الطوفان لم يشملها. إذ لو كان عاماً شمل كل الكرة الأرضية لزالّت عبادة هذه الأصنام أيضاً من اليمن، ومن غير المعقول أن تنشأ عبادة أصنام بنفس الأسماء القديمة من جديد بهذه الأماكن وفي فترة زمنية وجيزة.

كذلك فإن شمال العراق لم يكن به الأفيال ولا الجمل ذو السنامين ولا الزرافة ولا الكنغر. وبالطبع لم يحمل نوح معه أيّاً منها في السفينة، فلو أن الطوفان قد عم جميع أنحاء الكرة الأرضية وبادت جميع الحيوانات إلا التي حملها نوح معه - فمن أين وجد الفيل الحالي أو غيره من الحيوانات السابق ذكرها وغيرها. ومن غير المعقول أن العراق كان

به جميع الحيوانات التي كانت موجودة على سطح الأرض. فنحن نعلم أنها أنواع تقدر بمئات الآلاف وحتى لو فرض جدلاً وأنها وجدت في العراق لما اتسعت السفينة لهم جميعاً.

كذلك يرى جماعة من أهل فارس والهند. أن تاريخ الملك عندهم يمتد في الماضي إلى تواريخ بعيدة - إلى ما قبل التاريخ المحدد لطوفان نوح. وأن عمرانهم متصل من أعماق أجيال إلى اليوم. كذلك فإن الأدب المصري القديم وهو دون شك من أدق الآداب في تدوينه - لم يذكر شيئاً عن طوفان غمر أرض مصر ولا وجدت حفريات تدل عليه.

لهذا كله، فمن المؤكد أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها، بل كان عاماً في المنطقة التي عاش فيها قوم نوح، وبعض المناطق المجاورة، أما باقي بقاع الأرض فلم يشملها الطوفان. وهذا لا يقلل من قدر المعجزة بل لعله يزيد من إعجازها!!

### طوفان أم فيضان؟

هناك اتجاه عند بعض المثقفين لإرجاع المعجزات لأسباب طبيعية تماماً، فمثلاً يقولون إن انشقاق البحر لموسى عليه السلام كان بسبب موجة جزر شديدة كشفت قاع البحر. أعقبها موجة مد كبيرة أغرقت فرعون وجيشه.

وقالوا أيضاً إن ثمود أهلكوا بصاعقة كهربائية مثل ما نسمع عنه في الإذاعات - من صواعق حارقة.

وسأذكر هنا الرد فيما يتعلق بالطوفان، أما المعجزات الأخرى فسيكون الرد عند ذكرها. صحيح أن العراق كان يتعرض لفيضانات عالية، من نهري دجلة والفرات، تُغرق ضفتي النهر وتبيد مظاهر الحياة فيها. وليس ذلك "ضد" المعجزة كما قد يتوهم البعض، بل بالعكس هو ما يؤيد الطوفان كمعجزة ، فالمعروف أن المعجزات تكون مما برع فيه القوم، وعرفوا أسرارهم، فإن معجزة موسى عليه السلام لم تكن نوعاً من السحر، لأن القوم عرفوا السحر وخبروه، وبرعوا فيه، حتى إنهم ليلقون حبالهم وعصيهم فيخيل للمشاهد أنها ثعابين تتلوى وتسعى، وما هي في الحقيقة بذلك. لذلك لما ألقى موسى عليه السلام

عصاه فإذا هي تلقف وتبتلع حبالهم أدركوا أن هذه هي المعجزة الحقيقية - وآمنوا برب موسى، ولو أجرى أجحد هؤلاء السحرة لعبته هذه أمام أناس ليس عندهم خبرة بالسحر، لظنوا أنه يأتي بمعجزة مؤيدة من الله عز وجل. ولآمنوا بما يدعوا إليه من تأليه فرعون. وعلى ذلك فإن حدوث المعجزة من صنف ما خبره الناس دليل على خرق النواميس المعهودة وذلك لا يتم إلا بقدرة من الله رب العالمين.

ولن أطيل أيضاً في شرح أن معجزة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وهي القرآن الكريم كانت لقوم برعوا في اللغة واتفقوا شعرها ونثرها فلما جاءهم القرآن الكريم قالوا عنه ما هو بالشعر وما هو بالنثر. وأيقنوا أنه معجزة من الله رب العالمين.

ولو جئنا لأهل مصر - وقد تعودوا على نهر النيل الذي يجري في أرضهم هادئاً سالماً إلا من بعض فيضانات عالية بعض الشيء، أقول لو جئنا لأهل مصر بفيضان كبير مثل فيضانات نهري دجلة والفرات أو المسيسيبي لاعتقدوا أنها معجزة.

أما أهل العراق فقد خبروا الفيضانات العالية المدمرة لنهري دجلة والفرات، وما كان ليفوت عليهم الاختلاف الواضح بين هذه الفيضانات ومعجزة الطوفان.

والفيضانات العالية تحدث عند هطول أمطار غزيرة على جبال منبع النهر، أو عند ذوبان الثلوج على قمم هذه الجبال، فيضيق مجرى النهر عن كمية المياه المتدفقة، فتتدفع المياه بشدة وتفيض على الجانبين وتمضي هادرة تكتسح في طريقها كل ما تصادفه ففي فيضان نهر يانغتسي في الصين عام 1944 دمر مدناً وقرى، وغطت مياهه آلاف الكيلومترات المربعة من الأراضي الزراعية وفقد خمسة عشر ألفاً من الناس أرواحهم.

وفي عام 1927 حدث أكبر فيضان في وادي نهر المسيسيبي واكتسحت المياه الهادرة القرى والمدن، واقتلعت الخطوط الحديدية، وأطاحت بالكباري المشيدة من الصلب، وها نحن نرى في التلفيزيون الفيضانات تدفع أمامها السيارات وتقلبها وترطمها بالصخور والأشجار.

فالفيضانات كلها عبارة عن مياه ضاقت عنها جوانب النهر، فطغت على جوانبه وتمضي مندفعة متسارعة تكتسح أمامها كل مظاهر الحياة. وقد لا ترتفع مياه الفيضان إلا أمتاراً قليلة إذ أن الصور التي أخذت لفيضان المسيسيبي وهو من أشد الفيضانات - ترينا قمم الأشجار ومداخل المنازل التي لم تتهدم. إذ أن أثر الفيضانات المدمرة ينتج عن شدة إندفاع المياه.

أما الطوفان فقد كان شيئاً مختلفاً تماماً، أمطار غزيرة سقطت في كل مكان كأنها أفواه القرب. ولم يقتصر سقوطها على جبال منبع النهر - بل على كل أرض العراق شماله ووسطه وجنوبه وكذلك المناطق المجاورة. وتفجرت الأرض عن ينابيع وعيون يندفع منها الماء بقوة. وترتفع المياه أمتاراً كثيرة حتى لتغمر الأماكن المرتفعة ثم تزيد المياه فتغطي سفوح الجبال. ثم قممها وتعلو فوق قممها عدة أمتار. وليس هناك اندفاع المياه من الشمال إلى الجنوب كما في مياه الفيضان شديدة الجريان - بل الماء في كل مكان. صحيح أن الرياح قد تحدث أمواجاً عالية - وكما أخبر عنها القرآن الكريم "في موج كالجبال" كما يحدث في البحر أحياناً من أمواج عالية - ولكن ليس لها اندفاع مياه الفيضان.

وما كانت سفينة نوح عليه السلام أو أي سفينة أخرى - لتصمد أمام اندفاع المياه لو كان ما حدث فيضاناً، فقد رأينا في فيضان المسيسيبي وغيره من الأنهار، كيف كانت المياه المندفعة تجرف السيارات وتقتع الكباري وتذفها بعيداً محطمة، وكان حرياً أن تدفع المياه السفينة أمامها لترتطم بأي عائق وتتكرر أو تطيح بها في الخليج أسفل النهر، ولكن مياه الطوفان كانت ترتفع تدريجياً فاحتملت السفينة وكلما ارتفعت المياه ارتفعت معها السفينة.

وتكتمل المعجزة بأن ترسو السفينة على الجودي، وهو أحد جبال أراراط في أقصى شمال العراق. ويستحيل على فيضان أن يدفع سفينة في عكس اتجاه مياهه. وكأن مكان رسو السفينة في أقصى الشمال كان مقدراً ليدحض أي تفكير في أن ما حدث هو فيضان من فيضانات نهري دجلة والفرات. وأنه فقط فاقها في الشدة.

وقد تبنى بعض المستشرقين ما ترويهِ الأسطورة السومرية عن الطوفان، من أن السفينة قد رست في أرض دلمون. وقالوا إن أرض دلمون هذه تقع في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس -أي الجزء الشرقي من ساحل الخليج ومنهم من قال إنها في منطقة وادي السند، ومنهم من رأى أنها تقع في جنوب غرب بابل - ومنهم من قال إنها تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب، أو قرب جزيرة البحرين الحالية. ولعلمهم تبنوا هذه المواقع لاعتناقهم فكرة فيضان دفع السفينة جنوباً، في حين أنهم لو قالوا برسوا السفينة على جبال أراراط لوجب إيمانهم بطوفان معجزة، وهو ما لا يريدون الاعتراف له.

أما عن الخلاف في الاسم في مرسى السفينة - حيث في القرآن الكريم "واستوت على الجودي". (44- هود).

وجاء في التوراة الإصحاح الثاني:

واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط وحاول البعض أظهار تعارض بين النصين السابقين، وأراراط هي جبال في أرمينيا أو هي أرمينيا ذاتها كما جاء في المعجم العبري. ومن هذا يفهم أن التوراة لم تسم مكاناً بعينه لرسو السفينة. بل حددت أنها رست في أرمينية، وسلسلة الجبال التي تحتوي على عدد من القمم، وقيل إن إحدى هذه القمم اسمه الجودي وهو الذي ورد بالقرآن الكريم فلا تعارض إذن بين النصين.

وبعضهم حتى قال: إن الجودي مشتق من الجد - وهو يعني شاطئ النهر أو ساحل البحر ومنه الميناء المشهور جده بالمملكة السعودية أي أن الجودي يعني المرسى وليس اسم مكان بعينه وقوله تعالى: "باسم الله مجراها ومرساها" أي باسم الله حملها على الماء وباسم الله رسوها على الأرض أي على الشاطئ أي رسوها على الجودي.

وبالرجوع إلى القاموس المحيط نجد أن الجُد مشتقة من "جد وجدد" أما الجودي فهي مشتقة من "جود" وهو العطاء.



وعلى ذلك فالأرجح هو أن الجودي هو اسم قمة جبل في سلسلة جبال أرارات في أرمينيا شرق تركيا وشمال العراق.

### أخبار عن نوح عليه السلام

ونختم قصة الطوفان ونوح عليه السلام بأخبار عن نوح نفسه.

قال الله عنه: "إنه كان عبداً شكوراً". (من الآية 3 - الاسراء).

قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله. والشكر شيمة عباد الله الصالحين، وروي في الأثر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها".

وقال ابن ماجه عن صيام نوح عليه السلام ما رواه عبد الله بن عمرو بقوله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى".

وقال الطبراني عن آخرين أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى. وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر.

وقال الحافظ أبو يعلى مروباً عن ابن عباس قال: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أتى وادي عسفان قال: يا أبا بكر، أي واد هذا؟ قال هذا وادي عسفان. قال لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران (النوق الفتية) لهم حمر خطمهم الليف أزهرهم العباء، وأرديتهم النمار (برود من صوف) يحجون البيت العتيق. قال ابن كثير فيه غرابة.

ولعل غرابته هي في أن البيت الحرام بمكة لم يكن قد بني بعد في عهد نوح عليه السلام.

وقال الامام أحمد عن آخرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك وصية، أمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، أمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة، ضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر. يقول ابن كثير، وإسناده صحيح ورواه أبو القاسم الطبراني عن طريق آخر. وكذلك رواه أبو بكر البزار عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ويقول أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره 600 سنة وعاش نوح بعد الطوفان 350 سنة فكانت كل أيام نوح 950 سنة.

بعضهم يرى أن قول القرآن الكريم "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً". (14-العنكبوت)\*.

تعني أن هذه المدة كلها كانت قبل الطوفان.

وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: مكث نوح، عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وغرس مائة سنة الشجر ثم جعلها سفينة... فإذا كان هذا الحديث صحيحاً فإنه يجعل أيام نوح كلها 950 عاماً قبل الطوفان + 300 عام بعد الطوفان فيكون كل عمره 1300 سنة.

وبعضهم قال عن ابن عباس أن نوحاً بعث وعمره 480 سنة ولبث يدعو قومه 950 سنة وعاش بعض الطوفان 350 سنة فيكون عمره 1780 سنة.

ولعل في هذا مبالغة والأرجح أن قوله تعالى: "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً" تشمل الفترة قبل البعثة وبعدها وقبل الطوفان وبعده أي كل عمره هو 950 سنة.

وأما قبره عليه السلام فبعضهم قال ببلدة بالباق تعرف اليوم برك نوح وهناك جامع قد بني بسبب ذلك، وقيل أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام، وهذا قول ضعيف.

## أبناء نوح عليه السلام

بنهاية قصة نوح عليه السلام تقفز كل كتب قصص الأنبياء إلى قصة هود عليه السلام. كقصة منفصلة ولا تذكر شيئاً عن الرابطة بينهما، لا جغرافياً ولا تاريخياً ولا كيف وصل الناس من مكان إقامتهم بعد الطوفان إلى المكان الذي وجد فيه قوم هود. مع أن تاريخ البشرية حلقات متصلة، تتبع بعضها بعضاً، لهذا كان من الواجب إضافة هذا الباب عن أبناء نوح، يربط بين نوح وهود عليهما السلام.

" قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " (48- هود).

"وجعلنا ذريته هم الباقين". (77 - الصافات).

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وأن كل من بالسفينة مات ولم يعقبوا عقباً باقياً، غير أبنائه الثلاثة سام وحام ويافت وأزواجهم، فإنهم بقوا متناسلين حتى ملأوا الأرض. ويوافقه في ذلك كثيرون ويرون أن الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ولذا قيل له آدم الثاني.

والرأي عندي أنه - وقد قبلنا أن الطوفان كان خاصاً، وقد عم العراق والشام وساحل البحر المتوسط أي مكان فلسطين ولبنان حالياً، وشمل أيضاً جزءاً من أو كل الجزيرة العربية - فإن باقي بقاع الأرض لم يغمرها الطوفان وظلت عامرة بسكانها، ومن هذه الأماكن المؤكدة مصر وفارس والهند من تسجيل هاتين الدولتين لتاريخهما لم يتبين منه طوفان غمرهما. وكذلك فإن وسط وجنوب وشرق آسيا ظل بها سكانها الأصليون المنحدرون أصلاً من نسل قابيل.

إلا أنه بعد الطوفان إنتشر أبناء سام وحام ويافت في كل جهات الأرض. وحتى الأماكن التي وجدوا فيها أقواماً، فإنهم امتزجوا بهم وأصبح الكل ينسب إلى أسماء أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافت.

تقول التوراة (إصحاح تاسع - تكوين) وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: أنثروا وأكثروا واملأوا الأرض... وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك هم سام وحام ويافث. ومن هؤلاء تشعبت قبائل في أنحاء الأرض.

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم.

وقد روى عن عمران ابن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله. ويقول ابن كثير والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي ابن ليطي ابن يونان ابن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روى من حديث اسماعيل بن عياش، عن يحيى ابن سعيد، عن سعيد بن المسبيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة: فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر.

وأخرج ابن مروية عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه، وأخرج اليزار وابن أبي حاتم والخطيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج ولا خير فيهم، وولد حام القبط والسودان.

والاختلاف الوحيد في هذه الأحاديث هو في وضع الروم. هل هم من نسل سام أم من نسل يافث، والأرجح هو الحديث المروي عن سمرة في أن الروم من نسل يافث. ويزيده ابن كثير توضيحاً بأنهم من نسل رومي ابن ليطي ابن يونان ابن يافث - إلا أن التوراة - ولا أي مرجع آخر - لم يرد فيها أن أحد أبناء يافث كان اسمه يونان. ولكن يزيد رجحان الاحتمال المفترض وجود بلدة في وسط هضبة الأناضول اسمها تابال. وهو

اسم قريب الشبه جداً من اسم توبال وهو أحد أبناء يافث. ومن المعروف أن المناطق أو المدن تسمى أحياناً بإسم القبيلة أو اسم كبيرها.

أما نسل حام فإنه من المتفق عليه أن وسط أفريقيا (السودان والحبش) ، وشمال أفريقيا (البربر) وجزء من قبط مصر، هم حاميون، وكذلك فإن الجزء الجنوبي من الساحل الشرقي للبحر المتوسط (فلسطين) من ميناء صيدا حتى غزة سكنه الكنعانيون، وكنعان هو ابن حام. وميناء صيدا أو صيدون سميت على اسم أحداً أولاد كنعان وهو صيدون. أما أبناء سام فمن نسلهم العرب والفرس.

فالمنطقة شرقي نهر دجلة وهي الجزء الغربي من بلاد فارس سكنها قوم سمو العيلاميون. نسبة إلى عيلام بن سام. وأشور سكن شمال العراق ، وبنى المدينة المسماه باسمه وتكاثر أبنائه وكونوا الآشوريين.

والابن الثالث لود أو لودا يقال إنه أبو العمالق، الذي سكنوا وسط جزيرة العرب. والرابع آرام. ومن المحتمل أن الآراميين ينسبون إليه، ومنهم ظهر اثنان من الأنبياء هما هود وصالح. أما أرفكشاد فمن نسله فالج ويقطان ومن فالج سلسلة نسب تنتهي إلى إبراهيم وابن أخيه لوط عليهما السلام.

ويمكننا أن نتصور ما حدث في هذه الأزمنة كما يلي:

نزل نوح عليه السلام وأبنائه، سام وحام ويافث، بعد أن رست السفينة على الجودي في سلسلة جبال أراراط في شرق تركيا بين البحر الأسود وبحر قزوين وبالطبع فإنه - بعد الطوفان - كانت كل أرض العراق قد أفرغت من سكانها - كذلك الشام وفلسطين والجزء الشمالي من الجزيرة العربية كل هذه المناطق التي شملها الطوفان قد أصبحت خالية من السكان.

وبالطبع تكاثر أبناء نوح وكلما زاد عددهم اضطرت جموع منهم أن ترحل طلباً لمكان فيه سعة من الرزق وولد لسام خمسة أبناء.

أولهم عيلام. من فقد ارتحل جنوباً في المنطقة شرقي أراضي ما بين النهرين أي الجزء الغربي من بلاد فارس. وأسس أبناء عيلام وأحفادهم وذريتهم مملكة عيلام وكانت عاصمتها مدينة سوسة وعرفوا بالعيلاميين.

أما آشور فقد بقى في الجزء الشمالي من المنطقة المحيطة بنهر دجلة وبنى مدينة سميت بإسمه آشور. ومن ذريته الآشوريون.

وأرفكشاد أو أرفخشذ ولد شالح. وشالح ولد عابر، وعابر ولد فالج، ومن نسل فالج إبراهيم ولوط عليهما السلام.

ولود أو لواد من ولد سام. ويقال إن عمليق - أبو العمالة - من نسله. وعلى كل فالعمالة سكنوا شمال الجزيرة العربية وهم العرب القدماء. وكانوا يقطنون شمال الجزيرة العربية فيما يلي شبه جزيرة سيناء ويقال أيضاً إن الاسم مشتق من اسم قبيلة كانت تسكن شمال خليج العقبة وكان اسمها ماليق أو مالوق. وأضاف إليها اليهود لفظ "عم" أي الشعب، قالوا عم ماليق أو عم مالوق ثم قيلت عماليق وعمالة، كذلك فإن العمالة زحفوا على العراق واستوطنوا جزءاً كبيراً منه، وأسسوا دولة الكلدان.

وابن سام الخامس هو آرام أو أرم، وهود وصالح عليهما السلام من نسله. وهناك من يرى أن العمالة من نسله أيضاً.

وبالطبع فإن سام وأبناؤه كانوا على دين أبيهم نوح، موحدين ويعبدون الله. ولكن الأحفاد سرعان ما تناسوا عبادة الله وادخلهم الشرك واتخذوا أصناماً وعبدوها.

ومن نسل آرام كانت قبيلة عاد التي ارتحلت حتى وصلت إلى الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية حيث تقع حضرموت واستقرت هناك.

وكانوا يعبدون الأصنام.

فأرسل الله إليهم هوداً ليهديهم سواء السبيل.

### إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم بن تارح (أو آزر) بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد (أو أرفخشذ) بن سام بن نوح عليه السلام.

#### مكان ووقت ولادته:

أرجح الأقوال أن ولادته كانت في مدينة "أور" ومكانها حالياً ثل المقيبر - على الضفة الجنوبية لنهر الفرات، حوالي 150 كيلوا متراً غربي البصرة وتسمى في التوراة "أور الكلدانيين".

عاش إبراهيم في أور الكلدانيين، وكان أبوه (تارح أو آزر) نحاساً ماهراً ذاع صيته، وكان يصنع تماثيل الآلهة. ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار إن ملك بابل أرسل في طلبه ليصنع تماثلاً للآله مردوخ كبير الآلهة. ويقول أيضاً إن ناحور - جد إبراهيم - كان أبرع من تعلم التنجيم. وأنه كان ينظر في كبد شاه مذبوحة ليستطلع المستقبل ويقال أنه في إحدى المرات رأى أن الآلهة انكفأت على وجهها، ففزع ولكن عاد إليه إيمانه بقدرة آلهته على حماية نفسها.

وكبر إبراهيم، ورأى أباه وهو يصنع تماثيل الآلهة في براعة ويشكل الخشب على هيئة إنسان إلا أن أذنيه كبيرتان ويحمل السلاح المقدس ويربض تحت قدميه وحش. ويقال إنه سأل أباه: لماذا تكون أذننا التمثال كبيرتين، وكان الجواب أن الأذنين الكبيرتين ترمزان إلى فهم عميق !!

وعاش إبراهيم مراحل صنع التماثيل ورأى كيف أنه أحياناً ينشق الخشب وينكسر التمثال فيلقى به والده جانباً وقد يستعمله كوقود للنار، ويصنع غيره. ولعله كان يقوم أحياناً في الليل فيرى الجرذان والحشرات تمشي على وجوه التماثيل وتدخل أعينها وآذانها ولا تستطيع أن تردّها عن نفسها. ولعله تعجب - من هذه التماثيل التي لا تملك أن تدفع عن نفسها شيئاً - كيف يرجوها الناس أن تلبي طلباتهم - وكيف يركعون

ويسجدون لها ولعله تعجب أيضاً. وكيف أن هذه الآلهة التي لا تتنفس ولا تتحرك، تهب الحياة والحركة والأنفاس للناس كما يدعي الكهنة وما دامت عاجزة عن الحركة وعن كل هذا فكيف يعتقد الناس أنها آلهة. وكيف تغيب هذه الحقيقة البسيطة عن عقول القوم !!

لقد كان قومه - من بين ما يعبدون - يعبدون الكواكب أيضاً، وفي الليل رأى كوكب المشتري أبو الزهرة، وسأل نفسه، هل هذا هو الإله كما يدعي قومه؟ ولكن بعد عدة ساعات غاب الكوكب ولعله تسأل - هل كان هذا الكوكب يستطيع أن يبقى في السماء بدون أن يغرب؟ وكان الجواب لا. إذن فحركته مقيدة مرسومة. والإله يجب أن يكون حراً يفعل ما يشاء.

وفي ليلة أخرى رأى القمر. وكان القمر في أوج تمامه. بديراً ونوره أسطع ما يكون. وسأل نفسه أيضاً، أكون هذا هو الإله كما يدعي قومه ويرمزون له ويعبدونه؟ ولكن بعد ساعات غاب القمر أيضاً، ورآه في بعض الليالي يصير هلالاً رفيعاً جداً لا يكاد يُرى ثم يصير بديراً، ثم يصغر ويتضاءل حتى يختفي، ورأى أن هذه الدورة تتكرر بانتظام على مدى الشهور فلم أن حركته مرسومة له وليس حراً إن شاء طلع وإن شاء لم يطلع وأيقن أنه أيضاً لا يصح أن يكون إلهاً. ثم في النهار رأى الشمس. أكبر من القمر وضوؤها أقوى ولها حرارة شديدة.

وفكر في أنه لو كان أحد الكواكب هو الإله لوجب أن تكون الشمس. ولكنه رأى الشمس مالت إلى المغرب واصفر ضوؤها ثم غربت وغاب ضوؤها. وكذلك رأى أنها تشرق في مواعيد محددة لا يمكن أن تحيد عنها فهي إذن مسيرة ومجبورة على ذلك لا تملك حرية في شروقها أو غروبها فأدرك أنها أيضاً لا يمكن أن تكون هي الإله كما يدعي بعض قومه.

لقد حبا الله سبحانه وتعالى إبراهيم منذ صغره بنعمة رجحان العقل والرشد وحسن تمحيص الأمور للوصول إلى حقيقتها، وكان الله عالماً لما به من كمالات، وفيه كناية عن حفظ الله له: "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل، وكنا به عالمين" (51- الأنبياء).



وأجال بصره في السماء يتلمس الهداية والرشاد. وفي لحظة مشرقة تجلت له الحقيقة. ونزل عليه وحي السماء يهديه إلى الله الواحد الأحد خالق الكون والسماء والأرض والكواكب والشمس والقمر.

لا ندري كيف كان نزول الوحي على إبراهيم عليه السلام، هل تبدى له جبريل يملأ السماء ثم يضمه إليه كما فعل مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أم كان صوتاً يقول له: إني أنا الله لا اله الا انا فاعبدني كما حدث مع موسى عليه السلام، المهم أن الوحي أخبره أن الله قد اختاره نبياً لهداية قومه.

"إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" (33- آل عمران). وهكذا اختاره الله نبياً

"واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً" (41 مريم).

ثم أصبح رسولاً إلى قومه كما كان نوح رسولاً

"ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم". (من الآية 26- الحديد).

لا ندري كم كان عمر إبراهيم عليه السلام عند اصطفائه ولكن القاعدة العامة هي أن النبي لا يُبعث حتى يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة.

"حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" (من الآية 15- الأحقاف).

وتبعاً لهذه القاعدة يكون الأرجح أن إبراهيم عليه السلام كان قد بلغ أربعين سنة حين كلف بالرسالة خلافاً لما قد يظنه البعض من أنه بعث في سن صغيرة. ويستدلون على ذلك بقول القرآن الكريم على لسان القوم:

"قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم". (60- الأنبياء).

وهكذا تم اصطفاء إبراهيم نبياً ورسولاً ليخرج قومه من الظلمات إلى النور وكان أن بدأ بدعوة أهل البيت ومن الطبيعي أيضاً أن يكون أول من يدعوه هو والده، وفي ظنه أنه

سيكون أول من يلبي دعوته، إذ هو الذي يصنع الأصنام بيديه وينحتها من الحجارة أو من الخشب.

ويحرقها إذا انكسرت أثناء الصنع. فلا بد أن يعرف في قرارة نفسه أنها ليست بآلهة حقيقة ولكنه يجاري القوم في معتقداتهم - إذ هي مصدر رزقه وثرائه، ذلك كان تصور إبراهيم حينما بدأ يدعو أباه إلى الإيمان بالله وحده وتلطف إبراهيم في الدعوة فقال:

" إِنْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42- مريم). ولكن لم يجد استجابة من أبيه.

وبدأ يدعو القوم كلهم ويذكر لهم أن هذه الاصنام لا تسمعهم ولا تنفعهم ولا تضرهم. واتخذ أسلوب السؤال الاستكاري حتى تكون الاجابة اقراراً منهم بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر. ولكنهم لما رأوا أن الحجة ستقوم عليهم لو أجابوا. تهربوا من الإجابة بأن قالوا إنهم وجدوا آباءهم يعبدونها وهم يتبعون آباءهم في ذلك.

" وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ (69) إِنْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ " (69- 74 الشعراء).

وهنا جابهم بالحقيقة واضحة صريحة بأنه عدو لهذه الأصنام. وكان الناس يخافون أن يعصوا الأصنام ظناً منهم أنها تقدر على إيذائهم. ولكنه - على الملأ - أعلن عداوته لهذه الأصنام. يقصد بذلك أن يوضح لهم أنه لا يخافها فهي لن تستطيع أن توقع به أي ضرر لأنها لا حول لها ولا قوة. وأن القوة لله رب العالمين. فهو الذي خلقه وما دام قد خلقه فقد خلقهم أيضاً وهو خالق الكون كله. وذكر لهم أن الله قد هداه إلى الطريق القويم، كما أن الله هو الذي يُطعم ويُسقي وإذا مرض المرء فالله هو الذي يشفيه يقصد أن يقول لهم إن آلهتهم لن تسبب له مرضاً. وأنها ليست هي التي تسبب الأمراض للناس وليست هي التي تُرجى للشفاء لأن الله هو الذي يشفي ثم ذكر لهم حقيقة لا

يختلف عليها أحد وهي الموت. فلا أحد من البشر يدعي أنه هو الذي يميت وما دام الله هو الذي يميت، فهو قادر على الإحياء مرة أخرى بالبعث يوم الدين.

" قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ " (75- 81 الشعراء).

وفي تفسير هذه الآية قالوا إن ذكر "هو" قبل بعض الأفعال يدل على تأكيد نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى. لأن في ظاهرها مخالطة لبعض أعمال من البشر. أما الأفعال التي ليس ليد البشر دخل ولا شبهة تدخل فيها. فهي لا تحتاج لتأكيد. فالخلق والإماتة والإحياء، لا يُشك في أنها كلها تحدث بأمر الله وحده أما الهداية والإطعام والشرب والشفاء فقد يكون لبعض الأفراد دور في الهداية أو تيسير الطعام أو الشراب أو تقديم الدواء لشفاء مرض من الأمراض.

ولكن ما هي الا وسائل فقط لإيصال رزق الله للعبد. فالطبيب يكتب الدواء ولكن الشافي هو الله لذلك لزم التأكيد على أن هذه الأفعال في ظاهرها للبشر دور فيها، إلا أن الله من وراء ذلك هو الفاعل الحقيقي، لذلك كان التأكيد بذكر هو أي الله في حدوث هذه الأفعال.

ولم يجد إبراهيم آذاناً صاغية. حتى من أبيه وهو الأولى أن ينصره فقال مخاطباً له:

"إني أراك وقوم في ضلال مبين". (74- الأنعام).

ولكنه بالرغم من ذلك تتملكه عاطفة الأبوة فيدعو له قائلاً:

"وَإِغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ". (86- الشعراء).

ومرة ثانية سأل قومه سؤال استنكار - عن هذه التماثيل التي يعكفون لها أي يعكفون على عبادتها. وكان جوابهم أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها، فقال لهم أنهم وآباءهم على ضلال واضح إذ يعبدون تماثيل لا تضر ولا تنفع. فسألوهم: هل ما تقول له حق أم هو

لعب وهزل فقرر لهم أن ربهم هو رب السماوات والأرض وهو الذي خلقها وفطرها وأنه يشهد على ما يقول.

"إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ". (52- 56 الأنبياء).

وأراد أن يقيم عليهم الحجة ويجعلهم يصلون بأنفسهم إلى الاقتناع بأن هذه التماثيل وما ترمز إليه من الكواكب أبعد من أن تكون آلهة ويبطل قولهم بربوبية الكواكب. ولعلمه برسوخ هذه العبادة في نفوسهم فقد شبوا ورأوا آباءهم يعبدونها. فما إلى طريق يستدرجهم إلى استماع الحجة وذلك بأن ذكر لهم كلاماً يوهم كونه مسانداً لهم على مذهبهم. مع أنه كان كلية مطمئناً بالإيمان.

وعلى ذلك فإنه لما رأى كوكب المشتري أو الزهرة يلمع نورها في السماء أثناء الليل، ومجارة لهم، وعلى سبيل الفرض، قال هذا ربي أو تهكماً، كأنه قال هذا هو الذي تدعون أنه ربي. ولما غرب الكوكب قال لا أحب عبادة إله يأفل ويغيب. ولما رأى القمر قال نفس القول. ثم لما غرب قال إن الإله لا يصح أن يظهر ويغيب هكذا ولما رأى الشمس تبزغ قال إنها أحق بالعبادة لأنها أكبر وضوؤها أقوى. ولكنها غربت أيضاً، فلا يصح أن تكون رباً. وهكذا وصل بهم إلى النتيجة التي أرادها - وهي أن أيّاً من هذه الكواكب لا المشتري أو الزهرة ولا القمر أو الشمس يصح أن تكون آلهة لأنها تشرق وتغيب في مواعيد محددة. فهي مُسخرة وتسير في فلك لا تحيد عنه وليس لها ارادة في أن تبقى في السماء كما يحلو لها. وبهذا أقام الدليل على أنها لا تملك من أمرها شيئاً فكيف تملك أن تدبر شئون العباد!

"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنُ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (75-79 الأنعام).

وذكر بعضهم أن ذلك كان قبل البلوغ وقبل اصطفاء الله له ولا يلزمه اختلاج شك. وكأن حديثاً دار في نفسه أن هذه التماثيل لا يصح أن تكون آلهة - كما سبق أن ذكرنا - وهكذا أجال إبراهيم بصره في الكون يتلمس الإله الحقيقي. "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين". ولما وصل إلى هذه النتيجة.

"قال يا قوم إنني بريء مما تشركون".

"وتجلت له الحقيقة. ناصعة واضحة في ذهنه فتوجه إلى الله بقلبه.

" إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ "

وهكذا أقام عليهم الحجة في بطلان ما يعبدون.

وقال: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ". (26-27 الزخرف).

وأعاد إبراهيم الدعوة على أبيه وألح في ذلك إشفاقاً عليه ورغبة في أن يؤمن بالله.

" وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ". (41-45 مريم).

ولنتأمل هنا جمال اللفظ القرآني ورقته في قوله "يا أبت" فلو قال "يا أبي" فهي تؤدي نفس المعنى ولكن يا أبت فيها استعطاف وأكثر رقة وعذوبة وخاصة عند تكرارها.

ولكن أباه لم يستمع له ولم يؤمن بل زجره وهدده بالرجم وطلب منه أن يبتعد عنه سالماً  
سويّاً قبل أن يصيبه منه عقوبة

"قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً". (46-  
مريم).

وكان رد إبراهيم على هذه الجفوة والتهديد بالرجم أن أبقى على صلة الرحم والبر بالآباء  
مهما فعلوا ومهما قالوا:

"قال سلام عليك، سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّاً". (47 - مريم).

وكان ذلك من إبراهيم مطابقاً لقوله تعالى: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً".  
وقد أعاد إبراهيم الاستغفار لوالده مرة ثانية.

"واغفر لأبي إنه كان من الضالين". (86- الشعراء).

ومرة ثالثة طلب له الغفران - وذلك بعد بناء البيت الحرام فقال:

"ربنا اغفر لي ولوالدي". (41- إبراهيم).

وقال قتادة. ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله،  
إن من آبائنا من كان يُحسن الجوار ويصل الأرحام ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم،  
فقال النبي صلى الله عليه وسلم، بلى، وإني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه.  
وعلى هذا فقد استغفر المسلمون لقرباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الاسلام وذلك  
اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك. إلى أن نزل قوله تعالى:

"مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ  
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا  
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ". (113 - 114 -  
التوبة).

فكفوا عن الاستغفار لهم.

وظل إبراهيم يدعو قومه للإيمان بالله. ويكرر عليهم الدعوة وهم متمسكون بأصنامهم. وراحوا يخوفونه بأن أصنامهم وآلهتهم قد تصب عليه غضبها وتعاقبه وتؤذيه بسبب تسفيهه وتحقيره لها. فكان رده عليهم أنه لا يخاف أصنامهم فهي لن تضره بشيء إلا أن يكون الله قد قدره عليه. والأولى أنهم هم الذين يجب أن يخافوا لأنهم قد أشركوا بالله واتبعوا ما لم يأمر به الله. ولم يكن لهذه الأصنام من قوة أو سلطان عليهم أجبرتهم على عبادتها. فهم الأجدر بالخوف وليس هو لو كان عندهم ذرة من عقل أو علم.

"وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ". (80-81 الأنعام).

وأعاد إبراهيم عليهم الدعوة لعبادة الله وذكرهم بأن ما يعبدونه ما هي إلا تماثيل يصنعونها وأكاذيب يخلقونها. ولعلمه أنهم قد يخافون أن تضرهم الأصنام وتضيق عليهم في أرزاقهم إن كفروا بها، كما كان الكهان يخوفونهم، أخبرهم أن هذه التماثيل لا تملك لهم رزقاً وأن الرزق عند الله وحده، وهو الوحيد الجدير بالشكر على نعمه ورزقه. وذكرهم مرة أخرى بالآخرة، حين يبعث الله الخلائق ويرجعون إليه فيحاسبهم على أفعالهم.

"وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (16-17 العنكبوت).

ولكنهم لم يسمعوا لنصحه. فرأى أنه لا يقنعهم إلا المثال العملي على أن هذه التماثيل لا تملك أن تنفعهم ولا تقدر أن تضرهم بل حتى لا تملك أن تدفع عن نفسها أذى يصيبها، وكان قد أضمر في نفسه شيئاً.

وكان عيد من أعيادهم الدينية قد اقترب. وغصت المدينة بالزائرين ليشهدوا هذا العيد ويقدموا القرابين للآلهة وقال له أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، ويقال إنه اضطر للخروج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه على الأرض وقال انه سقيم، فمروا عليه وتركوه، حتى لم يبق إلا نفر قليل من ضعفائهم. فقال تالله لأكيدين أصنامكم فسمعه بعضهم.

ويقال إنه لم يخرج معهم. فمروا عليه وقالوا يا إبراهيم ألا تخرج معنا فنظر إلى نجم في السماء وقال إن هذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي. وتظاهر بالمرض فتركوه. وعبر القرآن عن ذلك بقوله تعالى:

" فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ " (88- 90 الصافات).

وفي الحديث الذي رواه ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة حدثني هشام بن محمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات: قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله في سارة هي أختي.

وهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من عدة طرق. ويقول ابن كثير ولكن هذا ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم قائله حاشا لله وكلا. وإنما أطلق الكذب على هذا تجاوزاً. وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي وديني وكما جاء في الحديث الشريف: إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب. فهو (أي إبراهيم) لم يشأ أن يشهد ضلالهم. وركوعهم وسجودهم لأصنامهم فادعى السقم.

وكان من تقاليد احتفالاتهم أن يخرجوا من المعبد ويركب الملك والكاهن السفينة المقدسة. وتنساب السفينة على ماء النهر ومعها سفن الرؤساء وكبار القوم. وعامة الناس على البر يهتفون بالدعوات والابتهالات.



وانتهز إبراهيم فرصة خلو المدينة من الجميع، وخرج إبراهيم من داره حذراً يترقب حتى وصل إلى المعبد فدخله وكان خاوياً من الناس، ورأى التماثيل وفي وسطهم كبير الآلهة مردوخ وحوله تماثيل إنانا وشمس وعشتار وأوتو وإنليل وغيرهم. وقد وُضعت أمامهم أواني النبيذ والخمر وطعام كثير من القرايين التي يقدمها الناس. فرماهم إبراهيم بنظرة ساخرة.

"فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْتَفِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ". (91-92 الصافات).

وتناول فأساً وراح يضرب الأصنام ويحطمها حتى جعلها قطعاً صغيرة. وكان يضرب بكل قوته. وعبر عنها القرآن الكريم بالضرب باليمين لأن يمين المرء فيها قوة عن اليد اليسرى. وقال بعضهم إن معنى اليمين أن الضرب كان براً بقسمه وهو اليمين إذ قال: "تالله لأكيدن أصنامكم". المهم أنه كسر جميع الأصنام إلا تماثيل الإله مردوخ لأنه كان ينوي أن ينسب تكسير الأصنام للصنم الأكبر. فإن صدقوا ذلك كان معناه أن الآلهة الأخرى لم تستطع أن تدفع عن نفسها الأذى، وهذا عجز منها، وإن نفوا عن الصنم الأكبر أنه قادر على فعل ذلك، كان هذا دليلاً على عجزه.

وهكذا أتم إبراهيم تكسير الأصنام وبر بقسمه.

"وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ " (57-58 الأنبياء).

وعاد القوم إلى معبدهم ودخل الكهنة فهاهم ما رأوا وما حل بالهتهم وسألوا: من فعل هذا بالهتنا. وأدلى نفر الذين سمعوا إبراهيم وهو يهدد بالكيد لأصنامهم بما سمعوه للكهنة. فأحضروا إبراهيم وأرادوا أن يجعلوا المحاكمة علنية يشهدا كل الناس ظناً منهم أنهم سينتصرون لآلهتهم ويكون ذلك داعياً لمزيد من إيمان الناس بهم، وتأكيذاً أيضاً لسلطانهم.

ولكن في مجادلتهم ألزمهم الحجة وأسكتهم بالبرهان وجعلهم يعترفون بأن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تتطرق. وهنا استنكر منهم أن يعبدوا ما لا ينطق ولا يسمع ولا يستطيع دفع الأذى عن نفسه وبالتالي فلا يقدر أن ينفع الناس أو يضرهم.

"قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ

قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (59- 67 الأنبياء).

وهكذا استدرجهم للإعتراف بعجز آلهتهم. وأنها لا تنفع ولا تضر. وأبدى تبرمه بقله عقلهم لعبادتهم هذه الأصنام من دون الله.

وبدلاً من أن يؤمنوا له بعد أن وضع عجز آلهتهم وفساد العقيدة التي كانوا عليها. فإنهم تشبثوا بآلهتهم وعملوا على نصرتها. فألقى القبض على إبراهيم وكان البعض يرى قتله والبعض يرى إحراقه، فالقتل عقاب صارم وفوري، والجزاء الفوري له وقع أليم ودوي رادع. أما من اقترحوا الإحراق فقد رأوا فيه تعذيباً بطيئاً فهو أشد إيلاماً وأكثر رذعاً لمن تسول له نفسه المساس بآلهتهم.

"فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه" (24- العنكبوت).

ولكن استقر رأيهم في آخر الأمر على إحراقه.

"قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين". (68- الأنبياء).

### محنة الاحراق:

"قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم". (97- الصافات).

وبدأ إعداد المحرقة فحفروا حفرة عظيمة ثم بنوا حولها بنياناً مرتفعاً وملأوها بالحطب الكثير.

ومن المبالغات التي قيلت في جمع الحطب، ما قالوه من أن المرأة كانت تمرض فتقول لئن عافتني الآلهة لأجمعن حطباً لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر لئن تحقق ما تطلب لتحتطين حطباً وتجعله في النار التي يحرق فيها إبراهيم احتساباً في دينها.

وقال ابن اسحق، ظلوا يجمعون الحطب شهراً حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا النار في الحطب من كل ناحية. فاشتعلت النار حتى أن كان الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها. ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان. وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً. فضجت السماوات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق وقالوا أي ربنا، ليس في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم يحرق في النار فاذن لنا في نصرته. فقال الله تعالى لهم: إن استعان بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت لكم في ذلك، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به. وأنا وليه. فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه ملك المياه فقال إن أردت أخدمت النار فإن خزائن المياه والأمطار بيدي. وأتاه خازن الريح فقال إن شئت طيرت النار في الهواء فقال إبراهيم عليه السلام لا حاجة لي إليكم، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم أنت الواحد في السماء والأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري. قال الله عز وجل يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

وروى المعتمر عن أبي بني كعب عن أرقم أن إبراهيم عليه السلام هو الذي ناداها بأمر الله تعالى. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس: لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها ولم يبق حينئذ نار في الأرض إلا طُفئت. قال كعب الأحمار

وروى قتادة والزهري ولما انتفع أحد في الأرض يومئذ بنار ولم تحرق النار شيئاً إلا وثاق إبراهيم.

وقال ابن اسحق: ثم أشرف الملك من صرح عال ونظر إلى إبراهيم عليه السلام وما يشك أنه قد هلك فرآه جالساً في روضة. ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وحوله نار تحرق ما جمعوا من حطب. ونادى إبراهيم وقال له: يا إبراهيم إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك. فهل تستطيع أن تخرج منها؟ قال نعم. قال فقم فاخرج منها. فقام إبراهيم عليه السلام يمشي فيها حتى خرج منها. فلما خرج إليه قال له يا إبراهيم من الرجل الذي رأيت معك قاعداً إلى جنبك. قال ملك الظل أرسله إلي ربي ليؤنسني فيها. فقال يا ابراهيم. إني مقرب إلى إلهك قراباً لما رأيت من قدرته. إني ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال ابراهيم. لا يقبل الله منك شيئاً ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني، فقال يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي. ولكن سوف أذبحها له فذبحها وقربها قرباناً ومنع العذاب عن ابراهيم، ثم إنه قال لإبراهيم: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وقيل إن إبراهيم ظل في النار أياماً حتى خمدت لم يصبه منها شيء غير العرق على وجهه. ولما انطفأت النار فوجئوا به يخرج من الحفرة سالماً.

:فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (24- العنكبوت).

" وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ " . (70 الأنبياء).

" فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِيهِ " (98 - 99 الصافات).

واستجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل من حمايته من النار وكان لوط ابن أخيه هاران قد آمن له.

"فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " . (26 العنكبوت).

بعد هذه المحنة وخروجه سالماً من النار بفضل الله تعالى تأكد لإبراهيم من أنه لن يؤمن له غير النفر القليل الذي آمن فقرر أن يعتزلهم.

"وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا " (48) - مريم).

واتخذ إبراهيم زوجة هي سارة واتخذ أخوه ناحور زوجة اسمها ملكة وخرج إبراهيم مهاجراً من هذه القرية الظالم أهلها. خرج هو وزوجته سارة. وأخوه ناحور وزوجته ملكة، وأخذ معه والده تارح أو آزر، وأخذ أيضاً لوط ابن أخيه هاران. وكان هاران قد توفي في أور قبل أن يبرحوها. وخرج معه كذلك النفر القليل الذين آمنوا به ذلك أنهم لم يأمّنوا أن يغدر بهم بعض رجال الملك أو الكهنة. وإن كان الملك نفسه قد أعطاه الأمان.

ينكر البعض أن أبا إبراهيم قد هاجر معه اعتماداً على أن والد إبراهيم لم يكن من المؤمنين وظل على كفره حتى مات.

ولكن إذا تذكرنا وقع تكسير آلهة القوم فهذا في نظرهم كبيرة الكبائر وكان الجزاء عليها هو القتل أو الإحراق، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نجى إبراهيم من الحرق واقتنع الملك بأن رب إبراهيم يحميه ولن نقول إنه آمن سراً. بل نقول لعله خاف إن آذى إبراهيم أن يحيق به شر ما، لذلك تركه يبرح الأرض في سلام. فأغلب الظن أن إبراهيم لم يكن ليؤمن أن يترك أباه خلفه خوفاً من انتقام بعض المتعصبين الذين لا بد ساءهم أن ينجو إبراهيم من العقاب فلعلهم ينفسون عن غضبهم بقتل والده أو ايزائه، لذلك فقد أخذه معه، ولعله أيضاً لم ييأس من لحظة ينشرح فيها قلبه للإيمان فيؤمن. وكان إبراهيم عليه السلام لا يمل من تكرار دعوته للإيمان كما كان يدعو له بالهداية.

**من الملك الذي أمر بإحراق إبراهيم عليه السلام؟**

وردت محنة إحراق إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم ولا ندري السبب الذي جعل كتاب التوراة لا يذكرون شيئاً عنها إطلاقاً. فكل ما جاء بها عن فترة بقائه في أور هو: إن تارح ولد أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً. ومات هاران قبل تارح أبيه في

أرض ميلاده أور، واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما امرأتين. اسم امرأة أبرام ساري واسم امرأة ناحور ملكة، فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. ومات تارح في حاران وكانت أيام تارح 205 سنة.

لم تذكر كتب التفسير الإسلامية شيئاً عن الملك الذي كان معاصراً لهذا الحدث، وجاء في تفسير الألوسي اسم الشخص الذي أشار بحرق إبراهيم فقد أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: ثلوت هذه الآية "قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم" على عبد الله بن عمر فقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟ قلت: لا قال: رجل من فارس وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض. فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وقالوا اسمه هيون. وقيل هدير. وقيل هو شخص من الأكراد. وبذلك قال ابن كثير في تفسيره وإن قال إن اسمه هيزن. والوحيد الذي تعرض لاسم الملك هو الثعلبي فقال إن اسمه نمرود وأنه هو الذي كان يحكم المدينة في ذلك الوقت.

وللتذكرة بتاريخ العراق في هذه الفترة نعود القهقري قرنين من الزمان فنجد أن جنوب العراق كان به عصر الأسرات السومرية وظهرت دويلات المدن وكانت دويلة لجش أقواها فبسطت نفوذها على باقي الدويلات ثم جاء الأموريون وسيطروا على جنوب العراق في ما سمي بالعصر الأكدي في الفترة 2340 - 2230 ق. م. ثم جاء الآشوريون وكان أشهر ملوكهم هو سرجون الأول الذي بسط نفوذه على العراق كله تقريباً. ثم كانت غارات الجوتيين من الشمال فأضعفت دولة آشور وهو ما سمح لدويلات الجنوب بالاستقلال وسمى ذلك بعصر الإحياء السومري، واستقلت دويلات الجنوب السومرية مثل لجش وأوروك. ودويلة "أور" وهي ما تهمننا حيث كانت بها محنة إحراق سيدنا إبراهيم عليه السلام. وكان استقلال دولة أور ونهضتها بداية لأسرة أور الثالثة. وقد أسسها ملك اسمه "أورنمو" ثم تولى بعده الحكم ولده "شولجي" وقد حكم شولجي فترة طويلة بلغت 50 عاماً وتميزت الفترة الأولى من حكمه بقيامه ببناء كثير من المنشآت الدينية وبناء معابد للآلهة. وأعاد إلى المدن السومرية والأكدية المعبودات التي كانت رفعت منها، وتميز النصف الثاني من حكمه بكثرة الحملات الحربية فاقتطع

أجزاء كبيرة من دولة عيلام في الشرق وتزوج من إحدى بنات ملكها. واستولى على دويلات الجنوب كلها.

هذا الملك هو الذي كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام. ويمكننا أن نفهم سبب رفضه لدعوة إبراهيم. ولما كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام كان هو الذي أمر بإحراقه في النار.

تقول الكتب إن شولجي في أخريات أيامه استولى على ذخائر أحد المعابد في مدينة إريدو المجاورة، وهذا التصرف إن دل على شيء فإنما يدل على أنه لم يعد يخشى من انتقام هذه الآلهة. ويؤيد ما ذهبنا إليه من أنه هو الذي كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام. ورأى أن إبراهيم كسر الأصنام ولم ينله أي أذى، ومن هنا كانت جرأته فأخذ الذخائر من معبد مدينة إريدو.

### هجرة إبراهيم عليه السلام:

كانت هجرة إبراهيم عليه السلام من أور. بعد محنة إحراقه لأسباب دينية فهو نبي ورسول. ورأى أن أور لم تعد صالحة لتقبل دعوته. فرأى أن ينشر الدعوة في غيرها وطبعاً لم يكن ذلك إلا بوحى من الله سبحانه وتعالى.

" وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (من آية 26- العنكبوت).

كان من الطبيعي بعد هذه المحنة ونجاته من النار في أور أن يقصد مدينة أخرى لعل الناس هناك يتقبلون دعوته بصدور أكثر رحابة فكان الارتحال شمالاً إذ يلي أور جنوباً صحراء الجزيرة العربية وهي جرداء قاحلة، وقال إنني مهاجر من قومي إلى ربي أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها - إلى أرض أدعو فيها إلى الله ولا يمنعني أعدائي لأن الله هو مولاي وهو العزيز الحكيم.

ولعل إبراهيم عليه السلام كان حريصاً على المرور على أكبر مدن هذه المنطقة يدعو الناس إلى عبادة الله.

وسبق ان ذكرنا أن إبراهيم عليه السلام بُعث لما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة. ولعله أمضى خمس عشرة سنة على الأقل يدعو قومه إلى عبادة الله. فرسولنا صلى الله عليه وسلم قد أمضى ثلاث عشرة سنة في مكة قبل أن يقرر الهجرة إلى يثرب لذلك فإن خمسة عشر عاماً مدة معقولة يقضيها إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبتقديم الأدلة والبراهين العقلية قبل أن يلجأ إلى إجراء عنيف يوقظهم من غفوتهم وهو تكسير الأصنام وكان هذا الاجراء كأنه إعلان للحرب. فكانت محنة احراقه وخروجه سالماً من النار. وكان قد بلغ من العمر إذ ذاك 55 عاماً.

كانت الصحف تنزل على إبراهيم وهي من الصحف الأولى

"إن هذا في الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى" (18- 19 الأعلى).

وفي حديث أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصحف التي أنزلت على إبراهيم عليه السلام كانت عشراً، ولا بد كان في هذه الصحف بالإضافة إلى دعوة الله - كان فيها ما يُصلح أحوال الناس في الدنيا وتنظيم معاملاتهم فيما بينهم. والحث على الفضيلة ومكارم الأخلاق. والطريق إلى تكوين أسرة صالحة بحسن معاملة الوالدين والعطف على الزوجة ورعاية الأبناء. وما من شريعة جاءت إلا وفيها النهي عن السرقة وتحريم الربا والزنا والقتل وحددت عقوبة لكل جريمة كما أن الشرائع أيضاً توضح كيفية التصرف في الميراث والتصدق على الفقراء والمساكين.

كل مكارم الأخلاق هذه كان يدعو إليها إبراهيم عليه السلام أينما حل بالإضافة إلى الدعوة لنبذ عبادة الأصنام والتوجه إلى الله وحده بالعبادة.

لا ندري كم من القوم آمن به. ولكنهم على أي حال قد استفادوا مما جاء بتعاليمه في إصلاح أحوالهم الدنيوية.

مر أولاً على لجش وكانت دويلة لجش كما قلنا من أكبر دويلات جنوب العراق. ثم مر على أوروك ثم وصل إلى بابل.

من المرجح أن بابل كان يحكمها في ذلك الوقت الملك الشهير بقوانينه وهو "حمورابي"



## من الملك الذي حاج إبراهيم في ربه؟

" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ " (258- البقرة).

تروي كتب التفسير الاسلامية أن هذا الملك هو "النمرود بن كنعان بن أنوش" ويزعمون أنه كان واحداً من أربع ملوك ملكوا الأرض كلها. اثنان كافران: نمرود وبختنصر (نبوخذ نصر) واثنان مؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين. ويقولون إن وصف القرآن الكريم له "أن آتاه الله الملك" ولفظ الملك هكذا يعني ملك الدنيا المعروفة في ذلك الوقت. ويصفون النمرود بأنه أول جبار تجبر في الأرض وأول ملك في الأرض وأنه هو صاحب الصرح في بابل وأول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل إلى غير ذلك من صفات القسوة والظلم والجبروت.

يبقى السؤال، من الذي حاج إبراهيم في ربه؟

ولعل الاجابة عن هذا السؤال تكمن في قوله تعالى:

"أن آتاه الله الملك".

ووصف حمورابي نفسه بأنه "إله بين الملوك" وأنه أول الملوك وزعيمهم والخالد بينهم وادعى النبوة للمعبود سين إله القمر، وأنه سليل سامولائيل والوريث الجبار للإله سين، والبذرة الأزلية للملكة شمس بابل، وعظمه شعبه ووضعوه بين الآلهة.

كما أنه كان يتمتع بقدر كبير من العقلانية والمنطق بدليل إشرافه على وضع مواد قانونه الشهير، ولم يلجأ إلى العنف في مجابهة إبراهيم عليه السلام، بل لجأ إلى ما برع فيه وهو المنطق فكانت الحاجة.

أما كيف التقى الملك بإبراهيم فلعل الملك سمع بما حدث لإبراهيم في أور ومعجزة خروجه من النار سالماً، وسمع أنه يدعو إلى دين جديد فأراد أن يستعلم بنفسه عن هذا الدين الذي يرد إليه إبراهيم، فأرسل في طلب وجرت بينهما هذه الحاجة.

والخلاصة إن الملك الذي حاج إبراهيم هو حمورابي ملك بابل الذي مد ملكه ليشمل العراق كله وسوريا حتى وصل إلى البحر المتوسط وأن هذه المحاجة حدثت في بابل عاصمة مُلك حمورابي. ولعله سمع بمعجزة نجاة إبراهيم من النار في أور، فأراد أن يستوثق بنفسه عن هذا الإله الذي يروي عنه إبراهيم ويدعو إليه.

### المحاجة:

" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " . (258- البقرة)

هذا الملك الذي ادعى الألوهية، طلب من إبراهيم عليه السلام أن يبرهن على وجود الله، فقال إبراهيم ربي الذي يحيي ويمين، أي أن الله هو الذي خلق الخلق، فلم يدع مخلوق أنه خلق نفسه بنفسه بل لا بد من خالق خلقه - والذي خلقه هو الذي يميته بعد الحياة التي قدرها له ولذلك فإن الله هو الذي يحيي ويميت.

فقال الملك: أنا أحيي وأميت، قال قتادة ومحمد بن اسحق والسدى وغيرهم. وذلك أن أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل. وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ويظل حيا، فذلك إحياء وإماتة. ومع ما في هذا القول من مغالطة ومكابرة. قال إبراهيم إن الله هو خالق هذا الوجود وسخر الكواكب وهذه الشمس يأتي بها الله من المشرق فأت بها من المغرب. فعلم الملك عجزه وبهت أي أخرس ولم يتكلم وقامت عليه الحجة.

ويقول الدكتور محمد بيومي مهران إن الإمام النسفي قال إن هذا ليس بانتقال من حجة إلى حجة. بل إن القوم - وكانوا أهل تتجيم - كانوا يعلمون أن حركة الكواكب قسرية ومنتظمة. فما دام قد ادعى الإحياء والإماتة، فليستكمل إظهار قدرته بالإتيان بالشمس من المغرب. فبهت الذي كفر لأنه أدرك عجزه.

ولكن السؤال هل كان إبراهيم عليه السلام مرسلاً أساساً لهذا الملك حتى تجرى له معجزة كهذه. والجواب طبعاً بالنفي لأن المحاجة إنما جاءت حدثاً عارضاً حينما مر إبراهيم عليه السلام بمدينة بابل. ومن المؤكد أن الملك طلب من إبراهيم عليه السلام أن يقرأ عليه شيئاً من الصحف التي كانت تنزل عليه من ربه. ومن المؤكد أن كان بها شيء عن مصير الأمم السابقة التي كذبت أنبيائها. قوم نوح فأغرقوا وقوم هود أهلكوا بريح صرصر عاتية. ولعل أكثر ما أثر في نفسه كانت قصة قوم صالح، إذ تحدوا نبيهم بأن يخرج لهم من الصخرة ناقة، وهم كانوا ينحتون الجبال بيوتاً ويعلمون تمام العلم أن لا حياة البتة داخل الصخر. وظنوا أن طلباً كهذا سيُعجز صالحاً. فلما أجيب طلبهم كفر البعض بهذه المعجزة وزادوا بأن عقروا الناقة فكان هلاكهم.

واستوعب حمورابي هذه القصة جيداً. وأدرك من نجاة إبراهيم عليه السلام من النار عظم قدرة ربه. وعلم أنه لو طلب من إبراهيم أن يأتي ربه بالشمس من المغرب وأتى بها - لوجب عليه الإيمان وإلا نزل به عذاب عظيم. أدرك الملك هذا كله وعلم في نفسه أنه سيتمسك بما يدعيه من ألوهية أو بنوة للآلهة و أدرك أنه لن يؤمن لإبراهيم، فأثر ألا يطلب منه أن يأتي ربه بالشمس من المغرب.

وفي رأينا أن الملك قد أدرك من نجاة إبراهيم من النار عظم قدرة ربه. وعلم أنه لو طلب هذا الطلب من إبراهيم ولم يؤمن لنزله به عذاب عظيم. لذلك أثر ألا يطلب ذلك. وانتهت المحاجة. وعلم الملك أن ادعاءه الألوهية ادعاء كاذب. وأنه بشر كباقي الناس لذلك لم يتعرض لإبراهيم عليه السلام بأذى.

**في حاران:**

بعد بابل مر إبراهيم عليه السلام بأشتونا وتركها في اتجاه أشور، ولعل القوم بعد ما تركها صاغوا ما كان قد أشار به من أحكام يصلح بها دنياهم. صاغوها في "تشريعات أشتونا".

وظل إبراهيم سائراً في طريقه مهاجراً إلى ربه يدعو من يلاقيه إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك أشور إلى نينوى واتجه غرباً حتى وصل إلى موطن أجداده "حاران".

كان معه في مسيرته زوجته سارة ووالده ولوط ابن أخيه وزوجته وكان معه عدد من العبيد يخدمونهم ويرعون الماشية. فقد كان له غنم وماشية كثيرة.

كانت حاران هي عاصمة دويلة فدان أرام. إحدى الدويلات الأرامية على جزء الفرات العلوي الموجود بسورية وكان القوم يعبدون القمر باسم الاله "سين" وبنوا له معبداً كبيراً على ربوة عالية (زقورة) كما هي عادتهم.

وكان إبراهيم يدعو الناس إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام وآمن به عدد كبير من الناس وكان لا يزال يطمع في أن يؤمن أبوه وظل يلح على أبيه كي يؤمن.

لكن الله عالماً أن أبا إبراهيم لن يكون من المهتدين وبقي أبو إبراهيم على عبادة الأصنام ومات على الكفر، ودفن في حاران، لطالما كان يتمنى إبراهيم أن يؤمن أبوه قبل موته!

وكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لوالده بعد أن مات ويطلب له الرحمة. فهذا كل ما يمكنه أن يفعل فالأمر متروك كله لله.

"إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ " (من آية 4 - الممتحنة).

ولعل الله بعد ذلك أوحى لإبراهيم أن لا يستغفر له لأنه مات على الكفر، وأشار القرآن الكريم لذلك في قوله تعالى:

" وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ " (114 - التوبة).

وبقي إبراهيم عليه السلام في حاران يدعو إلى الله. وكان قد بلغ من العمر سبعين سنة أو أكثر قليلاً.

كان يشعر في قرارة نفسه أن هناك أحداثاً جساماً تنتظره ولكنه لا يدري عنها شيئاً لقد أسلم وجهه لله. بل لقد أسلم أمره كله لله.

" إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " (131 - البقرة).

لقد خرج مهاجراً إلى الله، فلينتظر ما تأمر به السماء.

وأوحى إليه أن أخرج من حاران فخرج منها وكان عمره يقترب من الخامسة والسبعين وكان ذلك حوالي عام 1903 ق. م .

واتجه إبراهيم عليه السلام غرباً وعبر نهر الفرات ونزل في منطقة بشمال الشام وضرب بها خيامه. وكثر غنمه. وكان البدو يجيئون من الصحراء وقد أصابهم القحط والجوع فيغمرهم بفضلهم. ويأمر بحلب البقر والغنم التي معه ليسقيهم وكان يفعل ذلك كل يوم وكان البدو يفدون ويسألون: هل حلب إبراهيم غنمه؟ ليسيبوا بعضاً من لبنها. فسمي المكان "حلب" ولكرمه سُمي إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان.

وتقول بعض الروايات أنه كانت له بقرة شهباء. وكان يقال حلب الشهباء ، ومن هنا جاء وصف مدينة حلب بالشهباء.

### في دمشق:

ثم تابع إبراهيم عليه السلام سيره. وفي كل مكان نزل كان يدعو الناس إلى عبادة الله وحدة. حتى وصل إلى دمشق وكان من بين من آمنوا به رجل اسمه أليعازر. ظل ملازماً لإبراهيم. ولمس إبراهيم عليه السلام صدق إيمانه وإخلاصه وأمانته فجعله مشرفاً على عبيده وغنمه وعرف باسم اليعازر الدمشقي.

وكان في دمشق معبد للإله "بعل" وأخته "عنت" وكان المعبد مزيجاً من معابد البابليين ومعابد المصريين وكانت به تماثيل "لشماس" و "عشتار" و "سين" وتماثيل لآلهة المصريين.

فقد كانت الشام في ذلك الوقت على علاقة طيبة ووطيدة بمصر.

كانت مصر في ذلك الوقت في أوائل حكم الأسرة الثانية عشرة التي أسسها أمنمحيث الأول وأعاد النظام إلى البلاد بعد الفوضى التي سادتها في أواخر حكم الأسرة الحادية عشرة. وأقام تحصينات على الحدود الشرقية والشمالية لتأمين قوافل التجارة وبذلك ازداد التبادل التجاري مع الشام وفلسطين. وكانت المدن المصرية تستقبل وفوداً منهم للتجارة. وكانت اللغة المصرية معروفة لأهل الشام. وكان التجار المصريون يترددون على نواحي لبنان والشام. وازدادت العلاقات بين مصر والشام في عهد خلفه سنوسرت الأول وتلاه من بعده امنمحيث الثاني ثم سنوسرت الثاني وتمتعت مصر طوال حكم هذين الملكين بالرخاء والرفاهية.

على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبة أرضها كل ذلك جذب إليها المهاجرون الآسيويين. وزاد عددهم في عهد سنوسرت الثاني - فكانوا يفدون على أقاليم مصر الشرقية والدلتا للتجارة في الكحل والروائح العطرية التي كان المصريون يستعملونها بكثرة.

كذلك كان التجار المصريون يترددون على نواحي لبنان والشام وفلسطين. وقد عثر في هذه النواحي على أواني وجعارين نقشت بأسماء أفراد مصريين. كما عثر على تماثيل لمعبودات مصرية في مدن الشام. وهكذا كان هناك نوع من العلاقات الحميمة بين البلدين.

لا شك أن إبراهيم عليه السلام سمع وقتئذ عن مصر وما يقال عن رقي حضارتها. وعرف أيضاً أنهم هناك يعبدون آلهة غير الله ويصنعون لها تماثيل ضخمة ومعابد كبيرة. ولعله أضمر في نفسه أن يزور هذه البلاد علّ الله يجعل هدايتهم على يديه. ولكنه ما كان ليفعل ذلك من نفسه إلا أن يتلقى وحياً من الله بذلك.

تُجمع الكتب على أن أتباع إبراهيم آنذاك كانوا كثيرين ويعدون بالآلاف كذلك كانت ثروته من الغنم والعبيد عظيمة ولكنه مع ذلك أثر في أثناء هجرته أن يتخذ طريق الجبال حتى لا يحدث اشتباك مع أهالي البلاد التي يمر بها.

أقام إبراهيم عليه السلام ردهاً من الزمان في خيامه في ضواحي دمشق يدعو الناس إلى عبادة الله واستجاب له عدد كبير من الناس. وكثر أتباعه ولكن لاحارارن ولا دمشق كانت له هدفاً، لذلك تركها وتابع سيره إلى أرض كنعان وهي الأرض التي توعدده الله. بالتوجه إليها.

اتجه إبراهيم عليه السلام جنوباً واتخذ طريق القوافل المار في شرق الأردن إلى راموت جلعاد ثم إلى وادي حبوب (أو نهر ييوق) ويسمى أيضاً وادي الزرقا. إلى مدينة سكوت ثم عبر نهر الأردن وسار غرباً حتى وصل إلى وادي فاريا. وهو وادي فسيح غير عميق. بين جبل إيبال وجبل جرزيم. وكان أول ما قابله هو بلوطة مورة - وهي من ضواحي شكيم. وفي بلوطة مورة بنى إبراهيم مذبحاً للرب ثم توجه إلى شكيم نفسها.

وتقع شكيم في منتصف المسافة تقريباً بين الطرف الشمالي للبحر الميت وبحيرة طبرية - وإلى الشرق قليلاً من منتصف المسافة من نهر الأردن إلى البحر المتوسط. وهي مدينة هامة على طريق القوافل من أرض كنعان إلى أرض دمشق فشمال سوريا والفرات . ومكانها حالياً تل البلاطة - إلى الشرق مباشرة لمدينة نابلس الحالية.

وهكذا بنى إبراهيم عليه السلام مذبحاً في شكيم ثم اتجه جنوباً حتى وصل إلى بيت إيل. ومعناها بيت الله والمدينة القديمة كانت تقع 11 كم شمال القدس الحالية (ولعلها الآن إحدى ضواحيها).

وتقع عاي إلى الشرق من بيت إيل على بعد 15 كيلو متراً. ونزل إبراهيم ونصب خيامه بين عاي في الشرق وبين إيل في الغرب.

ثم تابع إبراهيم عليه السلام سيره جنوباً حتى وصل إلى مدينة حبرون وهي مدينة الخليل الحالية وتقع على بعد 30 كم جنوب غرب القدس. كانت حبرون على طريق القوافل المارة من العراق والشام إلى مصر والحجاز. والتقى إبراهيم عليه السلام بالصائبين وصحح لهم عقيدتهم التي كانت انحرفت بعض الشيء عن الدين القويم والملة الحنيفة التي جاء بها إدريس عليه السلام.

وقد صحح إبراهيم عليه السلام عقيدتهم وردهم إلى الحنيفية الخالصة فنذبوا عبادة الكواكب أو أي رمز وعادوا إلى الطريق القويم، فاتبعوا تعاليم إبراهيم عليه السلام وإن ظلوا يسمون بالصابئة.

أقام إبراهيم عليه السلام في حبرون عدة سنوات وكثر عبيده وأتباعه. وكثر ماله وكثرت أغنامه. وبعد مدة قرر زيارة مصر.

### في مصر

كانت مصر في عام 2100 ق. م. تمر بتغيرات كبيرة عقب سقوط الدولة القديمة فقد كانت منقسمة إلى مملكتين:

**1- الجزء الشمالي:** يشمل الدلتا وجزءاً من الوجه القبلي حتى أبيدوس، ويحكم فيه ملوك الأسرة التاسعة والعاشرة. وعاصمتهم هيراكليوبوليس (إهناسية) بدلاً من منف.

**2- الجزء الجنوبي:** ويشمل باقي الوجه القبلي حتى جزيرة فيلة قرب الشلال الأول ويحكم فيه ملوك الأسرة الحادية عشرة وعاصمتهم طيبة.

وكانت فترة عدم استقرار اجتماعي وكما قالوا عنها في كتاباتهم: إن الأغنياء كانوا يعملون في الحرف والفقراء صاروا أسياداً، ومقابر الملوك نهبت، وحدثت مجاعات والخراب في كل مكان.

ثم تولى الحكم أمنمحيث الأول عام 2000 ق. م. تقريباً وبحكمه بدأت الأسرة الثانية عشرة وحاول توحيد البلاد والحد من أطماع أمراء الأقاليم وحدد لكل أمير منطقة. فاختمت المنازعات بينهم وبدأ عصر من الاستقرار ثم تمكن من هزيمة حكام هيراكليوبوليس وأعاد توحيد الشمال والجنوب وبدأ عصر الدولة الوسطى الذي شهدت فيه مصر كثيراً من الاستقرار. ورأى أن بلدة طيبة تقع في جنوب مصر وتبعد عن شمالها، فتركها وبنى عاصمة جديدة سماها "أنت تاوى" أي القابضة على الوجهين البحري والقبلي - 30 كيلو متر جنوب منف ومكانها حالياً قرية اللشت مركز العياط.



تولى بعده سنوسرت الأول عام (1970 ق. م . تقريباً) واستكمل ما بدأ في عهد والده من حماية مصر من الليبيين في الغرب. ووطد نفوذ مصر في الجنوب في بلاد كوش وراء الشلال الثاني. وجابت رسله فلسطين وسوريا بانتظام وشيد لنفسه هرمًا في أتت تاوى وبني معبدًا للإله "رع" في مدينة أون "عين شمس" لم يبق منه سوى مسلة بالقرب من المطرية ولا تزال شاخصة في مكانها.

جاء بعده أمنمحيث الثاني ثم سنوسرت الثاني ودام حكمهما 48 عاماً (1936 - 1888 ق. م) وتميز بالرخاء والرفاهية - الأمر الذي جذب المهاجرين الآسيويين فوفدوا إلى مصر في أعداد كبيرة.

اتخذ ملوك الأسرة الثانية عشرة "آمون" إلهاً خاصاً لهم. ثم أصبح إلهاً رئيسياً مركز عبادته مدينة عين شمس وتسمى باسم "آمون رع".

في هذه الفترة - كانت زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر.

### زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر:

خرج إبراهيم عليه السلام من حبرون ومر على آبار في الطريق هي المسماه بئر السبع. ثم اتبع طريق القوافل المتجه إلى مصر حتى وصل إلى "أتت تاوى" إذ كانت هي العاصمة في ذلك الوقت وبها الفرعون، ولعله كان سنوسرت الثاني، ولما قابله الملك أيقن أنه أمام رجل يحميه ربه لذلك أثر ألا يؤذيه بشيء وأعطاه هبات كثيرة وسمح له بالتجول أينما شاء، فوصل إلى وسط الوجه القبلي تقريباً عند مدينة بني حسن.

### زمن الزيارة:

اختلف المؤرخون في الزمن الذي حدثت فيه هذه الزيارة فيرى فريق منهم أن الزيارة تمت في الوقت الذي كان ملوك الهكسوس يحكمون مصر. وأن ملكهم في ذلك الوقت كان اسمه سنان بن الأشل بن عبي، وهذا القول مستبعد.

وعلى ذلك فزمن الزيارة كان في عصر الأسرة الثانية عشرة وخاصة وقت ازدهارها في عهد أمنمحيث الثاني وسنوسرت الثاني وسنوسرت الثالث، ومن الصعب تحديد الوقت بالدقة ولكن المرجح هو في عهد سنوسرت الثاني.

وقد وجد نقش على جدران إحدى مقابر بني حسن مركز قرقاص تمثل وفداً جاء في السنة السادسة من حكم سنوسرت الثاني وكان الوفد يتألف من سبعة وثلاثين شخصاً من البدو بين رجال ونساء وأطفال ارتدوا ملابس صوفية مزركشة. وترك الرجال لحاهم وجلبوا معهم الحمير التي حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بني حسن.

والآن يمكننا أن نضع التصور الآتي: إن فرعون مصر لما رأى من قدرة رب إبراهيم ورعايته لسارة زوجته فإنه أيقن أنه رجل له كرامات. فكان أن أعطى سارة هدية هي هاجر المصرية. وكذلك أعطى إبراهيم عطايا كثيرة من الغنم والهدايا. ويبدو أن إبراهيم عليه السلام قابل كهنة "أون" و "منف" و "هيراكليوبوليس" وناقشهم ودعاهم إلى الإيمان بالله وحده أو لعله أطلعهم على البديهة من أن الإله لا بد أن يكون واحداً ولا بد لجلاله وعظمته أن يكون غيباً لا يرى. وبالطبع كانت هذه المبادئ تتعارض مع ديانة البلاد فاستحال أن تسجل الزيارة على جدران أحد المعابد، أما سبب تسجيل الزيارة على جدران مقبرة حاكم الإقليم فإنه يمكن افتراض أن حاكم المقبرة أراد أن يُسجل حسن معاملته لهذا الرجل المبارك - الذي يحميه إلهه من كل سوء - حتى يكون له شفعاً في الحياة الآخرة بحيث يوضع ذلك في ميزان حسناته وسجل المصريون ما يقوله الميت يوم الحساب لتبرئه ساحته أمام قضاة الآخرة: يا رب الحقيقتين هأنذا أجيء إليك أجلب الحقيقة، وأطرد الإثم أني لم أقترف إثماً ضد البشر، ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة. ولعله أراد أن يضيف. ليس قولاً فقط بل تسجيلاً بالصورة وقد أكرمت هذا الرجل المبارك من ربه. ولم أسبب له أي أذى، وإذا تركنا العنان للخيال قليلاً يمكننا القول بأن الرجل قد آمن سراً بإبراهيم عليه السلام وأراد بتسجيل هذه الزيارة في مقبرته أن يكون معه في الآخرة ليشفع له.

## سبب زيارة إبراهيم لمصر:

كما اختلف المؤرخون في وقت الزيارة - كذلك اختلفوا في سببها بعضهم قال (الدكتور ماير ف. ب. ماير) إن قحطاً ومجاعة أصابت كنعان فهاجر إبراهيم إلى مصر حيث الخصب والنماء. وبذلك أيضاً تقول التوراة (اصحاح 12 تكوين): "وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر" ولكن القحط كان حرياً أن يدفع بجموع كبيرة تصل إلى موجات أو هجرات استيطانية ولم يكن الحال كذلك فضلاً عن أن باقي أتباع إبراهيم عليه السلام من مواشي وعبيد وكانوا عدة آلاف بقوا في حبرون - أي أن مقومات المعيشة كانت لا تزال متوافرة في أرض كنعان وهذا ينفي أن يكون سبب الزيارة هو قحط أو جوع في الأرض.

الرأي الثاني قد يكون أن وجود حبرون على طريق القوافل بين الشام ومصر وتوثق العلاقات بين مصر والشام جعل إبراهيم عليه السلام يسمع عن مصر وعظمتها، وضخامة مبانيها، ورقي حضارتها. ولمس ضلال عقيدتهم الدينية وعبادتهم للأصنام. ولعله أضمر في نفسه زيارة مصر علّه يستطيع هداية قومها. ويقول يوسف بن متى المؤرخ اليهودي: اعتزم ابراهيم زيارة مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها في أمر الله. وفي نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله - أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم إليها، والافتراض الأول مرفوض رفضاً قاطعاً، فما من دين هو خير من دين الله.

" وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا " (125- النساء).

والرأي الصحيح أن زيارة إبراهيم عليه السلام كانت بتدبير من الله سبحانه وتعالى لإعادة غرز فكر التوحيد في أرض مصر، وكان إدريس عليه السلام قد أتى به ولكنه اندثر بمضي السنين، وأيضاً ليعود بهاجر المصرية ويتزوجها فيما بعد لتلد له اسماعيل ابنه البكر وأبو العرب.

## قول إبراهيم عليه السلام عن سارة إنها أخته !

في زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر نقطة شائكة، ثار حولها جدل كبير وكثير، ووصلت الخلافات في الرأي إلى حد عنيف، هذه النقطة هي ما نسب إليه من قوله عن سارة زوجته إنها أخته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: : لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات: تثنتين في ذات الله: قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس. فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك إمراة يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام. فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري، فلما دخل أرضه. رآها بعض أهل الجبار فاتاه فقال له: لقد قدم أرضك إمراة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك. فأرسل إليها فأتى بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة. فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها. فقبضت يده قبضة شديدة. فقال لها ادعى الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت، فعاد فقبضت أشد وتكرر ذلك منه مرتين. فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك. ففعلت فأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان. فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر. قال: فأقبلت تمشي لما رآها إبراهيم عليه السلام قال لها مهيم. فقالت خيراً كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

## بعد زيارة مصر:

وتنتهي زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر، بعد أن قضى بها عدة أعوام، عرف الفرعون فيها - مكانته في قومه ومكانته عند ربه - فسمح له في التجول في مصر أينما شاء، فقابل الكهنة في كل من منف وهيراكليوبوليس وشرح لهم عقيدة التوحيد فاستمعوا إليها. ولعلمهم أدركوا صدقها وإن لم يؤمنوا بدين إبراهيم الحنيف وزار الصعيد حتى وصل إلى بني حسن وقد سبق أن رجحنا أن الرسم الموجود في مقبرة بني حسن يمثل وفد إبراهيم عليه السلام.

وتبدأ رحلة العودة فيعود بزوجته سارة ومعها هاجر التي أهديت لها، ومعه لوط وزوجته وأبنائه، وأليعازر الدمشقي والرجال والعبيد الذين أتوا معه وزاد عليها هداية فرعون من أغنام وعبيد، وتعبّر القافلة صحراء مصر الشرقية ثم سيناء في نفس الطريق الذي سلكته عند القدوم إلى مصر.

وكان إبراهيم دائم التنقل بين حبرون ومكان المذبح قرب بين إيل ولعل هذا لعدم كفاية المراعي لمواشيه فكان دائم التنقل من مكان إلى مكان وكان يتجنب الاحتكاك بالكنعانيين الذين لم يكونوا يحملون له مشاعر ودية.

بعد زيارة مصر تقع أحداث كثيرة في حياة إبراهيم عليه السلام:

زواجه بهاجر - ولادة اسماعيل - مسيرته للحجاز - الذبيح - بناء البيت الحرام - مسيرة لوط إلى سدوم - مجيء الملائكة لإبراهيم بالبشرى وبهلاك قوم لوط - ولادة إسحق - زواج إسماعيل - تشريع الختان - زواج إسحق وغير ذلك من الأحداث.

وكل كتب قصص الأنبياء ذكرت هذه الأحداث مفصلة كل حدث قائم بذاته واختلفت الكتب في ترتيب ذكرها. إذ ما دامت أحداثاً منفصلة فلا يهم مجيء ذكر هذا قبل ذلك أو بعده. أما كتاب الثعلبي المسمى بعرائس المجالس فقد اتخذ طريقة الأبواب المستقلة فذكر مثلاً: باب في مولد اسماعيل واسحق، وباب عن قصة زمزم، ثم باباً عن بناء الكعبة، ثم باباً عن الذبيح، ثم باباً عن الذي حاج إبراهيم في ربه، ثم باباً عن وفاة سارة وهاجر وهكذا.

ولما كان الخط الذي يسير عليه هذا الكتاب هو التوثيق التاريخي للأحداث فكان لا بد من دراسة التسلسل التاريخي للأحداث وذكرها مرتبة حسب وقوعها ولم يكن ذلك بالأمر الهين في قصة إبراهيم عليه السلام نظراً لتشعب الأحداث ووقوع بعضها في وقت واحد في عدد من الأماكن ولذلك سيجد القارئ أننا ننتقل من مكة إلى حبرون عدة مرات فنذكر حدثاً عن اسماعيل في مكة ثم نتبعه بحديث عن إسحق في حبرون، ثم نعود

إلى مكة ثانية وهكذا ليكتمل التصور الحقيقي لما حدث بدلاً من ذكرها كأحداث منفصلة لا رابط بينها.

### زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر:

مرت السنون الطوال منذ خروج إبراهيم عليه السلام من أور إلى حاران إلى حلب ودمشق ثم إلى أرض كنعان - ولم يرزق إبراهيم عليه السلام بولد وكانت سارة زوجته قد بلغت السبعين ولم تلد. كان يدعو ربه:

"رب هب لي من الصالحين" . (100 الصافات).

وأوحى إليه الله أنه سيكون له ابن أن هذا الإبن سيكون حليماً

"فبشرناه بغلام حليم" (101 - الصافات).

ولكن كيف يكون له ولد. وهذه امرأته قد جاوزت السبعين عاماً ولم تلد له الولد الذي يرجوه.

رأت سارة مدى تشوق زوجها للولد، فأهدت إليه جاريتها هاجر ليتخذها زوجة لتنجب له الولد الذي يتمناه وكان هذا التصرف شائعاً في ذلك الوقت. وكانت السيدة تعتبر الولد كأنه ابنها هي لأنه ابن جاريتها التي هي ملك لها، أو التي كانت ملكاً لها، لأنها منذ أن تهبها لزوجها تصبح حرة. ولكنها تستطيع في أي وقت أن تستردها لتعود جارية لها كما كانت. وكان ينظر ذلك قانون حمورابي - الشهير الذي كانت أغلب دول المنطقة تطبقه في معاملاتها المدنية وتقضي المواد 145 - 147 المنظمة لهذا التصرف بالآتي: "للزوجة أن تسترد جاريتها التي وهبتها لزوجها لينجب منها إذا رأت أنها تنافسها في حب زوجها وأنها تعمل على أخذ المكانة الأولى في الدار. ويمكنها أن تبيعها إذا كانت غير ذي ولد. فإن كانت قد أنجبت ظلت في الدار كجارية تخدم الجميع، حتى ولو كانت أثيرة عند زوجها".

وهكذا وهبت سارة جاريتها هاجر لإبراهيم عليه السلام ليتخذها زوجة ولينجب منها الولد الذي يتمناه وكانت سارة - في ظل قانون حمورابي تستطيع أن تسترد هاجر في أي

وقت بعد الولادة. وكانت مواد قانون حمورابي في هذا الشأن بها ظلم واضح - إذ ان من ذاقت طعم الحرية يكون ألمها أشد إذا أعيدت إلى الرق ثانية - كما أنها إذا أصبحت أثيرة لدى الرجل واستردتها زوجته وباعتها فإن ذلك يكون ظلماً للرجل نفسه إذ يباع بينه وبين من أصبحت أثيرة عنده. لا شيء إلا لغيرة الزوجة منها، وإن كانت قد أنجبت. واستردتها سيدتها السابقة بقيت في المنزل تخدم الجميع كجارية. إن المرأة المحبة لزوجها تخدمه بكل جوارحها وتبذل كل ما في وسعها لراحته. وفرق بين هذا وخدمة مفروضة على جارية لسيدها. كذلك تتفانى المرأة في خدمة ابنها بعاطفة الأمومة وحنانها، وشتان بين خدمة يغلفها حنان الأمومة وخدمة يحكمها قانون العبودية. وكم هو قاس على مشاعر الابن وهو يرى أمه تخدم الجميع كجارية !! لذلك لا نشك في أنه قد نزل تشريع من السماء على إبراهيم عليه السلام يرفع هذه المظالم جميعاً. ويحد من سطوة السيدة على جارتها السابقة ويحثها على حسن المعاملة ويمنع استرقاقها مرة ثانية.

### رحلة الحجاز:

كان إبراهيم عليه السلام - خلال رحلته الطويلة منذ خروجه من أور إلى بابل ثم حاران فدمشق ثم زيارته لمصر والعودة منها - كان يدعو إلى عبادة الله وحده. وكان يقيم مذبحاً صغيراً للرب ليتعبد فيه من آمنوا به. وكانت هذه المذابح دائماً في مكان بعيد فوق قمم الجبال فما كان الكهنة في هذه البلاد ليسمحوا بغير ذلك وكان يشاهد ضخامة معابد الأقوام فهو يتذكر معبد مردوك في أور. ناهيك عن المعبد الكبير في بابل وبوابة عشتار الضخمة ثم معابد بعل في دمشق ، ومعابد مصر ومسلاتها في أون ومنف والأهرام ومعابدها وما بنى في فلسطين من معابد لتحاكي معابد مصر، وكانت توضع بها تماثيل لآلهة المصريين بجانب الآلهة المحلية تعبيراً عن امتداد نفوذ مصر إلى هذه المناطق ورأى كيف يفتن الناس بضخامة هذه المعابد وتؤثر في نفوسهم.

وهفت نفسه لإقامة بيت كبير لله وأدرك استحالة أن يقيم مثل هذا البيت في أي من البلاد التي مر بها. ولعل هذا خاطر ظل يؤرقه فهو يريد بيتاً كبيراً لله - يطوف به الناس وليس به تماثيل ولا أصنام، بل توحيد خالص لله.

ولعل أحد أسباب اصطفاء الرسل أن يتفق هوى نفوسهم مع ما يدبره الله من أمر في قابل الأيام.

وهذا ما كان من أمر نبينا عليه الصلاة والسلام

" قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ " (144- البقرة).

وكان هذا أيضاً أمر إبراهيم عليه السلام فقد كان دائم التفكير في بناء بيت لله وكانت الأحداث التالية هي تدبير الله تعالى لبناء بيته الحرام في مكة المكرمة، فكانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز فليست المسألة كما صورتها التوراة مجرد إبعاد هاجر وابنها عن سارة إذ لو كان الأمر كذلك لكان قد أرسلها إلى أرض آبائه وأجداده في حاران في شمال العراق. أو كما اقترح البعض - كان يرسلها إلى أرض آبائها في مصر. ولكن ما كان هذان الحلان ليرضيا نبي الله. ففي مصر كانت عبادة الأصنام قائمة وراسخة، وما كان ليرضى أن تعود هاجر إلى هذا الضلال بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان بالله. ولو كان معها إسماعيل فما كان ليرضى إبراهيم عليه السلام أن يشب ابنه وسط هذه الضلالات أما في شمال العراق في حاران فقد كانت الفئة المؤمنة قليلة العدد وما كان ليأمن على ولده. ولا على هاجر من فتنة تودي بإيمانها.

فالأمر كله تدبير من الله وهو اللطيف في تدبيره. يمهّد له بسنن طبيعته حتى ليبدو للناظر أن الأحداث هي التي أدت إلى هذا، والحقيقة أن الله هو المدبر. الفعال لما يريد.

وهكذا كانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز بأمر من الله سبحانه وتعالى. ويأخذ معه هاجر وابنه إسماعيل ثم لتتم مشيئة الله ويكون الأمر ببناء البيت الحرام في مكة



المكرمة وهو ما كان إبراهيم عليه السلام يتمناه. ويكون لإسماعيل شرق المشاركة في بنائه.

### ولادة اسماعيل:

أتمت هاجر حملها ووضعت ولداً وسمته وسماه إبراهيم أيضاً - اسماعيل.

كذلك لما دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلاً:

رب هب لي من الصالحين" . (100 الصافات).

فسمع الله دعاءه والله سميع الدعاء

"فبشرناه بغلام حليم" (101 - الصافات).

وكن نتيجة لأن الله سمع دعاءه كانت البشرى بالغلام الحليم الذي هو اسماعيل.

كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل، ومر عام تحملت فيه هاجر من مضايقات سارة الكثيرة. ولمس إبراهيم عليه السلام مدى صبرها وتحملها وتكتمها الأمر حتى لا تنقص من فرحته بالولد. وكان إبراهيم عليه السلام دائم التفكير في كيفية التصرف في هذا الأمر ووصل إلى نتيجة وهي استحالة المعاشة بينهما، ولعله فكر في إسكان هاجر ووليدها في بلدة أخرى بعيداً عن سارة. ولكن أي بلدة؟ وبلغت به الحيرة مبلغاً عظيماً - وفوض الأمر إلى الله. وانتظر ما تأمر به السماء. وما هي إلا أيام قليلة وجاءه الإذن بأن يأخذ هاجر ووليدها إسماعيل إلى مكة - في الحجاز.

بدأ إبراهيم عليه السلام يعد العدة والزاد لهذا السفر من مطعم ومشرب وراحلتين أو أكثر. وصادف هذا القرار هوى في نفس سارة، لأن هاجر وابنها سيكونان في مكان بعيد بل بعيد جداً.

وسارت القافلة الصغيرة من حبرون - وانحدرت إلى جنوب شرف حتى وصلت إلى طريق القوافل في شرق الأردن وسارت فيه جنوباً حتى ايله على الطرف الشمالي لخليج العقبة ثم اتخذ طريق القوافل الموصل إلى اليمن - وبموازاة الساحل الشرقي للبحر

الأحمر. وعلى مبعدة 1000 كيلو متر من إيالة تقع منطقة جرداء تسمى "برية فاران". ولا شك أن الله هياً لهذه القافلة الصغيرة غمامة تحميهم من حر الشمس - كما كان الغمام يظل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم . ومن المرجح أن الغمامة كانت أيضاً تقودهم إلى المكان الذي أراده الله. أو أن المكان المقصود تبدى له في رؤيا، فرآه مكاناً منخفضاً بين جبلين أو بكة بين مرتفعات تحوطها، في الأرض المسماة بـبرية فاران. في وادي غير ذي زرع يطل عليه جبل قبيس. حيث لا ماء ولا شجر، هنا توقفت الغمامة، فعلم إبراهيم عليه السلام أن هذا هو المكان المقصود أو لعله رأى المكان مطابقاً للصورة التي تبدت له في الرؤيا.

أنزل خليل الله هاجر وإسماعيل من على الراحلة، وراح يصنع لهما عريشاً فوق روبة قريبة ثم وضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاة فيها ماء. وذهب منطلقاً فتبعته هاجر وقالت: يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي. فلم يرد. فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. فاطمأن قلب هاجر وقالت: فإذا لا يضيعنا، وعادت إلى العريش.

وانطلق إبراهيم عليه السلام عائداً إلى حبرون وتوقف هنيهة على الجبل المطل على الوادي، وألقى نظرة أخيرة على هاجر وفلذة كبده إسماعيل وتوجه إلى الله في الدعاء:

" رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (37- إبراهيم).

جلست هاجر في العريش تنقي حر الشمس ولترضع وليدها كانت الجبال تطل عليها من كل مكان. جبل قبيس - والصفاء. والمروة . ونفذ التمر والماء، وعطشت هي وابنها، وجعلت تتلفت لعل أحد قادم ومعه ماء. ولكن لا أحد يأتي أو يمر في هذا الوادي القفر. ارتقت جبل الصفاء ونظرت على مدى بصرها علّها ترى ماء. فلم تر شيئاً ونزلت من عليه مهولة نحو جبل المروة واعتلته ومدت بصرها فما رأت ماء وهزلت مرة أخرى إلى الصفاء وكررت هذا السعي سبع مرات ولما لم تجد الماء وأيقنت بالهلاك اتجهت إلى الله بقلبها وعاد إليها إيمانها بما قالته لإبراهيم عندما تركها: فإذا لا

يضيعنا. وعادت إلى وليدها وبينما هي تقترب منه . رأت الماء يتفجر من موضع كعبه على الأرض ثم تفجر الماء غزيراً. فارتوت وسقت وليدها. وزاد تفجر الماء فقالت لها زمي زمي يا مباركة فسميت منذ ذلك الحين بئر زمزم.

وإذا بملك عند زمزم يقول لها: لا تخافي الضيعة. فإن هذا بيت الله الحرام. بينيه هذا الغلام وأبوه. وإن الله لا يضيع أهله.

وقيل أن الملك هو الذي ضرب الأرض بجناحه فتفجر الماء فجعلت تحوضه بيديها وتغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. وقال ابن عباس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل ! لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً.

المهم أنها شربت وارتوت - وارتوى وليدها.

وجاءت جماعة من جرهم في طريق أسفل مكة. ورأوا طيراً يحوم في الجو وعجبوا فالطائر لا يحوم إلا على ماء. وعهدهم بهذا الوادي ولا ماء فيه. فخرجوا على الوادي ووجدوا هاجر وابنها وبئر الماء. فاستأذنوا منها للإقامة معها بجوار البئر فأذنت لهم. وجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها.

كذلك كان غلامان من العماليق يرعيان إبلًا للقبيلة هناك. وعطشا ورأوا الطير يحوم حول الوادي فنتبعاه حتى رأوا عين الماء وهاجر ووليدها وسألوها عن حفر البئر، فقالت سقيا لله. فاستأذنوا منها في الإقامة بجوار البئر. فأذنت لهم. فأخبروا القبيلة، وجاء العماليق أيضاً برجالهم ونسائهم وأطفالهم وغنمهم وإبلهم.

وإذا بالوادي الذي كان غير ذي زرع وليس به حياة ولا أحد. إذا به يعمر وينبض بالحياة وفتح الله عليه بركات السماء والأرض.

وهكذا تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام التي جاءت في الآية 37 من سورة إبراهيم:

"فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم".

فقد مالت قلوب قبيلة جرهم والعماليق إلى هاجر ووليدها وجعلوا من أنفسهم أهلاً وحماً لها.

"وارزقهم من الثمرات".

فبفضل الماء الذي تفجر من زمزم اخضرت الأرض ونبت النخيل والأشجار وارتوت الإبل والأغنام وتكاثرت وكثرت الثمرات.

"لعلهم يشكرون".

فشكروا الله على هذه النعم.

جرهم هو أخو فالج بن شالح بن عابر بن أرفكشاد. الجد الثالث لإبراهيم عليه السلام. والعماليق من نسل لود بن سام. فهم من نسل نوح عليه السلام. ولاختلاطهم أثناء تجوالهم في الجزيرة العربية شابت عقيدتهم بعض مظاهر الوثنية ولكنها لم تكن وثنية صارخة متأصلة كما هي وثنية بابل أو دمشق، كانوا يؤمنون بالله ويقسمون به ولكن كانوا ينسبون إليه من تماثيلهم وأصنامهم بنين وبنات، ويتخذونهم زلفى وقرى إلى الله.

ولعلمهم إذا نزلوا بجوار الماء الذي تفجر ببركة الوليد وأمه، وعلموا أن هاجر هي زوجة لنبي من أنبياء الله، وأنها على ديانة الحنيفية التي جاء بها إبراهيم. لعلمهم تشوقوا لمعرفة المزيد عن هذا النبي وهذه الديانة. مما جعلهم تربة خصبة. عند قدوم إبراهيم عليه السلام وبناء البيت الحرام لأن يتحولوا جميعاً إلى الدين الحنيف.

## لوط عليه السلام

لا يمكن ذكر قصة لوط منفصلة عن قصة إبراهيم عليهما السلام لأن أحداث القصتين متداخلة مع بعضها وقد سبق ذكر بعض منها. ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم - كفه إبراهيم وتبناه. ولما بعث إبراهيم عليه السلام كان لوط أول المؤمنين. "قامن له لوط". (26- العنكبوت).

ولما خرج إبراهيم عليه السلام من أور بعد محنة إحراقه كان معه لوط. "ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين". (71- الأنبياء). ورافق لوط إبراهيم - عليهما السلام - في رحلته من أور إلى حاران. ثم إلى حبرون - في أرض كنعان. أي فلسطين. وهي أرض بارك الله فيها. بعث فيها عدد كبير من الأنبياء. وإليها أسرى برسولنا صلى الله عليه وسلم ومنها عرج به إلى السماء وفيها المسجد الأقصى ثالث المساجد التي يشد إليها الرحال. ثم إن لوطاً رافق إبراهيم في رحلته إلى مصر وعاد منها معه. وكان له عبيد وأغنام منفصلة عن ثروة إبراهيم.

ثم أن الله اختاره رسولاً إلى أهل سدوم. "وإن لوطاً لمن المرسلين". (133- الصافات). ولما أخبر إبراهيم بذلك حثه على الامتثال لما أمر الله به. فسار لوط بأهله وجميع ماله من غنم وإبل وبقر وعبيد إلى سدوم، عند الطرف الجنوبي للبحر الميت. أقام لوط في مدينة سدوم يدعو أهلها إلى عبادة الله وأن ينتهوا عما كانوا يقترفونه من فحش في مجالسهم واعتدائهم على الغرباء.

وكان العراق يحكمه في ذلك الوقت حمورابي ورجحنا أنه هو الذي حاج إبراهيم في ربه. ولعله هو الذي تلقبه التوراة أمراقل لأن حمورابي تكتب أحياناً أمورابي وأمورافي أو إمرافيل. وكان حمورابي قد مد ملكه حتى سوريا ووصل نفوذه إلى ساحل البحر

المتوسط غرباً وفرض على ملوك الدويلات وأمراء المدن دفع الجزية له. ومن هذه المدن التي كانت تدفع الجزية خمس مدن تسمى مدن السهل الخمسة إذ أنها تقع في السهل الذي يشكل نصف دائرة حول الطرف الجنوبي للبحر الميت إذ في غرب البحر الميت توجد جبال الخليل وفي شرق السهل يوجد جبل الضباب. وهذه المدن الخمس هي:

- 1- سدوم Sodom وكان ملكها يسمى بارع.
- 2- عمورة Gomorrah وملكها اسمه برشاع.
- 3- أدمة Adamah وملكها يسمى شان.
- 4- صبوئيم Zeboiim وملكها شميئير.
- 5- صوغر أو بالع Bela.

واستمر الحال كذلك عدة سنوات. يدفعون الجزية كل عام لمدى اثني عشر عاماً ثم تحالف هؤلاء الخمسة على العصيان وعدم دفع الجزية.

فقرر حمورابي محاربتهم لإخضاعهم وأيده في ذلك ثلاث دول مجاورة هم عيلام وجوبيم والآसार. ونظموا جيشاً تحت قيادة حمورابي هاجم به البلاد المتمردة فكانوا أربعة وهم:

- 1- أمرافيل (حمورابي) ملك شنعار (بابل).
- 2- كدر لعومر ملك عيلام.
- 3- تدعال ملك جوبيم.
- 4- أريوك ملك الآसार.

ويمكننا أن نصف تطورات الأحداث وسير المعركة في المراحل التالية:

- 1- إنسابت جيوش الملوك الأربعة والمتحالفة بقيادة حمورابي عبر طريق شرق الأردن في اتجاه الجنوب وهزموا قبائل الرفائيين والنوزيت في أرض جلعاد ثم هزموا الإيميين في مؤاب والحييين في جبل سعيير.

2- لم يشأ حمورابي أن يهاجم جيوش المدن الخمسة من الشرق. إذ كانوا يتوقعون مهاجمتهم من هذه الناحية وأقاموا تحصيناتهم على هذا الأساس. فقام بحركة الإنفاف واسعة ليهاجمهم من الجنوب الغربي فانحرف غرباً إلى النقب، إلى قادش برنيع وهزم أبيمالك. ثم ضرب الأموريين الساكنين في حصون تamar.

3- وقعت المعركة الرئيسية في وادي سدوم وانهزمت جيوش المدن الخمسة المتمردة وهرب ملك سدوم وعمورة وباقي الملوك إلى الجبال، وأخذت الجيوش المتحالفة جميع أهل سدوم أسرى لأنها هي التي حرّضت المدن الخمسة على التمرد وتزعمتهم. وكان لوط عليه السلام من ضمن الأسرى لأنه كان يسكن في سدوم.

4- مضوا بأسراهم عائدين متخذين طريقاً بحذاء الشاطئ الشرقي للبحر الميت ونهر الأردن. ثم في اتجاه دمشق.

5- أتى بعض الفارين من سدوم وأخبروا إبراهيم عليه السلام بما حدث من أسر لوط.

6- أرسل إبراهيم عليه السلام إلى حمورابي يطلب منه فك أسر لوط ومن معه والأرجح أيضاً أن حمورابي وهو على سابق معرفة بإبراهيم - منذ حاجته له في بابل - وبقينه بأنه رجل مبارك من الرب بدليل نجاته من النار في أور - لم يشأ أن يحاربه أو تهيب محاربته. فأجاب مطلب إبراهيم وهو الإفراج عن لوط وخاصة بعد أن علم أنه أيضاً نبي، ورد عليه جميع أملاكه. وإكراماً لإبراهيم ولوط أطلق سراح كل أهل سدوم ورد أملاكهم.

7- وفي طريق عودته مر على بلدة شاليم (مكان أورشليم) وكان ملكها هو الكاهن ملكي صادق. الذي بارك إبراهيم، وقال: مبارك أبرام من الله العلي ملك السموات والأرض. ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك. فأعطاه إبراهيم عشراً من كل شيء، ويعتقد بعض أهل الكتاب أن ملكي صادق هذا ما هو إلا ملك الرب.

## قوم لوط:

كان لوط عليه السلام مرسلًا إلى أهل مدن السهل الخمس - السابق ذكرها وهي سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم وصوغر - وكان يتنقل بينها يدعو الناس فيها إلى عبادة الله والإقلاع عن الفواحش التي كانوا يأتونها.

لم تردع هذه الهزيمة أهل سدوم وأهل القرى الأخرى. وكان الواجب على أهل سدوم بالذات أن يفتنوا إلى حقيقة أن الله قد أنقذهم من ذل الأسر والسبي ببركة لوط عليه السلام. إذ لولاه ولولا إسراع إبراهيم لنجدته لأخذوا عبيدًا إلى بابل ونساؤهم وأطفالهم إماء وسبايا. ولكنهم ظلوا في فساد أخلاقهم لا يستحون من منكر. ولا يتعففون عن معصية، وكان لوط عليه السلام يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة وبالعلم الذي علمه الله إياه.

"ولوطاً أتيناك حكماً وعلماً". (74- الأنبياء).

فأمرهم لوط أن يتقوا الله. وأخبرهم أنه رسول مرسل من رب العالمين وأنه أمين فيما ينصحهم به. وطلب منهم أن يطيعوه - كما قال لهم إنه لا يسألهم أجراً على هذا النصيح. لأن أجره على الله فهو رب العالمين.

" إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ إِذْ أُطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ". (160 - 164 الشعراء).

ثم بدأ يذكرهم بالموبقات التي يرتكبونها وهي:

1- الشذوذ الجنسي.

2- قطع السبيل.

3- إتيان المنكر في النوادي.



"وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتَانُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَيْنَكُمْ لَأَتَانُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ". (28- 29 العنكبوت).

## 1- الشذوذ الجنسي:

وكان الشذوذ الجنسي متفشياً فيهم يأتون الرجال والغلمان وهي فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من ولد آدم وكان ذكرها في القرآن الكريم في السور الأخرى بصيغة الاستفهام للاستنكار.

"وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ" (80- 81 الأعراف).

وفي هذه الآيات بين الله قبح هذا الفعل لأنه في غير محله إذ أن الشهوة محلها الطبيعي هو النساء. لما يترتب عليه من الإنجاب ولنا أن نتصور مجتمعنا فشا فيه الشذوذ الجنسي وعزف الرجال عن النساء. فسيتناقص المواليد وينقرض هذا المجتمع. فكأنه ينتحر، ولعل هذا هو السبب في أن الله - لما لم يرتدعوا - أبادهم. لأن هذا ما كانت ستؤدي إليه استمراريتهم في هذا الفعل.

وفي الآيات من سورة النمل "وأنتم تبصرون" أي ترون ما صار إليه العصاة من قبلكم - أو وأنتم ينظر بعضهم بعضاً ، لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك لعدم إكترانكم به.

ووصفوا مرة بأنهم قوم مسرفون والإسراف وضع للشيء في غير موضعه والخروج عن الحدود ووصفوا مرة ثانية بأنهم قوم يجهلون أي يفعلون فعل الجاهلين أو يجهلون عاقبة ما يفعلون أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون. ومرة ثالثة وصفوا بأنهم قوم عادون. والعادي المتعدي في ظلمه المتجاوز فيه الحد. أي أنتم قوم معتدون متجاوزون الحد في جميع المعاصي أو متجاوزون عن حد الشهوة حيث أتيتم ما لم يخلق لذلك وتركتم ما هو مخلوق لذلك.

## 2- قطع السبيل:

قيل قطع الطريق بسبب الاعتداء على الغرباء والمارة بتلك الفعلة القبيحة كرها، وقيل يقطعون النسل بالإعراض عن الطريق الطبيعي وهو الزواج الذي يتم به تكاثر الخلق. وقيل يقطعون الطريق بالقتل وقيل إنهم كانوا يترصدون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجتمعون من كل جهة. ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئاً حتى لا يبقى في يده شيء. كما كانوا يقفون في طريق الناس ويقتلونهم ويأخذون أموالهم.

## 3- وتأتون في ناديكم المنكر:

عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى: "وتأتون في ناديكم المنكر" فقال: كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم. وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه. ورواه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد بن قتادة وابن زيد: هو اتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً.

وعن ابن عباس هو تضارطهم وتصافعهم وحل الإزار والسباب والفحش في المزاح.

هذه كانت أمراض ذلك المجتمع وأعراض فساد.

بدأ لوط عليه السلام دعوته بأن قصد نواديهم ومجتمعاتهم يبين لهم ضرر ما يفعلون. ويدعوهم للإيمان بالله. ولكنه رأى الناس في مجالسهم ونواديهم يستهزئون بكل من يمر بهم. ويضحكون. ويشيرون إليهم إشارات ماجنة. كما أنهم يأتون المنكر على أعين الناس. وامتألت نفسه بالحزن والأسى. وأدرك جسامه مهمته. وبدأ يتساءل: هل سيستطيع تغيير طبائع القوم؟ إنها مهمته وعليه أن يؤديها مهما كلفه الأمر من مشقة. ورأى في الأسواق أنواعاً من الظلم والاستعباد. السادة يضربون العبيد بقسوة لأتفه الأسباب أو بدون سبب. ويتقاطرون على التجار الوفدين يتخاطفون البضاعة التي معه دون دفع ثمنها.

وانطلق لوط إلى القوم في كل مجلس يحذرهم من مغبة ما يعملون ويبين لهم الأضرار التي ستحقيق بهم من جراء أفعالهم هذه. وقال لهم إنه يمقت هذه الأفعال ويبغضها بشدة:

"قال إني لعملكم من القالين". (168- الشعراء).

لم يسمعوا لقوله وظلوا في غيهم سادرين.

وظل لوط عليه السلام خمس سنوات لا يمل من دعوتهم للإقلاع عن الشر ويحثهم على الأخلاق الحميدة، وهم لا يرتدعون وناله منهم أذى كبير.

كانوا يهزءون منه ومن دعوته إلى التطهر.

"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" (56 النمل).

"وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" (82- الأعراف).

ومقصودهم من السخرية بلوط ومن معه كما يقول المفسدون لبعض المصلحين إذا وعظهم: أخرجوا هذا المتكشف أو أريحونا من هذا الزاهد المترهد!!

ولما استمر استنكاره لما يفعلون وبيانه لقبح أفعالهم ضاقوا به وانتقلوا إلى موقف التهديد. فهددوه بأن يخرجوه من بلدتهم إذا لم يكف عن تذكيرهم بشناعة تصرفاتهم.

"قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ" (167- الشعراء).

ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار: ومرت السنون. ولوط يدعوهم إلى الهداية وتأبى قلوبهم وتاقت نفس إبراهيم إلى تنسم أخبار لوط، فدعا إبراهيم وكيل بيته أليعازر الدمشقي وأمره أن ينطلق ليأتيه بخبر لوط وقومه فخرج أليعازر قاصداً سدوم.

فبلغها ونزل عن حماره وربطه. ليقضي بعض شأنه وعاد فإذا به لا يجد الحمار. فأخذ يبحث عنه دون جدوى، وسأل عنه أصحاب الحوانيت التي كان الحمار مربوطاً

بجوارها. فلم يرشدوه. بل وأنكروا أنه ربط حمارة بجوارهم. وبات ليلته. وفي الصباح مر بالأسواق والنوادي ورأى أفعال القوم المنكرة فلم يستبشر خيراً. وحانت منه التفاتة فإذا به يرى حمارة المسروق مع أحد القوم فأخذ بتلابيبه. فاحتكما إلى القاضي وأرشد أليعازل إلى علامات في جسم الحمار تؤكد ملكيته له. وادعى السارق أنه وجد الحمار في الطريق فأخذه وأواه وأطعمه. وطلب أجر ذلك، ولدهشة أليعازل حكم القاضي بأن يسترد حمارة على أن يدفع مبلغاً من المال للسارق أجرة إيواءه الحمار وطعامه.

والمثل يقول: أجور من قاضي سدوم.

ورواية أخرى يرويها الأستاذ عبد الوهاب النجار، قرأها في كتاب من كتب الأدب العبري تدل على مدى ظلمهم ذلك أن أليعازل لما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فضرب أليعازل بحجر في رأسه فسال منه دم كثير ثم تعلق به قائلاً: إن هذا الدم لو بقي لأضربك وطلب أجراً على ذلك. فلما إحتكما إلى قاضي سدوم حكم القاضي على أليعازل بأن يعطي السدومي أجراً على ما فعل. فلما رأى أليعازل الجور من القاضي عمد إلى حجر ضرب به رأس القاضي فأسال دمه وقال له: الأجر الذي وجب لي عليك بإسالة دمك، عليك أن تعطيه للسدومي جزاء ضربه إياي وإسالة دمي!

وفي هذا يقول الشاعر المعري:

وأي امرئ في الناس ألقى قاضيا      ولم يمضى أحكاماً كحكم سدوم

وقيل في المثل: أظلم من قاضي سدوم.

قد تكون هذه الحكايات موضوعة، إلا أنها تبين الجو العام الفاسد والظلم البين الذي كان سائداً، ولم يتورع حتى القضاة عن الانغماس في هذا الظلم والفساد وتشجيع القوم بالوقوف بجانبهم والحكم لصالحهم حتى وإن كانت جريمتهم واضحة للعيان.

ولا شك أن أليعازل قابل لوطاً عليه السلام وسمع منه أكثر مما رآه من أفعال القوم، ولمس ما يلاقيه من عنت في مهمته وعاد أليعازل لينقل إلى إبراهيم عليه السلام صورة واضحة عن قوم سدوم وأفعالهم .... واستمر لوط في دعوته لهم بالهداية والاستقامة.

وفي آخر الأمر هددهم بأن الله قد ينزل بهم عذاباً قصاصاً لسوء أفعالهم إن لم ينتهوا منها ويقلعوا عنها:

"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " (29- العنكبوت).

وكان لهذا التحدي منهم معنى واحد هو أنهم لن يستجيبوا له مهما كرر الدعوة فهم لم يأبها بتهديده إذ لا يؤمنون بأنه نبي مرسل من الله، بل ويحمل ضمناً أنهم لا يؤمنون بوجود إله سيحاسبهم على أفعالهم ولا يصدقون أن عذاباً ما سينزل بهم. وصل الأمر بينه وبينهم إلى طريق مسدود فلجأ إلى الله:

"قال رب انصرني على القوم المفسدين". (30- العنكبوت).

"رب نجني وأهلي مما يعملون" (169- الشعراء).

ولعل لوطاً تساءل في نفسه إن كان قد أدى مهمته على وجهها. لقد بذل كل ما في وسعه لنصحهم وهدايتهم ولكن لم تبدر منهم أي بادرة ولو صغيرة على رغبتهم في الاستجابة لنصحه ولم يبدأوا بخطوة واحدة نحو إصلاح أنفسهم. وهم لو فعلوا لكان الله قد أعانهم على الخطوات التالية. ولكنهم تشبثوا بأفعالهم المنكرة ولم يتزحزحوا قيد أنملة. بل وكانوا يغوون القادمين إليهم. فحق عليهم العذاب.

نترك لوطاً في سدوم ونعود إلى إبراهيم عليه السلام في حبرون وكان أليعازل الدمشقي قد نقل له صورة قوم سدوم. وأدرك إبراهيم كم هي شاقة المهمة التي كلف بها لوط. وتمنى له النجاح في مهمته ويهتدى القوم على يديه.

ولكن كان في علم الله أن هؤلاء قوم فاسدون ولن يرجى صلاحهم وحققت عليهم كلمة العذاب.

وكلف الله ثلاثة من الملائكة بإنزال أمر الله عليهم بالدمار.

وكلفوا بالمرور على إبراهيم عليه السلام وإخباره بذلك.

وكلف الملائكة أيضاً بنقل البشارة لإبراهيم بأن زوجته ستلد له اسحاق.

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ من العمر 98 عام. ولما كانت سارة تصغره بعشرة أعوام فقد بلغت من العمر 88 سنة.

### قدوم الملائكة على إبراهيم:

"وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " (69- هود).

كان إبراهيم مضيافاً، ولا يرضى لأضيافة بما يقيم أودهم بل كان يكثر لهم من الطعام وقيل كان لبيته أربعة أبواب من كل جهة بابا لثلا يفوته أحد. ولذلك كانت كنيته "أبا الضيفان"

وجاء رسل الله - وهم الملائكة - إلى إبراهيم.

وإنما كان مجيئهم إلى إبراهيم لإبلاغه بالبشرى

البشارة لسارة "فبشرناها بإسحق". (71- هود).

والبشارة له: "وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين". (112- الصافات).

وقيل أيضاً بشرى بهلاك قوم لوط. فإن هلاك المفسدين مما يبشر به ويفرح له المؤمنون. ولنذكر أولاً الآيات التي تصور هذه الحادثة:

"وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلَدُّ وَآنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ " (69- 73 هود).

وهكذا ذكرت القصة في القرآن الكريم ليتكون عند القارئ والسامع إدراك حقيقي لما وقع ويكاد يتمثل الأحداث بحذاقها وما وقع في النفوس من مشاعر وأحاسيس بشاشة

بالضيف ثم خوف منهم، فرح بالبشرى ثم تعجب. مجادلة خوفاً من أن يصيب لوطاً بعض الأذى مما سيحل بقومه. ثم اطمئنان لتأكيدهم له بأنهم منجوه وأهل بيته إلا امرأته.

جاء الرسل - وهم من الملائكة - على هيئة بشرية - رجال قادمون من البادية. وأقبلوا عليه وألقوا إليه بالتحية: سلاماً فرد عليهم السلام ولم يتعرف على أحد منهم فهم أغراب قوم منكرون، وواجب عليه إكرام الضيف فراغ إلى أهله أي ذهب على خفية إلى أهله لتدارك الطعام وقد ذكر أن من أدب الضيافة أن يبادر المضيف بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يمنعه الضيف - أو يصير منتظراً له. وبالكرم الذي جبل عليه رأى أن مثل هؤلاء الأضياف لا يجب أن يقدم لهم إلا عجل حنيئذ أي سمين مشوي على الحجارة الساخنة في أخدود - ويسيل السمن عليه كأنه العرق.

وقدم لهم الطعام وجلس ليأكل معهم. وامرأته قائمة. واقفة عن قرب لما قد يحتاجونه. ومن أدب الضيافة أن ينظر المضيف إلى الضيف هل يأكل أم لا. على أن يكون ذلك من طرف خفي لا بتحديد النظر؟

ورأى إبراهيم أنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام وكانت العادة أن الضيف إذا لم يأكل طعام المضيف كان ذلك موجباً لظن الشر وأنه لم يجيء بخير وظهرت على إبراهيم مخايل الخوف.

واسترجع في ذهنه بعض الملاحظات التي زادت من خوفه.

فإن غلمانهم ينتشرون في المنطقة يرعون أغنامهم ومواشيهم. وإذا رأوا غريباً سارعوا لإخبار إبراهيم - أو رافقوه حتى خيمته وهؤلاء الأغراب ظهروا فجأة لم يشعر بهم أحد إلا وهم أمامهم. وكانوا مسافرين ولا يظهر على وجوههم أو ثيابهم أثر من تراب السفر أو وعثائه، كما لم تكن معهم دواب ولا أحمال مما يكون مع المسافرين.

صرح بشعوره نحوهم فقال: "إنا منكم وجلون" فبادروه بقوله لا تخف ولا توجل وإزالة الخوف نهائياً من نفسه بشروه بسلام عليم فلما اطمأن تعجب واستبعد أن يكون له ولد

بعد كل هذه السنين. وقال: أبشرتوني على أن مسنى الكبر، فبم تبشرون؟ فأني بشرى هذه؟ ولعله ظن أنهم يقولون ذلك لمجرد إذهاب الخوف عنه، ولكنهم أكدوا له أنها بشرى حقيقية. "بشرناك بالحق" وذكروه أنه لا يجب أن ييأس أو يقنط من رحمة الله. فأمن على كلامهم بقوله إن من يقنط من رحمة ربه يكون من الضالين.

كانت سارة على مقربة فسمعت هذا الحديث والبشرى بالولد وهو أمر يمسيها. بل الأمر يتعلق بها كلية لأنها هي التي تحمل وتلد. ولعل زوجها كان يقصدها هي من طرف خفي حينما قال: أبشرتوني على أن مسنى الكبر - فالرجل قادر على الانجاب مهما تقدمت به السن، أما المرأة فلها فترة خصوبة إذا تعدتها أصبحت عقيماً. لذلك نسب الكبر إلى نفسه حتى لا يجرح شعورها. لهذا ضحكت تعجباً أن تلد في هذه السن المتقدمة وهي قد قاربت التسعين. فوجهوا الخطاب إليها وبشروها بالولد وذكروا إسم الوليد "فبشرناها بإسحق" ولزيادة التأكيد أخبروها أنها ستعيش حتى ترى ولد ولدها وهو يعقوب "ومن وراء إسحاق يعقوب".

فندت عنها صرة وصيحة وكما تفعل النساء في مثل هذا الموقف لطمت وجهها من الحياء أو تعجباً "وصكت وجهها" ولم تتخرج من أن تصرح بما تعرفه عن نفسها من تقدم في السن وطول هذه السنين لم تتجب. وقالت: عجوز عقيم ثم استشعرت الحرج والحياء لو حدث فعلاً فقالت: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " وكان رد الملائكة " أتعجبين من أمر الله ؟؟؟ حميد مجيد" إن هذه هي إرادة الله وهو الذي يدبر الأمور بحكمته ويعلمه سبحانه وتعالى: "قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم".

وهكذا انتهى هذا الجزء من مهمة الرسل. وهو البشارة لإبراهيم عليه السلام وزوجته سارة.

ولكن إبراهيم عليه السلام أدرك بحسه أن لا بد هناك شيء آخر وراء هؤلاء الرسل لأن البشارة قد كان يكفي فيها وحياً يوحى إليه أو رؤيا صادقة، فلا بد إذن أن هناك مهمة أخرى لهؤلاء الرسل، ولا بد أيضاً أن إبراهيم عليه السلام قد تعرف على هؤلاء الملائكة



وعرف عظم قدرهم فكان سؤاله: "قال فما خطبكم أيها المرسلون؟" وصدق حدسه فقد كان الجواب: "إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين.

هكذا وصف القوم بأنهم قوم مجرمون وتكرر ذلك مرتين مرة في سورة الحجر (الآية 58) ومرة أخرى في سورة الذاريات (الآية 32) كانوا مجرمين فيما بينهم. ومجرمين لاعتدائهم على الغرباء ومجرمين في حق الله لتكذيبهم رسوله. أي أن الإجرام متأصل في طبيعتهم، ولم يكن لهذا الوصف من معنى إلا أنه قد وجب هلاكهم ، وصرحوا بذلك.

" قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ " (31 - العنكبوت).

وأشفق إبراهيم أن ينال لوطاً آذى مما سيحقيق بقومه. "قال إن فيها لوطاً".

قالوا: " نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ " (32 - العنكبوت).

" فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ " (74 - 75 - هود).

فبالرغم من علم إبراهيم بفساد خلق أهل هذه القرية إلا أنه أشفق عليهم من عذاب الله إذا نزل بهم وأخذته الرأفة بهم. وهو حلیم يأمل في تأجيل الانتقام من المسيء عسى أن يهتدي في يوم ما. كما أنه كثير التأوه من الذنوب والأسف على الناس.

فراح يجادل رسل الله.

وكان أول مجادلة أن قال إن فيها لوطاً أي كيف تهلكون قرية فيها نبي الله لوط. فلما قالوا إنهم منجوه.

راح يحاول ثانية عسى الله يقبل شفاعته.

وعن حذيفة أنه قال لهم: رأيتمهم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونها قالوا لا، قال فتلاثون؟ قالوا لا . قال فعشرون؟ قالوا لا . قال فإن كان فيهم عشرة؟ قالوا لا.

قال إبراهيم: ما من قوم لا يكون فيهم عشرة مؤمنين ليس فيهم خير. وأكد الرسل لإبراهيم أن قوم لوط ليس فيهم عشرة مؤمنين وقالوا:

" يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ " (76- هود).

وهكذا قضى الأمر ومتى جاء أمر الله فلا مرد له ولا محل لجِدال أو شفاعة والعذاب لا محالة واقع بالقوم المجرمين.

### في سدوم:

لما فصلت (ذهبت) الملائكة من عند إبراهيم أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان - اختباراً من الله تعالى لقوم لوط واقامة الحجة عليهم.

فقابلوا لوطاً وطلبوا منه أن يضيفهم وحسبهم بشراً من الناس وخشى إن لم يضيفهم هو ضيفهم غيره وأساء إليهم - كما كانوا يصنعون مع غيرهم، وكانوا قد اشتروا عليه أن لا يضيف أحداً.

وذكر قتادة أنه وردوا عليه وهو في أرض يعمل فيها فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم. وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها - وهذا معنى "وسيء بهم".

"وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً " (العنكبوت).

وأخيراً أفصح لهم قائلاً: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلدة أخبث من أهل هذه القرية. ثم مشى قليلاً ثم أعاد عليهم حتى كرره أربعة مرات، قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك. ولما رأى أنهم مصرون على النزول

في هذه البلدة وأنه مضطر لاستضافتهم وأن قومه لابد سيعلمون بوجودهم وسيضطر للدفاع عنه " قال هذا يوم عصيب".

" وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ " (77-هود).

وقال السدى خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار. فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها. وكان له ابنتان اسم الكبرى رؤثا والصغرى زغرتا. فقالوا لها يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم نعم. مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، شفقة عليهم من قومها، فأنت أباهما فقات يا أبتاه أراك فتیان على باب المدينة. ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم، لا يأخذك قومك فيفضحهم، فلما خرج إليهم قالوا له إنا نريد أن تضيفنا الليلة، فقال أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا وما عملهم؟ فقال أشهد بالله تعالى أنهم شر قوم في الأرض وقد كان الله تعالى قال للملائكة لا تنزل بهم العذاب حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات. فلما قال ذلك قال جبريل عليه السلام هذه واحدة، وتكرر القول منهم حتى كرر لوط الشهادة فتمت الأربع. وجاء بهم ، فلم يعلم أحد إلا أهل البيت، فخرجت إمرأته فأخبرت قومها، فقالت إن في بيت لوطاً رجلاً ما رأيت مثل وجوههم قط.

" ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ " (10-التحريم).

وكانت خيانة امرأة لوط أن أخبرت قومها بضيوفه وكانت كافرة غير مؤمنة برسالته. ولما علم القوم بهم جاءه قومه يهرعون إليه، جاءوا محمومين مسرعين. ولعل لوطاً تساءل بينه وبين نفسه عن أخبر القوم بضيوفه وأدرك أنها لا بد زوجته إذ هي قد غابت عن البيت قليلاً بعد حضورهم وحزن من غدرها وإفشاءها سر ضيوفه وهو الأمر الذي حرص على كتمانها.

جاءوا مسرعين ومن قبل كانوا يعملون السيئات. واعتادوا على المنكر فأسرعوا لطلب الفاحشة من ضيوفه مظهرين غير مكترثين لضياح الحياء من وجوههم وسلوكهم. وأحاطوا بالبيت فخرج إليهم وأغلق الباب خلفه حفظاً لضيوفه متعلقاً بأمل ان يقنعهم بالمنطق.

ولكنهم لم يرتدعوا وقالوا له أو لم ننهك عن إجارة أحد؟ والحيلولة بيننا وبينه وأن لا تستضيف أحداً؟

"قالوا أو لم ننهك عن العالمين

قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين " (70- 71 الحجر).

" قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ " (78- 80 هود).

وتثور هنا مسألة : كيف سمحت نفس لوط بابنتيه أو بناته يقدمهن لهؤلاء الفسقة وهو نبي معصوم.

وخير ما قيل للرد على ذلك هو أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كانوا ثلاثة ولا يعقل أن يكون كل واحد من القرية - الذين جاءوا إليه يأمل أن ينال حاجته منهم وأهل القرية يبلغون ألفاً أو يزيدون. ولكن المعقول أن هناك رئيسان مطاعان أو ثلاثة في القوم وهم الذين يطلبون الملائكة وجاء معهم أهل القرية كلهم لمظاهرتهم حتى يتم مرادهم - فعرض لوط عليهم ابنتيه ليأخذوهم بطريق التزويج وهذا هو الطهر الذي أشار إليه "هؤلاء بناتي هن أطهر لكم" ويقال أنهم كانوا يطلبونهم من قبل للزواج وكان لا يجيبهم لخبثهم وعدم كفايتهم. وإن قال البعض بعدم مشروعية تزويج المؤمنات من الكفار رد عليه بأن ذلك كان جائزاً - وكان جائزاً أيضاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فزوج ابنته زينب لأبي العاصي بن الربيع، وابنته رقية لعتبه بن أبي لهب -

وكانا كافرين - حتى نزل قوله تعالى: "لا هن حل لهم، ولا هم يحلون لهن" في الآية 10 من سورة الممتحنة.

وأياً ما كان فقد أراد لوط عليه السلام بذلك وقاية ضيفه وهو غاية الكرم.

وقيل أيضاً كيف يليق به عليه السلام أن يعرض بناته على أعدائه ليزوجهن إياهن، وقيل أيضاً كيف يعرض بناته وهن اثنتان أو ثلاثة على القوم وهم أكثر منهن عدداً، ورد بعض المفسرين أن ذلك القول منه عليه السلام لم يكن مجرباً على الحقيقة من إرادة الزواج بل كان مبالغة في التواضع لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه مما هم يطمعون فيه. ويمكن اعتباره تنازلاً منه عن رفضه السابق لهم مبالغة في حماية ضيوفه طمعاً أن يرقوا أو يستحووا منه إذا سمعوا تنازله هذا. فكأنه عليه السلام اختار أهون الشرين - أن يزوجهن بناته مع كرهه لذلك - بدلاً من الاعتداء على ضيفه والفحش فيهم.

وهكذا ناشدهم بالمنطق، ثم قدم لهم تنازلاً عما كان رفضه قبلاً، ثم أوضح لهم طهارة الفطرة السليمة - كل ذلك حماية لضيوفه. ثم ناشدهم باسم المروءة والشهامة وإكرام الضيف من الطباع العربية الأصيلة. وفضح الضيف خزي. لذلك قال:

"ولا تخزون في ضيفي".

ثم تلمس أن يكون من بينهم رجل منصف. رشيد العقل يقف إلى جواره. فتساءل

"أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ" ؟ (78- هود).

وناشدهم مرة أخرى بتقوى الله والخوف منه.

"قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا الله ولا تخزون. قالوا أو لم ننهك عن العالمين (68- 70 الحجر).

وهكذا ذهبت مناشداته لهم أدراج الرياح. وكان ردهم هو أنهم كانوا قد طلبوا منه سابقاً عدم إجارة الوافدين على القرية، كأنهم يحملونه تبعة ما قد فعله من استضافة هؤلاء النفر.

وإن كان هناك خزي أو فضيحة فكأنه هو المتسبب فيها بهذه الاستضافة وليس بسبب قبح ما يريدون !! ثم أفصحوا في تبجح وفجور عن رغبتهم في الفاحشة وليس في الزواج الحلال من بناته أو نسائهم.

" قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ " . (79- هود).

ولما يؤس من رجوعهم عما هم عليه من الغي ولمس تصميمهم على تحقيق مرادهم بالقوة. ولعله رأى تزايد جموعهم وتصايحهم واقتربهم منه ومن بيته.

" قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ " . (80- هود).

وهكذا تمنى أن لو كان قوياً يستطيع ردهم. أو يأوي إلى ركن من البيت شديد في منعه لا يستطيعون اقتحامه أو ركن من نفر معه حتى يستطيعوا ردهم ولعله رأى أن الله يمتحنه بهذا الموقف ليرى مدى استبساله في الدفاع عن ضيفه ودفع الأذى عنهم. ومن هنا كان تمنيه أن لو كان معه نفر كالركن الشديد لا يستطيع القوم التغلب عليهم.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "رحم الله أخي لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد" يعني عليه الصلاة والسلام - الله تعالى فإنه لا ركن أشد منه عز وجل.

وروي أن لوطاً عليه السلام دخل بيته وأغلق بابه فحاولوا اقتحام البيت. فلما رأت الملائكة ما عليه لوط من كرب أفصحوا له عن حقيقتهم.

"قَالُوا يَا لَوُطَ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ. لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ" . (81- هود).

وهنا أيقن أن نجدة الله قريبة منه، ولكن كيف وما هو يرى القوم وقد كسروا الباب وبعضهم تسور الجدار، ودخلوا البيت. ولكنه عجب - لقد رآهم بدلاً من أن يتجهوا نحوه ونحو ضيفه. بعضهم يتجه لخارج البيت والبعض يتحسس الحيطان ويتخبط بعضهم في بعض.

"فطمسنا أعينهم".

ويقال إن جبريل عليه السلام استأذن رب العزة - ثم ضرب أعينهم بجناحه فانطمست أعينهم ولم يعودوا يرون شيئاً، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون الحيطان ويتوعدون لوطاً إلى الصباح، ظناً منهم أن الظلام الذي عمهم كان من غمامة حجبت ضوء النجوم أو ريحاً أطفأت مشاعلهم.

"وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ " (37- القمر).

وقال الملائكة للوط عليه السلام:

"وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"

ولما كان القوم قد توعدوه بالعودة في الصباح، فقد أمره الملائكة بالخروج ليلاً في السحر وهو ما قبل الفجر والإسراء هو السير بأول الليل أو آخره.

"إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ". (34- القمر).

"فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبَعَ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ" (65- 66 الحجر).

"فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ". (170 - 175 الشعراء).

وقيل في تفسير "فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك": قال الزمخشري إنه سبحانه استثنى من الإسراء وكأنه قال فأسر بأهلك إلا امرأتك بالنصب وقرأها آخرون بالرفع استثناء من الالتفات - والمعنى فإن خرجت معكم وتبعنكم من غير أن تكون أنت سریت بها. فإن الأمر بعدم الالتفات ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك. فإنها ستلتفت وسيصيبها ما أصاب قومها وتهلك. ويقال إنها لما تبعنهم ورأت نذر العذاب قالت يا قوماء تريد أن تحذرهم فأصابها حجر فقتلها.

وجاء الصبح - وكان لوط قد ابتعد بأهله. وفي الصبح المبكر نزل بهم العذاب.

" وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُنُورِي " (38-39 القمر).

وجاءهم العذاب على هيئة حجارة تساقطت عليهم من السماء وقلبت عليهم الأرض.

" فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ " (82-83 هود).

" إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ " (34-العنكبوت).

"وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين" (173 - الشعراء، 58- النمل).

وكان القوم لما عادوا أدرجهم جعلوا يمينون أنفسهم بأنهم في الصباح لا بد سينالون ما يرجون، فإن كان ظلام الليل قد حجبهم عنهم.. فللصبح أعين كما يقال وأسكرتهم نشوة الفرح بما سينالون في الصباح وهم في عمى عما سيكون عليه الصباح بالنسبة لهم !

" لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ " (72-75 الحجر).

ويقال إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن بيده، وفي رواية أخرى أدخل جناحة تحتها فرفعها ثم قلبها. ولا ينبغي أن يؤخذ الكلام على أنه كناية عن إنزال أمر عظيم فيها. فلقد قلبت بهم الأرض فعلاً، وليس ذلك فقط. فقد أرسل الله عليهم حجارة من طين متحجر - حجارة من سجيل - وقيل إن سجيل معربة عن الفارسية "سكيل" بمعنى الطين المتحجر - سك: جاف، كيل: طين. "حجارة من سجيل منطود" أي نضد ووضع بعضه على بعض معدا لعذابهم ونزلت عليهم بكثرة كأنها المطر. "مسومة عند ربك" قيل معلمة يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض. وقيل معلمة ببياض وحمرة. وفي رواية عن ابن عباس أن بعضها كان أسود فيه نقطة بيضاء وبعضها كان أبيض فيه



نقطة سوداء. وعن الربيع أنها كانت معلمة بأسماء من يرمى بها. وفي حجمها قيل: بعضها مثل قبضة الرجل وقيل مثل رؤوس الإبل.

وقد وصف ذلك أيضاً بمطر السوء في قوله تعالى:

"وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوِّ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا " . (40- الفرقان).

وكانت مدن السهل الخمس هي سدوم وعمورة وآدمه وصبؤيم وصوغر أشهرها وأكبرها سدوم. وهي القرية التي كان فيها لوط عليه السلام. وكان فيها على ما روى عن قتادة أربعة آلاف ألف إنسان - أي أربعة ملايين ! وهي مبالغة كبيرة إذ أن مدن هذه الأيام حتى الكبير منها ما كانت لتزيد عن ثلاثين أو خمسين ألفاً أو نحو ذلك وهذه المدن الخمسة كانت عبارة عن قرى بل إن تفسير الألوسي يجعلها قريات - جمع قرية تصغير قرية - وقد لا يزيد سكان القرية عن أربعة آلاف والقرية أقل من ذلك. فتكون ألفين أو ثلاثة. فيكون من هلكوا في حدود 12 - 16 ألف نسمة. وكانت قرية صوغر (واسمها أيضاً بالع) أصغرهما وتقول التوراة: ولم تخرب هذه المدينة عند سقوط سدوم وأخواتها. لأن لوطاً صلى من أجلها ولجأ إليها.

وهكذا تم أمر الله وأهلك القوم المجرمون. ونحى الله لوطاً ومن معه وهم أهله - ابنتيه - إلا إمرأته التي خانته وأخبرت القوم عن ضيوفه كما سبق ذكرنا - كانت من الغابرين.

"فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ " . (35- 37 الذاريات).

وفي هذا تصديق لما قيل من قبل في مجادلة إبراهيم عليه السلام للرسول في شأن إنزال العذاب. وقول الملائكة: لا نهلكم لو كان فيهم عشرة مؤمنون وهكذا لم يكن فيهم غير بيت واحد من المسلمين وكانوا أقل من العشرة.

"وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ" . (من الآية 65- الحجر).

وقيل إن لوطاً أُمر بالذهاب إلى مدينة صوغر التي لم ينلها العذاب وعاش بها وقيل أقام في حبرون مع عمه إبراهيم عليه السلام.

وقرى قوم لوط - وخاصة سدوم وعمورة - تقع على طريق القوافل، ويرى الناس الدمار الذي حل بها. عبرة وعظة حتى لا يرتكب الناس الفواحش والمعاصي وفي هذا حث على التقوى.

" وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ " . (137- 138 الصافات).

ففي هذه القصة آية للمؤمنين ولكل من نظر بعين الفراسة والتوسم والفهم وكيف كان الفساد والفاحشة سبباً في هلاك هذه القرى ودمارها بعد أن كانت آهلة عامرة.

ويقال إن المنخفض الشديد الذي يقع فيه البحر الميت في فلسطين هو مكان مدن قوم لوط وكثافة الماء بالبحر الميت أعظم من كثافة مياه البحر. وبمائه صخور معدنية مذابة توحى بأن شهباً مشتعلة قد سقطت في هذه الناحية.

### الفرية على ابنتي لوط

"كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً" (5- الكهف).

جاء في التوراة، الاصحاح 19 تكوين:

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه. لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة. أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلًا فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمرًا الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلًا فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا قيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابناً دعت اسمه

مؤاب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بني عمون إلى اليوم.

ولا يسعنا إلا التعجب كيف استساغ كاتبوا التوراة نسبة هذه الفرية إلى نبي معصوم يحفظه الله وملائكته من الصغائر والكبائر ويصفر عنه سوء.

ويدهض هذه الفرية ما نعلمه من طبائع البشر من أن أي امرئ ما إن يرى مظاهر الحمل على ابنته - وهي غير متزوجة - إلا وتثور الدماء في عروقه ويعمد إلى التخلص منها تخلصاً من عارها ولن يكون لوط عليه السلام أقل غيرة ولا يتصرف مثل هذا التصرف مع ابنته.

ثم ما هو السبب الذي يدعو لوطاً إلى هذه العزلة عن الناس؟

تقول التوراة: لأنه خاف أن يسكن في صوغر! والسؤال: خاف ممن؟ والأولى - وقد رأى الناس ما حاق بمن كذبوه- أن يعرفوا قدره ويهابوه وينزلوه بينهم منزلة كريمة . لا أن يخاف منهم ويأوي إلى مغارة في الجبل !

كما أن إقامته في صوغر أو وجودها على مقربة ينفي القول: ليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض، فلو كانت رغبتهما عارمة إلى هذا الحد فما كانت تشبعهما هذه المرة الواحدة من الاتصال المفترى ولكانتا نزلتا إلى صوغر لتجدا بغيتهما من الرجال.

والأرجح أن إقامة لوط عليه السلام كانت في صوغر نفسها وظل يدعو الناس إلى عبادة الله. وزوج ابنتيه ممن ارتضاهم خلقاً وديناً. وكان عمره لا يزيد عن خمس وأربعين أو خمسين سنة. فلا بد أن الله قد أبدله زوجة مؤمنة شابة بدلاً من تلك العجوز الخائنة، فولدت له ابنه البكر مؤاب ومن بعده بن عمى.

فالمؤابيون هم ذرية مؤاب بن لوط. وسميت أرضهم باسم مؤاب وهي تقع شمال وادي الحسا الذي يفصل مؤاب عن أدوم واسمه في التوراة وادي زرد، ويمر في وسطها نهر عرنون أو أرنون.. ثم استولى الأموريون على الجزء الشمالي حتى النهر. ثم جاء بنو

إسرائيل فاستولوا على هذا الجزء من الأموريين. أما مؤاب جنوب النهر فكانت حصينة ولم يستطيع بنو إسرائيل دخولها لما واجهوه من مقاومة ومن هنا كان حقد بني إسرائيل على مؤاب.

والعمونيون هم أبناء بني عمى - الابن الأصغر للوط. وقد ارتحل هو وأبناؤه وأحفادهم - شمالاً ، وسكنوا المنطقة شمال البحر الميت وشرقي نهر الأردن حوالي أعالي نهر حبوب إلى الشمال الشرقي من مؤاب وكانت عاصمتهم ربة أو "ربة عمون" ومكانها الآن مدينة عمان عاصمة الأردن. وكون العمونيون دولة مستقلة في وقت مبكرة. وكانت أراضيهم لا تدخل ضمن الأرض التي وعدها الله لبني إسرائيل.

من هذا ندرك مدى العداوة التي كان يكنها بنو إسرائيل للمؤابيين والعمونيين ونفسوا عن الأحقاد التي ملأت قلوبهم فحرفوا التوراة عند إعادة كتابتها بعد السبي فضمنوها هذه الفرية: بأن مؤاب وبني عمون هما ابنا سفاح من ابني لوط!! ويظهر ذلك الحقد واضحاً في سفر نحemia (اصحاح 13) إذ نجد فيه قولهم: أن عمونيا ومؤابيا لا يدخل في جماعة الله إلى الأبد. لأنهم لا يلاقوا بني إسرائيل بالخبز والماء. بل استأجروا عليهم بلعام لكي يلعنهم. وحول إلها اللعنة إلى بركة.

## يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب من زوجته راحيل ابنة خاله لابان، آخر من ولد في حاران قبل أن يتركها في طريق العودة إلى أرض كنعان.

وجاء اسمه في القرآن الكريم يوسف بضم السين. وفي التوراة تكسر السين، وضم السين أجمل - حتى لا يختلط الأمر على القارئ فيظن أن الاسم مشتق من الأسف والمؤاسفة كما هو الحال لو نُطقت بكسر السين.

وقال بعضهم إنها مشتقة من فعل ياساب العبري بمعنى يُضيف ويكون يوسف بمعنى يضيف أو ضيف الله. وبعضهم قال مشتقة من جذر عبري بمعنى يخاف أو خائف. فمعنى يوسف هو خائف الله.

وقد ورد اسم يوسف في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة.

مرة في سورة الأنعام في الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

"وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " (84 - الأنعام).

ومرة في سورة غافر

" وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ " (34- غافر).

أما ال 25 مرة الباقية فقد جاءت كلها في سورة يوسف وهي سورة كاملة لا تتحدث إلا عن يوسف.

وقد امتدح نبينا صلى الله عليه وسلم يوسف في حديثين: قال الإمام أحمد عن آخرين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (عن يوسف) الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم. يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم. انفرد باخراجه البخاري. وروى البخاري أيضاً حديث عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أكرم؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم. قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم

الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله. قالوا ليس عن هذا نسألك: قال فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا نعم: قال فخيركم في الجاهلية خيركم في الاسلام إذا فقهوا.

كان يوسف وأخوه بنيامين أحب أبناء يعقوب إلى قلبه، ولد يوسف في حاران قبل أن يغادرها بفترة قليلة وكان عمر يعقوب عند ولادته 52 عاماً تقريباً. وحينما وصل شكيم كان يعقوب قد قارب الخامسة والخمسين ويوسف بلغ بالكاد ثلاث سنوات وعند الوصول إلى أفراته وضعت راحيل ابن يعقوب الأخير - بنيامين - وماتت. وكان يعقوب عمره حوالي 61 عاماً ويوسف بلغ التاسعة من عمره.

وزاد يعقوب من حنانه على يوسف وبنيامين. وخاصة بعد وفاة والدتهما وزاد هذا من حفيظة اخوتهما عليهما. وإن كان غضبهما على يوسف أشد، فخصوه هو بالذكر بالإسم وألحقوا به أخاه. واتهموا أباهم بالضلال والزيغ عن الحق لتقديمه يوسف عليهم ومحبتة له أكثر منهم.

" لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّانِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ". (7 - 8 يوسف).

وتقول التوراة (إصحاح 37 تكوين) كان يوسف ابن سبع عشرة سنة يرعى مع اخوته الغنم وهو غلام وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم. وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً. فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام.

قيل كان القميص طويلاً يصل إلى القدمين وكانت له أكمام طويلة تغطي اليدين وكانت القمصان وقتهم بغير أكمام وتصل إلى الركب فقط. وقد أعطى هذا القميص تمييزاً له على إخوته.

ولعل إخوة يوسف قد توجسوا خيفة من ذلك الحب الشديد وخشوا أن يكون ذلك لإعطائه البكورية والبركة وهم لا بد قد علموا أن أباهم قد كسر قاعدة البكورية بأن

أجبر عمهم عيسو على التنازل عنها عند مرضه - كما أنه قد أخذ البركة أيضاً. لذلك كان خوفهم من أن يكون في نية أبيهم كسر القاعدة مرة أخرى لصالح يوسف. لشدة حبه له ولكون يوسف هو الابن البكر لراحييل - التي كانت أثيره لديه. لذلك كان بغضهم ليوسف أشد، فرغبوا في التخلص منه.

وحلم يوسف حلماً ، يذكره القرآن الكريم في قوله تعالى:

"إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (4 - 6 يوسف).

واتفقوا على التخلص منه وكان تشاورهم في الكيفية التي يتم بها هذا الأمر، وجعلوا يفاضلون بين الطرق المختلفة للتخلص منه، وليقنعوا أنفسهم بصواب ما ينتنون ذكروا فيما بينهم أنهم يريدون أن يكونوا برة بأبيهم - لا يشعرون نحوه إلا بكل حب وتقدير واحترام وأن وجود يوسف وحب أبيه له هو الذي يثير حفيظتهم على أبيهم ولكن بعد أن يختفي يوسف سيصفو لهم وجه أبيهم. وفي المقابل تصفى وجوههم أيضاً لأبيهم. ومن ثم لن يشعروا نحوه إلا بشعور الأبناء الصالحين البارين بأبيهم. وهكذا استقر رأيهم على التخلص من يوسف.

كانت المناقشة تدور للمفاضلة بين هل يقتلونه أم يرملونه في بئر ويتركونه لمصيره. سواء مات من الجوع أو العطش أو النقطته بعض القوافل المارة. فتأخذه معها بعيداً عنهم.

" اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ" (9 - 10 يوسف).

وهناك خلاف حول من قال: "لا تقتلوا يوسف"

قال مجاهد هو شمعون.

وقال السدي هو يهوذا.

وقال قتادة ومحمد بن اسحاق: هو أكبرهم رأوبين.

وصرفهم الله عن قتله بمقالة أخيه هذه وجعلهم يتجهون لألقائه في البئر.

يقال إن يعقوب عليه السلام ضم يوسف إليه قبل أن يذهب مع اخوته كما أنه من المؤكد أن اخوة يوسف في أول مسيرتهم كانوا يرحبون به ويضاحكونه ويتلطفون معه حتى يطمئن إليهم فلا يقفل راجعاً، ولعلمهم ساروا ساعة من الزمان أو أكثر قطعوا فيها عشرة كيلومترات - في الطريق الموصل إلى بئر سبع - حتى وصلوا إلى المكان الذي يرعون فيه. حول بئر يشربون منه إذا عطشوا ويستقون لأغنامهم أيضاً، وكانت البئر التي وقع عليها الاختيار لإلقاء يوسف فيها على طريق القوافل. فلم يتخبروا بئراً مهجوراً لعلمهم أنه سيموت جوعاً أو عطشاً فيها. وهم لم يقصدوا موته بل كان هدفهم هو ابعاده بإلقائه في بئر. حتى تلتقطه قافلة مارة فيأخذونه معهم ويبيعونه في البلد المتجهين إليه.

" قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْفُؤُةَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ " (10 - يوسف).

كانت طرق القوافل في هذه المنطقة كثيرة ولكن على ما يبدو كان في ذلك الوقت شعبان يحتكران التجارة في هذه المنطقة:

1- قوافل المديانيين: تسير في رحلاتها من أرض مدين، شرقي خليج العقبة إلى

شمال سوريا. فتمر من بلدة الحدراء إلى إيلة. إلى بئر سبع. حبرون. بيت إيل. شكيم. ثم تعبر نهر الأردن عند مصب نهر ييوق إلى مدينة سكوث. ثم إلى راموث جلعاد، فدمشق، وحماة ثم حلب. ثم تقفل راجعة في نفس الطريق. أي أنها تسير في مجملها من الجنوب إلى الشمال وبالعكس.



2- قوافل الاسماعيليين: وطريقها من الشرق إلى الغرب تقريباً منها ما يبدأ من دومة الجندل ومنها ما يبدأ من تيماء ولعلها كانت تلتقي عند صوغر عند الطرف الجنوبي للبحر الميت ثم تسير إلى بئر سبع. ثم تعبر شمال سيناء إلى مصر.

ولعل التنسيق كان يتم بين قوافل المديانيين والإسماعيليين بحيث يكون مرورهما ببلدة بئر السبع في وقت واحد. فيتم التبادل التجاري بين القافلتين فيتيح لكل منهما الحصول على بضائع من بلاد لم يملوا عليها فيتاح للإسماعيليين الحصول على بضائع دمشق. ويتاح للمديانيين الحصول على بضائع من مصر وفي هذا توفير للمال والجهد.

نعود إلى قصة يوسف وقد ربطه إخوته بحبل وأدلوه في البئر ثم ألقوا بالحبل كله في البئر، وقيل قطعوا الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فتشبث براعونة في البئر حتى صعد فوقها. وراعونة البئر هي صخرة توجد في وسط قاع البئر فإذا قل الماء في البئر أنزلوا شخصاً يقف فوقها ليملاً الدلاء. وبعد أن يستقي الجميع يرفعونه ثانية. وهكذا جاهد يوسف حتى قام على راعونة البئر.

وكانما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف عن يوسف الذي هو فيه فأوحى إليه أن الله سيخرجه من هذا الضيق وسينصره عليهم ويعلي درجته فوقهم وسيأتي وقت يخبرهم بما فعلوا معه، وسيكون في حال مختلف ومركز عظيم بحيث لا يعرفونه ولا يشعرون أنه يوسف أخوهم.

" فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ". (15- يوسف).

وقد تحقق هذا في المستقبل، إذ قال لهم:

" قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَأُنَبِّئُكَ لِأَنَّتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ". (89 - 90 يوسف).

أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما ألقى يوسف في الحب أتاه جبريل عليه السلام فقال له: يا غلام. من ألقاك في هذا الحب؟ قال: إخوتي، قال: ولم؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني. قال: تريد الخروج من ههنا؟ قال: ذاك إلى إله يعقوب..، قال: قل اللهم إني أسألك باسمك المكنون المخزون يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام. أن تغفر لي وترحمني وأن تجعل من أمري فرجاً ومخرجاً. وأن ترزقني من حيث احتسب ومن حيث لا يحتسب. فقالها. فجعل الله تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب. ثم قال عليه الصلاة والسلام. أَلْطُوا بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ فَإِنَّهُنَّ دَعَاءُ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ.

أما أخوة يوسف فقد عادوا إلى أبيهم في العشاء بين المغرب وعتمة الليل. جاعوه وهم ييكون وقالوا له إن الذئب أكل يوسف. إذ تركوه عند متاعهم وذهبوا هم الكبار ليتسابقوا فأكله الذئب في غيبتهم وقالوا له: ولن تصدقنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له. ولو كنا غير متهمين عندك فيكف وأنت تتهمنا في هذا فإنك خشيت أن يأكله الذئب وأكدنا لك أن ذلك لن يحدث لكثرتنا ومقدرتنا للتصدي له. فصرنا غير مصدقين عندك. ولو كنا صادقين، وكانوا قد عمدوا إلى شاه صغيرة فذبحوها وأخذوا من دمها ووضعوه على قميصه ليوهموا بأن ما روه عن أكل الذئب له هو قصة حقيقية.

" وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ". (16 - 18 يوسف).

ولعل يعقوب عليه السلام قد ارتاب في روايتهم لعلمه بعداوتهم ليوسف وحسدهم إياه. وقيل: جعل يقلب في القميص ويقول: ما أرى به أثر ناب ولا ظفر. إن هذا السبع رحيم وفي رواية أخرى أخذ القميص وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: تالله ما رأيت كالأيوم ذئباً أحلم من هذا. أكل ابني ولم يمزق قميصه !!

لم يكن أمام يعقوب عليه السلام إلا الصبر على مصيبتة هذه في فقد ولده الأثير لديه. والصبر الجميل - على ما روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم ما لا شكى فيه إلى الخلق. واستعان يعقوب بالله على هذا الحدث. الذي علم أن لا سبيل في دفعه ويقال إنه كان عالماً بأن يوسف حي سليم، حيث سبق أن قال له: وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ولا بد لقضاء الله أن يتم، فلا بد أن يبقى يوسف حياً ولرب قائل يتساءل: لماذا إذن لم يُجد يعقوب في البحث عن ابنه؟ قد يكون أنه أدرك أنه لو فعل فقد يسبقوه إليه وقد يقتلونه فعلاً حتى لا يظهر كذبهم، لذلك رضي بأهون الأمرين وهو غيابه مع بقائه حياً. وفوض أمره لله وترك الأمور لله يسيرها كيف يشاء.

وفي صبيحة اليوم التالي لا شك أن أخوة يوسف لم يخرجوا للرعي تظاهراً منهم بالحزن على يوسف. وما حدث ليوسف بعد ذلك هو أنه بقي في الجب طيلة ليلته هذه، وقيل ثلاثة أيام. ثم مرت قافلة. وسبق أن قلنا إن القوافل المارة على طريق حبرون بئر السبع هي قوافل المديانيين. وكانت عائدة من دمشق متجهة إلى بئر سبع وأرسلوا واردهم وهو الذي يرد الماء ويستقي لهم فأدلى دلوه في الجب ليستقي فتشبث به يوسف فأخرجه من البئر واستبشر وقال يا بشرى.

وأغلب الظن أن قافلة المديانيين حين النقطوه من البئر خافوا أن يجيء أحد من أهله للبحث عنه ومن السهل تتبع قافلتهم ومحاولة استرداده منهم. فما إن قابلوا قافلة الاسماعيليين في بئر سبع حتى باعوه لهم - محاولة لتضليل من يريد تتبعهم لاسترداده وكان المديانيون فيه من الزاهدين لرغبتهم في التخلص منه.

وقالوا إن الزاهدين فيه كانوا الإسماعيليين حين باعوه في مصر.

" وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ " (19) - 20 يوسف).

## مصر وقت مجيء يوسف إليها

جاء يوسف إلى مصر مع قافلة الاسماعيليين كان عمره وقتها حوالي خمسة عشر عاماً. وكان مصر يحكمها الهكسوس مكونين الأسرة السادسة عشرة وفي وقت أحد ملوكها المدعو "أبائي الأول" وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها اسم "فوتي فارع" وهي تعني "عطية الإله رع" وهو المذكور في التوراة "فوطيفار" عزيز مصر (رئيس وزراءها أو قائد الشرطة أو وزير الداخلية) في ذلك الوقت.

## يوسف الصديق في مصر

قلنا إن قافلة الاسماعيليين أحضرت يوسف معها إلى مصر وكان عمره حوالي خمسة عشر عاماً. وباعوه إلى رئيس جند مصر أو رئيس وزراءها وهو "فوتي فارع" وتسميه التوراة فوطيفار وقال ابن عباس اسمه قطفير وبهذا تسميه أغلب المراجع الاسلامية وقال محمد بن اسحاق اسمه أطفير وكان ملك الهكسوس هو "خيان" وتسميه المراجع الاسلامية - الريان كان ذلك في العام 1762 ق. م . تقريباً.

تصف التوراة فوطيفار بأنه "خصى فرعون رئيس الشرطة" واعترض كثيرون على أنه خصى. فلم تعرف مصر لا في عهد الفراعنة ولا في عهد الهكسوس الخصيان. كما أن الخصى لا يتزوج وكان فوطيفار زوج أجمل امرأة في الهكسوس. وليس معنى أنه لم ينبج أنه كان خصياً كذلك اعترضوا على تسمية حكام الهكسوس باسم فرعون لأنهم كانوا يسمون ملوكاً. وكان القرآن الكريم هو الذي ميز بين الحكام في عهد يوسف الصديق فسماهم ملوكاً في حين أطلق على الحكام الذين كانوا معاصرين لموسى عليه السلام - اسم فرعون وهذا يدل على اختلاف نوع الحكم في العهدين ففي عهد موسى كان الحكم بأيدي المصريين ويسمى الحاكم فرعوناً. أما في عهد يوسف فكان الحكام من الهكسوس ويسمى الحاكم ملكاً. ويرى البعض أنه لا بأس من إطلاق وصف فرعون على بعض ملوك الهكسوس الذين حاولوا التقرب للمصريين فأعلنوا الولاء للآلهة المصرية وبعضهم أضاف إلى اسمه لقب "فرعون" زيادة في التظاهر بمصريته.

أما عن امرأة فوطيفار الذي اشتراه - قال مجاهد: اسمها راعيل بنت راعيل. وقال السدي: زليخا بنت تملیخا. وقالوا اسمها راعيل ولقبها زليخا ! وعلى كل فإن الاسم في حد ذاته لا أهمية له.

وقالوا إن فوطيفار تفرس في يوسف فوجد فيه مخايل الرشد والنجابة فكان يرجو نفعه أو يكون عوناً له أو بمثابة الإبن إذ أنه لم ينجب وعن ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا والمرأة التي أتت موسى ف قالت لأبيها: يا أبت استأجره. وأبو بكر حين استخلف عمر.

" وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " (21 - 22 يوسف).

قلنا إن فوطيفار - الذي اشتراه من مصر - أمر امرأته أن تكرم مثواه وتحسن معاملته. كان عمر يوسف حوالي 15 عاماً. فعاملته كما تعامل المرأة ولدها تحنو عليه وتحبه. وخاصة أنه كان بهي الطلعة - ولم يكن لها ولد.

وبدخول يوسف بيت العزيز بدأت مرحلة جديدة من حياته .هي بداية لما كان الله يدبره له من مكانه ومنزل .وهذا هو التمكين في الارض الذي أشار إليه القرآن الكريم وكذلك علمه الله من تأويل الأحاديث أي الأحلام .وهو ما يجعل اسمه يشيع شيوعاً محبباً إلى النفوس ويعلي مكانته إذ يتقين الجميع من بُعد نظره وصحة تأويله فيطمئنون لما يشير به وهذا مع جعل اسمه يصل إلى حاكم البلاد ويطلبه بالذات. ثم يجعله - نائباً أو رئيساً للوزراء - كما سيجيء فيما بعد. فكان تأويل الأحلام هو الباب الذي دخل منه يوسف ليكون هو المتصرف في أمور مصر كلها. وهذا هو لطف الله في تدبيره وغلبة أمره. ولكن كثيراً من الناس قد لا ينتبهون لهذه الأمور ولا يعلمونها.

ولما بلغ أشده أي أوج اشتداد قوته وجسمه. وقالوا إنها المرحلة بين الثلاثين والأربعين وفي المتوسط خمس وثلاثون سنة. عند هذه السن آتاه الله حكمة وتفقهاً في الأمور. وكذلك آتاه الله علماً بوجوه مصالح الناس ليكون حكمه بينهم متفقاً مع العدل ومحققاً للخير ويرتضيه جميع الأطراف.

وعن ابن عباس: الحكم النبوة. والعلم الشريعة.

وما جزاء المحسن إلا أن يغدق الله عليه من فضله ومن الإحسان الصبر على البلاء. وقد صبر يوسف على البلاء الذي مر به فكان من المحسنين. وكان جزاؤه هذه المكانة الرفيعة التي وصل إليها في مصر.

ومن هنا قال الحسن: من أحسن عبادة الله سبحانه وتعالى في شبابه آتاه الله تعالى الحكمة في إكتهاله.

وقال بعضهم أيضاً من عمل بما علم يسر الله تعالى له علم ما لم يعلم.

قال تعالى: "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض" فالتمكن يشمل حب سيده له وثقته فيه وجعله المتصرف في بيته. وحسن تصرفه بحيث يعود بالنفع على سيده فيزداد ثقة فيه كل ذلك بالاضافة إلى نسبة كل هذه الأشياء إلى تدبير الله سبحانه وتعالى وتوفيقه.

وتمر السنون ويوسف يتفانى في خدمة سيده فيزداد تقديره له. وفي خدمة زوجته أيضاً فتزداد اعجاباً به وكبر يوسف واكتمل شبابه. لم يعد ذلك الطفل الذي تحبه حب الأم لولدها، ولم تعد نظرتها إليه فيها البراءة السابقة. بل أصبحت تنظر إليه نظرة جديدة، هي كأنثى وهو كرجل، وتسلك هذا الشعور الجديد إلى نفسها. وازداد شيئاً فشيئاً حتى ملك عليها كل حواسها. وكانت هي البائدة بدعوته إلى نفسها. والمرأة لا تكون البائدة إلا أن يفيض بها الشعور وترى أن الطرف الآخر لا يبالي بما تبديه من تلميحات مستترة ظنت أن تعففه عنها هو لشعوره بأنه عبد وهي سيده أو زوجة سيده. فبدأت بالمبالغة في الرقة حتى تزيل هذا الشعور إن كان هو السبب في تمنعه عليها، ثم بدأت تظن أنه قد يكون يخاف أن يفاجئها أحد فيكون فيه سوء العاقبة بالنسبة له. لم يدر

بخلدها أنه لا يمتنع عليها إلا لخوفه من الله - فصرفت الخدم من جناح قصرها .  
وطلبت إليهم أن لا يدخل عليها أحد سوى يوسف فهيأت له كل وسائل الطمأنينة.  
وزيادة في الحيلة غلقت الأبواب ظنت أنها بهذا قد حققت له كل الإطمئنان بأن أحداً  
آخر لن يطلع على ما بينهما، وأن أحداً لن يشي إلى زوجها، ولكن يوسف الصديق  
كان يعلم أن عين الله ساهرة. لا تخفى عليه خافية. وعبر القرآن الكريم عن هذا الموقف  
بقوله تعالى:

" وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ  
رَبِّي أَحْسَنَ مَنَوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " . (23-يوسف).

وقال هَيْتَ لك أي أسرع وتعال أي هلم لك، وقال بعضهم إنها ليست كلمة عربية بل  
كلمة حورانية وقالوا عبرانية، ومعناها حث وإقبال أيضاً، وقرأها آخرون هَيْتَ لك -  
وهَيْتَ لك - بمعنى تهيأت لك. وممن روى عنهم هذه القراءة ابن عباس وعكرمة  
وقتادة.

وكان رد يوسف على هذه الدعوة السافرة والتي تهيأت لها كل الظروف لإتمامها لو لم  
يكن هو الصديق يوسف عليه السلام. إذ استعاذ بالله، فقال معاذ الله هذا هو السبب  
الأول للرفض. خوف الله سبحانه وتعالى. ومن هنا قال بعضهم إن اسم يوسف مشتق  
من فعل ياساب العبري بمعنى يخاف أو خائف فمعنى يوسف خائف الله.

السبب الثاني هو الأمانة فهو أمين على مال سيده وكل ما يخصه استأمنه عليه، فكيف  
لا يكون أميناً على عرضه وشرفه! ثم وضح أسباب حفظه لهذا الرجل إنه سيده ومالكة  
كما أنه أحسن مثواه وأكرمه، إقامة ومعاملة، وكان القوم في ذلك الوقت يطلقون على  
المالك كلمة رب. كما نقول في أيامنا هذه رب العمل.

بعضهم قال إن الضمير في "أنه ربي" راجع إلى الله سبحانه وتعالى. حيث أن الله هو  
الذي هياً له هذا المثوى الحسن عند سيده.

ثم إن يوسف ذكّرها بأنه لو فعل ما تطلب منه لكان ظالماً لسيده، قابل إحسانه بالإساءة إليه وقابل انتمائه له بخيانتته في عرضه وهل بعد ذلك خيانة !! وأنى للظالم أن يفلح؟  
"إنه لا يفلح الظالمون" !

موقف كله شرف وأمانة وخشية من الله تعالى:

"وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" . (24- يوسف).

ولقد قيل في "همت به . وهم بها" أقوال كثيرة.

وفي رأينا أن هذه الجملة من جوامع الكلم أوردها الله سبحانه وتعالى هكذا، مبهمة - ليذهب الناس في تأويلها ككل حسب مراده ومبتغاه ويكون هذا التأويل حجة له أو عليه. فذهب الناس في تأويل معناها مذاهب شتى.

على أن أغلب المفسرين قالوا: إنها هَمَّت هما بالفعل. وهَمَّ هو هَمًّا بالنفس ثم تجلّى له البرهان فتركه.

وحتى الهم بالنفس أنكره البعض إجلالاً لقدر يوسف عليه السلام. ويقول الإمام الفخر الرازي الهم خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم يرى في الصيف الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه. ولكنه يمنعه دينه عنه.

ويمكننا أن نفسر الهم بأنه هو ما يعتور النفس في مثل هذا الموقف. النفس التي تأبى الفعل وهي قادرة عليه. فلو لو تكن هناك مقدرة على الفعل لما كانت مجاهدة للنفس، فلو وضح شيخ هرم - ليس للنساء فيه مأرب - في مثل هذا الموقف - لما كان هناك هم ولا كانت هناك مجاهدة للنفس - ولما اعتبر امتناعه عن الفعل محمداً. ولهذا جاء في الحديث عن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة: شاب دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله.

وهَمَّ يوسف عليه السلام - قد يكون - هو ما اعتور النفس من انفعالات وليس هماً بمعنى الرغبة في الفعل أو الشرع في بعض مقدماته كما ادعى بعض ذوي الخيالات



المریضة - بل هي انفعالات تتولد في النفس تلقائياً لوجود الشخص - على غير ارادته - في موقف هو له رافض وكاره. وقد لا يتعدى الأمر ازدياد ضربات القلب أو تصبب العرق أو التوقف هنيهة للتفكير في المأزق الذي هو فيه وفي كيفية التخلص منه. إذ الرفض معناه إغضاب سيده وهذا يجر أفعالاً انتقامية قد يكون منها السجن أو التعذيب وهنا جاء البرهان من ربه ليشد أزره في هذه المعركة النفسية. ولتأكيد أن أي أذى جسماني يهون من أجل مخافة الله وعدم خيانة سيده في ما ائتمنه عليه.

ولينهي يوسف هذا الموقف استدار مسرعاً في اتجاه الباب ليخرج وهي أسرع أيضاً في اتجاه الباب ل تمنعه من الخروج وهذا هو معنى: فاستبقا الباب.

وكان هو الأسبق في الوصول إلى الباب وظهره إليها ولتمنعه من الخروج جذبته من قميصه فتمزق من الخلف. أو أنها لحقته قبل أن يصل إلى الباب فأمسكت بقميصه من الخلف ولكنه استمر مسرعاً وجذبته فتمزق القميص.

" وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " (25- 29 - يوسف).

تمزق القميص وفتح يوسف الباب وإذا بزوجها لدى الباب قيل ومعه ابن عم لها. وكانت المرأة آنذاك تقول لزوجها سيدي لذلك وصف بأنه سيدها وكانت هي البادئة بالكلام. وهناك احتمالان:

- أن تكون "ما" حرف استفهام، فكأنها تسأل: ما هو جزاء من أراد السوء بأهلك، وتجيب هي على السؤال بأنه ليس له جزاء إلا أن يسجن أو عذاب أليم. من ضرب بالسياط أو غيره أو كأنها تقترح هذا الجزاء.

- أو تكون "ما" حرف نفي. وكأنها تقرر حقيقة معلومة وهي أنه ليس من جزاء لمن أراد السوء إلا أن يسجن أو عذاب ألیم.

دفع يوسف عن نفسه هذه التهمة بقوله إنها هي التي دعتة إلى نفسها ولم يستجب لمطلبها "قال هي راودتني عن نفسي".

"وشهد شاهد من أهلها" قيل رجل حكيم من أهلها، وقيل هو ابن عمها وكان مع زوجها لدى الباب، وقال البعض يجوز أن يكون بعض أهلها وكان معهما في الدار بحيث لم يشعر به فبصر بما جرى بينهما فأغضبه الله تعالى ليوسف فقال الحق. وهذا الافتراض الأخير ليس بصحيح لأنها "غلقت الأبواب" كما أن دليل البراءة لم يكن عن مشاهدة عيان بل عن دليل منطقي، والأغلب أن سيد القصر رأى أن يستشير من كان يرافقه فكان أن وضع القاعدة القانونية التي يُستند إليها في تحقيق الحادث. وهي قاعدة تستند إلى العقل والمنطق، وهي: إن كان القميص قد من الأمام فمعناه أنه هو المتهم وهي التي تدفعه عنها. وأما إن كان القميص قد تمزق من الخلف فمعناه أنه كان مولياً وجهه عنها وهي جذبتة من الخلف. وتم فحص دليل الاتهام، فإذا القميص "قد من دبر" أي قطع من الخلف فظهرت براءة يوسف عليه السلام.

وفور ظهور الحقيقة وكذب الادعاء توجه العزيز إلى زوجته قائلاً لها إن الأمر كله من كيدها وتدبيرها. ولعله لم يشأ أن يوجه الاتهام مباشرة إليها، وخاصة أمام من شهدوا الموقف فعمم الإتهام على النساء عموماً فقال .. إنه من كيدكن .. كما يعتذر رجل عن خطأ طفله وقد آذى طفلاً آخر فيقول: هذا لعب عيال، فيعمم الفعل كأنه يقول هذه طبيعة الأطفال في اللعب. وكان تعميم العزيز للكيد على النساء يحمل معنى أن الكيد من طبيعة النساء عموماً ثم وصف كيدهن بأنه عظيم.

ومن طريف ما قيل في هذا هو أن كيدهن أشد تأثيراً في النفس وقد ينتج عنه ما يورث العار. وأن ربات القصور أكثر تفرغاً لاختلاق الكيادات، وقيل: ولعظم كيد النساء اتخذهن إبليس وسائل لإغواء من صعب عليه اغواءه، ففي الخبر: ما أبس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء. وحكى عن بعض العلماء أنه قال: أنا أخاف من

النساء ما لا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول: "إن كيد الشيطان كان ضعيفاً" وقال للنساء: "إن كيدكن عظيم" . ولا يخفى أن الاستدلال بالآيتين مبني على ظاهر إطلاقهما. فإن ضعف كيد الشيطان إنما هو في مقابلة كيد الله تعالى. وعظم كيدهن إنما هو بالنسبة لكيد الرجال.!

ثم وجه سيد القصر الحديث إلى يوسف قائلاً "أعرض عن هذا" أي اكنم هذا الأمر ولا تتحدث به. لأنه الأليق والأحسن بنا. ولأنه قد ظهر صدقك وبرائك.

ثم وجه الحديث مرة أخرى إلى زوجته وطلب إليها أن تستغفر لذنبتها - الذي هو محاولة إغواء يوسف ثم اتهامه بأنه هو المعتدي - لأنه ظهرت براءته وكانت هي "من الخاطئين" وهنا أيضاً نلاحظ دقة التعبير بكلمة "خاطئ" وليس "مخطئ" فالمخطئ هو الذي يخطئ عن جهل بالأمر. من الفعل أخطأ. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: من اجتهد فأخطأ فله أجر. أما خاطئ فهو الذي يرتكب الفعل وهو عالم بخطئه فهو متعمد الخطأ من فعل خطئ والمعنى أنها كانت تعرف خطأ ما تطلب من يوسف فكانت من الخاطئين.

وقيل إن طلب كتمان الأمر كان من الرجل الحكيم شاهد التحقيق. وقيل إن طلب أن المغفرة تطلب الغفران من زوجها لما دلت عليه الشواهد من همها بخيانتها وقيل أيضاً كان طلباً للمغفرة من الله. إذ أن القوم. ولو أنهم كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعتقدون في إله من ورائها هو الذي يغفر الذنوب أو يؤاخذ بها.

غير أن أنباء هذا الحادث سرعات ما تنتشر إلى الباقيين من أهل القصر. ثم إلى عامة الناس. وخاصة النساء. فهن مولعات بمثل هذه الأخبار والأحاديث ويكثرن من ترديدها وإذا عتها.

قالوا "امرأة العزيز تراود فتاها" وتطلب مواقعه وتتحايل في ذلك لتبلغ مرادها، وجاء الفعل بصيغة المضارع لإظهار كثرة مرادبتها فلم تكن مرة واحدة وانتهت بل مرات متكررة.

وقالوا "فتاها" لأن يوسف كان مملوكاً لزوجها، وقيل إن زوجها قد وهبه لها. وكان قصد النسوة من وصفه بأنه فتاها هو لإظهار مدى الفرق الذي بينهما. فهي سيدة البيت وهو خادم بالبيت. ليظهرن مدى الهوة التي تردت فيها لما بينهما من فروق كبيرة.

كذلك أكثروا من ترديد أنها قد شغفت حباً به وأنها تنازلت عن كبريائها وهي التي بدأتها بالمغازلة وأنه رفض مسايرتها. وفي هذا جرح لكبريائها وأهانة لها. وأكثرن من تناقل الحادثة إمعاناً في التشفي فيها إذ قيل أنها كانت تتبه عليهم بجمالها وسطوة زوجها.

والشغاف حجاب القلب أو هو العشاء الذي يحيط بالقلب ومعنى "شغفها حباً" أي أن حبه قد تغلغل في قلبها وملاه حتى وصل إلى شغافه وقال الضحاك عن ابن عباس. الشغف هو الحب القاتل ويقال شق حبه شغاف قلبها.

وأكثرت نسوة المدينة من القيل والقال واتهمنها بالضلال والنزق إذ هي تتمتع بثناء زوجها ومركزه الاجتماعي فماذا تريد بعد ذلك!

عبر القرآن الكريم عن هذا كله بإيجاز:

" وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " (30- يوسف).

وتتاهى الكلام إلى امرأة العزيز وما تلوكة الألسن في سلوكها وما يقال في الخفاء عنها. وأرادت أن توقفهن عند حد. وذلك يكون بأحد أمرين: إما إنكار من جانبها. وهذا مستحيل بعد أن شهد شاهد من أهلها على الواقعة. فلا سبيل للإنكار والحل الثاني هو أن تجعلهن يشتركن معها في الشغف بيوسف، حتى يكون - كما نقول في عصرنا - الكل في الهم سواء. فيشعرن أن هذا الأمر خارج عن إرادتها فيلتمسن لها العذر وهذا ما أنتوته.

فكان تدبير امرأة العزيز أن اعتدت لهن المقاعد المريحة ذات المساند والوسائد وقدمت لهن طعاماً يقطع بالسكين "وأنت كل واحدة منهن سكيناً".

كانت نساء المدينة لم ترين يوسف من قبل، فقد كان يعمل في القصر وحديقته الواسعة. أما طلبات القصر من السوق فكان يكلف بها العبيد أو الجواري. كانت النسوة قد سمعن عن يوسف وبهاء طلعه. كن يتخيلنه فتى مثل كل الفتيان ولكنه أكثر وسامة وشباباً.

وأثناء الأكل طلبت من يوسف أن يخرج عليهن فلما رأيته أعظمن شأنه وأجللن قدره وبهرهن جماله وفقدن التحكم في أنفسهن وحركات أيديهن فقطعت السكاكين أيديهن.

في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة. قال: فإذا هو قد أعطى شطر الحسن. وقال حمادة بن سلمة عن ثابت عن أنس. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطى يوسف وأمه شطر الحسن. ورواه الحسن البصري مرسلاً: أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا وأعطى الناس ثلثين، أو قال أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث.

قلنا إن النسوة لما رأين يوسف هالهن جمال صورته وألهاهن عما يقطعنه من الطعام فقطعن أيديهن وقلن حاشا لله أي معاذ الله ليس هذا بشر فلم يعهدن مثل هذا الجمال في بشر.

ويستحيل أن يكون مثل هذا الجمال في بشر. فهو بلا جدال ملك لأن الملائكة هم الذين يبلغون أقصى مراتب الحسن والكمال طبعاً، وصورة هذا إذا أمكننا أن نتصور الملائكة في صورة بشرية. ولم يكتفين بوصفه أنه ملك بل زدن أيضاً بقولهن "ملك كريم" زيادة ومبالغة في حسنه.

وكان تعبير القرآن الكريم عن هذا المشهد هو:

" فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ". (31 - يوسف).

كل هذا ما تريده امرأة العزيز. إذ كان تصرفهن هذا اعترافاً منهن بقوة جاذبيته وكأنهن قلن لها: ما نرى عليه من لوم بعد هذا الذي رأينا من حسنه وهذا أعطاها الجرأة على الاعتراف الصريح لهن، وكأنها تقول على الملأ، بأنه يستحق أن يحب لجماله. وأنها فعلاً قد شغفت به حباً وقد غيرتني في الافتتان به، ولمتني أن أحبته وها أنتن قد أصابكن منه من مجرد رؤيته ما جعلكن تقطعن أيديكن. فما بالكن وهو أما ناظري ليل نهار، ومن طبائع المرأة أنها قد تعترف لإحدى صديقاتها سراً بحبها لشخص ما. أما الاعتراف هكذا علانية فهو خروج عن المألوف ويدل على أن الإخفاء لم يعد يجدي، وخاصة أنها اعترفت بأنها هي التي بدأت وراودته عن نفسه. واعترفت كذلك بأنه قد رفض مبادرتها "فاستعصم" أي زاد في طلب العصمة وتمسك بها.

من المرجح أن يوسف عليه السلام وقت إدلائها بهذا التصريح لم يكن موجوداً في قاعة الطعام – إذ لا يسر المرأة أن تعترف بانضمامها أمام من تحب، ثم أعريت عن تصميمها على نوال ما تريد منه. وأخبرت أنه إذا لم يرضخ لمطالبها ويستجيب لما أرادت سيكون مصيره السجن. ويكون من الصاغرين الأذلاء المهانين. ولعلها بهذا التصريح في حضور النسوة. أرادت أن تعبر عن مزيد غيظها من امتناعه، ولتعلن أنها بعد الآن ستكون أكثر جرأة وأكثر تصميمًا في طلب مرادها.

ولعل النسوة من جانبيهن طمعن أيضاً في ما كانت تطمع فيه امرأة العزيز. كان يوسف بحكم موقعه. يدور على النسوة لتقديم ما يطلبن من طعام وشراب. وبعضهن كن ذات جمال يضاهي جمال امرأة العزيز. ولكنهن كن أكثر خصافة، فأدركن أن مثل هذا الأمر لا ينال بتهديد أو بوعيد ولعله أثناء تقديمه الطعام والشراب لهن كانت إحداهن تهمس في أذنه بدعوة لبيتها وتطمئنه من عدم وجود زوج غيور أو لغياب الزوج لكونه قائد فرقة تحمي حدود البلاد، وغير ذلك من الاغراءات التي كانت كفيلة بإدارة رأس أي شاب في مثل موقعه – إلا أنه هو – يوسف الصديق !! وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أن كل واحدة منهن أرسلت إليه سراً تسأله الزيارة.

وشعر أن الضغوط تزداد عليه من كل جانب.

وكان الملجأ إلى الله فالتجأ إليه.

وقال إن السجن كمكان أحب إليه مما كن يدعونه إليه وطلب من الله تثبيته على العصمة وإلا فإنه قد يضعف عن مقاومة إغراءاتهم ويميل إلى تنفيذ مطالبهن ويعمل عمل الجاهلين السفهاء بمقتضى قوة الطبيعة البشرية التي قد تغلب طاقته على المدافعة وهذا فزع منه عليه السلام إلى جانب الله تعالى جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في اللجوء إلى الله تعالى في الملمات. وكان قوله "وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن" كقول المستغيث: أدركني وإلا هلك، فكما يكره المرء الهلاك كذلك كان يوسف عليه السلام يكره ما يدعونه إليه ولا يريد. ويريد معونة الله تعالى وموازرته في صرف مكايدهن عنه وكان أن استجاب الله دعاءه وثبته على العصمة والعفة.

" قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ". (32 - 34 - يوسف).

وانتشر خبر الوليمة التي أقامتها امرأة العزيز لنسوة المدينة لقد أرادت أن يلتصق لها العذر فيما فعلت فيكف عن أقاويلهن - ولكن ما حدث كان العكس. إذ ازداد الهمس. بل لم يعد همساً، وأصبح أقوالاً صريحة علنية، ووصلت الأقاويل إلى سمع العزيز وأصحابه. مما فيه إساءة لهم. كان العزيز قد طلب من يوسف ألا يخوض في هذا الحديث حينما ظهرت براءته. وامتثل يوسف للأمر. ولكن ها هي امرأته بوليمتها قد زادت الأمر سوءاً. وساعدت على انتشار القصة وذيوعها وكان لا بد من أن يتخذ قراراً يُخرس الألسنة. وكان القرار هو وضع يوسف في السجن، كأنه قد تم التحقيق وأنه ثبت أنه هو المذنب، وبذلك تبرأ ساحة زوجته وبيراً شرفه، مع أنهم رأوا جميع البراهين والآيات التي تدل على براءة يوسف.

" ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ " (35- يوسف).

بعضهم قال الحين هنا خمس سنوات، وقيل بل سبع. وقال مقاتل إنه عليه السلام حُبس اثنتي عشرة سنة. كان هدف العزيز أن يبدو الأمر كأن يوسف هو المعتدي وبذلك استحق السجن فتموت هذه الاشاعات. ومن جانب امرأة العزيز لعلها كانت تأمل أن السجن سيذهب لها فيكون بعد ذلك أقرب إلى الاستجابة لمطلبها.

وبعد فترة وجيزة من دخول يوسف السجن، دخل فتیان. غلامان كانا للملك الريان بن الوليد - واسمه في كتب التاريخ "خيان" - أحدهما كان خبازه وصاحب طعامه، والآخر ساقيه وصاحب شربه. وكان الملك قد غضب عليهما لتورطهما في مؤامرة لوضع السم له. قيل إن جماعة من أشرف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله، في هذا الوقت كان الهكسوس يحكمون مصر، وكان بعض أمراء مصر يديرون الأمور في مقاطعاتهم إلا أنها يأتَمرون بأمر ملك الهكسوس ومن المحتمل أن بعضهم كان يطمع في اغتيال الملك ليتخلصوا من حكم الغزاة.

قالوا إن جماعة من هؤلاء الأمراء استمالوا الخباز والساقي وقدموا لهما المال على أن يضعا السم في طعام الملك وشرابه، فأجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم. فرجع عن ذلك دون أن يخبر صاحبه، وقبل الخباز الرشوة ووضع السم في طعام الملك.

فلما حضرا بين يدي الملك ليقدما الطعام والشراب. صاح الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم فقال الخباز لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم. فأمر الملك الساقي بالشراب مما قدم فشرب فلم يضره وقال الملك للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم منه دابة فهلك، فأمر الملك بحبسهما هما الاثنتين لحين التحقيق في المؤامرة والوصول إلى حكم بشأنهما ودخلا السجن وهناك لقي يوسف الصديق.

تقول التوراة (إصحاح 40 تكوين) وحلما كلاهما حلماً في ليلة واحدة، كل واحد حلمه بحسب تعبير حلمه. ساقى ملك مصر وخبازه المحبوسات في بيت السجن. فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما فإذا هما مغتمان فسألهما لماذا وجهكما مكدان اليوم؟ فقالا له حلمنا حلماً وليس من يعبره، فقال لهما يوسف أليست الله التعابير؟ قصا علي فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له: كنت في حلمي وإذا كرمة أمامي،



وفي الكرمة ثلاثة قضبان. وهي إذا أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً. وكانت كأس فرعون في يدي، فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون فأعطيت الكأس في يد فرعون. فقال له يوسف هذا تعبيره، الثلاثة قضبان هي ثلاثة أيام. في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك فتعطى كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع إلي احساناً وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبر جيداً، قال ليوسف: كنت أنا أيضاً في حلمي وإذا ثلاثة سلال على رأسي . وفي السلال الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخبز والطيور تأكل من السلال عن رأسي فأجاب يوسف قال هذا تعبيره الثلاثة سلال هي ثلاثة أيام في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحملك عنك.

فحدث في اليوم الثالث. يوم ميلاد فرعون. أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة. ورأس رئيس الخبازين بين عبيده ورد رئيس السقاة إلى سقيه فأعطى الكأس في يد فرعون. وأما رئيس الخبازين فعلقه كما عبر لهما يوسف، ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه.

يذكر القرآن الكريم هذا الموقف في إيجاز وبلاغة وذلك أن يوسف عليه السلام قد انتهر فرصة وجوده في السجن فدعا صاحبيه إلى دين الله. لعلمه أن الإنسان في وقت الشدة يتلمس قوة عليا يلجأ إليها لتعينه في محنته والسجن هو ضيق وشدة. ويكون المرء في شدته أقرب إلى الاستجابة لما يُلقى إليه من أقوال. ولنز قول القرآن الكريم في ذلك:

" وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ  
 اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ  
 اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40) يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ  
 فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ  
 أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ "

(26 - 42 يوسف).

من الآيات السابقة وعددها 7 آيات نجد قصة الحلم في الآية 36 وتفسيره في الآية 41  
 أما باقي الآيات فهي دعوة إلى التوحيد وتسفيه لعبادة الأصنام. وهذا شأن الأنبياء  
 والمرسلين لا يجدون فرصة للدعوة إلى الله إلا اقتنصوها.

وكان حلم الفتیان اللذين دخلا السجن معه فرصة لذلك، فهما مع باقي المساجين قد رأوا  
 آيات الصلاح وحسن الخلق على يوسف فلجأ إليه، حيث أن من صفات الرجال  
 الصالحين أنهم قادرون على تفسير الأحلام والرؤى.

أراد يوسف أن يضرب لهم مثلاً عملياً على قدرته وصدق تنبؤاته ليكونا أكثر اقتناعاً  
 وأكثر تصديقاً لما سيقوله لهما. فأخبرهما أنه قبل أن يأتيهما الطعام الذي يوزع عليهم  
 في السجن سيخبرهم بماهيته ونوعه. ليبين لهم أن عنده نوعاً من المكاشفة والإخبار  
 بالغيب، وكونه من المرضى عنهم من الإله.

ولما تأكد لهم صدق ما يقول، لعلهما سألاه كيف تأتي له ذلك وهو ليس من الكهنة ولا  
 من المنجمين، وهنا أدرك يوسف أن قلوبهم قد أصبحت متشوقة لما سيقوله. وستكون  
 عقولهم أوعى لما يلقيه إليهم، فقال لهم إن هذا العلم مما علمه الله "ذلك مما علمني  
 ربي" ولا شك أن كلمة "ربي" كان لها وقع غريب على أسماعهم ولعلهم تساءلوا: وهل  
 لك رباً غير ربنا أي الملك؟ أو لعله لم يترك لهم وقتاً ليتساءلوا بهذا السؤال، فعاجلهم  
 بالإجابة: وقال لهم إنه ترك ملة قومهم لأنهم لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالحياة الآخرة:

"إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ" ولعلمهم أيضاً تساءلوا: إذا كنت تركت ملة القوم ودينهم فأبي دين تعبد؟ أو لعله لم يترك لهم أيضاً الفرصة ليسألوا هذا السؤال فعاجلهم بالإجابة: وقال إنه اتبع الدين الحنيف ملة آبائه وأجداده إبراهيم واسحاق ويعقوب. الأنبياء الكرام. وأخبرهم أن هذا الإيمان بالله وعدم الاشرار هو من فضل الله عليه وعلى آباءه وأجداده. فضل علينا بالذات لأن الله اصطفانا بالنبوة، وفضلنا على الناس إذ كلفنا أن نبلغ عنه فكر التوحيد والدعوة إلى عبادته وحده، مما فيه خير الناس. وكان الواجب على الناس أن يشكروا الله على ذلك، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

ثم أراد أن يبين لهم أن حاله مثل حالهم - هو مسجون مثلهم - فقال "يا صاحبي السجن" ومراده أن السجن ضيق وشدة، وفي وقت الضيق لا يقول المرء إلا بما هو حق. ثم سألهم سؤال إقرار سؤالاً بحيث تكون الإجابة نابعة من أنفسهم وإقراراً لما يقول، فسألهم "أرأب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟" وبالطبع ستكون الإجابة: أن إلهاً وحداً خير. فالآلهة المتعددون المتفرقون سيكون لكل واحد منهم إرادة ومشية وكل منهم يريد من الناس أن يعبدوه هو لا غيره. وستعارض الإرادات وفي هذا خراب للعالم. وبالطبع يكون الجواب أن الإله الواحد أقدر على تنفيذ مراده وكل المخلوقات خاضعة ومقهورة لإرادته، ثم فتح أعينهم على الحقيقة التي غابت عنهم. وهي أن هذه الآلهة ما هي إلا تماثيل صنعوها بأيديهم وأعطوها هم وآباءهم أسماءها، وليس لها من قوة ولا سلطان، أما الحكم كله فهو لله. وقد أمر الله أن لا نعبد أحداً سواه، وذلك هو الدين القويم والصراط المستقيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة وهذه البديهة.

"مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (40 يوسف).

وهنا نتوقف قليلاً لنتساءل: هل كان يوسف مكلفاً بدعوة المصريين كلهم لنبد عباداة الأصنام ودعوتهم إلى عباداة الله وحده؟ وهل كان عليه - في المستقبل حينما آل إليه

أمر مصر - أن يدخل إلى معابدهم ويكسر الأصنام كما فعل جده إبراهيم عليه السلام؟ بالطبع لا.

فيوسف النبي - عليه السلام - يدعو إلى الله في عشيرته ومحيطه وينتهاز الفرصة الملائمة لذلك ويكون أحد وسائله في الدعوة إلى الله أن يكون قدوة حسنة في خلقه ومعاملاته. فكان مثلاً للغة والطهارة والصلاح، مثلاً محبباً إلى النفوس يُقتدى به، كما كانت له مهمة أخرى خطيرة وهي أن يعين مصر وأهلها على اجتياز محنة السنوات السبع العجاف.

نعود إلى يوسف عليه السلام في السجن، وقد انتهى من إعلانه عن فكر التوحيد الذي يدين به أقبل على صاحبيه بما يودان سماعه من تفسير حلميهما، قال إن الأول سيفرج عنه ويعود لوظيفته التي كان عليها قبل سجنه ساقياً للملك، ويسقي سيده الخمر، وأما الآخر فسيأمر الملك بقتله وصلبه وستأكل الطير رأسه ولحمه.

ويقال إنهما قالاً له: إنما كنا نلعب ولم نر شيئاً. فقال لهما: "قضى الأمر الذي فيه تستفتيان" لقد قضى الأمر سواء كان حلماً رأيتماه أم لم تريا شيئاً ولكن تستفهمان عن معنى هذه الحالة فإن ما أخبرتكما به هو أمر لا بد حاصل.

بعد أن أتم تفسير الحلم لهما، قال للساقى وهو الذي أول حلمه بأنه سينجو ويعود إلى وظيفته ساقياً للملك، قال له اذكرني عند سيدك وربك أي الملك.

" وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ " (42 - يوسف).

وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً وقال الضحاك: أربعة عشرة سنة، وعن ابن عباس: اثنتا عشرة. سنة ويمكن استبعاد القولين الأخيرين لأن البضع هو ما بين الثلاث إلى التسع والأرجح هو أنه مكث في السجن سبع سنين.

وروى عن أنس خبر يقول: أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام: من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا رب. قال فمن استنقذك من الجب إذ ألقيت في القف؟ قال: أنت يا رب قال فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك؟ قال: أنت يا رب قال: فما بالك نسيتني وذكرت آدمياً قال: يا رب كلمة تكلم بها لساني، قال وعزتي لأدخلنك في السجن بضع سنين.

والأرجح أن الذي نسي هو ساقى الملك ذلك أنه نسي يوسف تماماً، وبسبب ذلك النسيان بقي يوسف في السجن بضع سنين، والدليل على ذلك أن القرآن بعد ذلك قال: "وقال الذي نجاح منهما. وادكر بعد أمه". (من الآية 45 - يوسف).

ولو تصورنا أن الساقى لم ينسَ وذكر أمر يوسف للملك، وأن الملك أمر بالإفراج عنه ضمن من كان يشملهم العفو الملكي في الأعياد، لو حدث هذا، لعاد يوسف إلى بيت العزيز كما كان، ولما تغير شيء في حياته بعد ذلك فتأخير خروجه من السجن كان بتدبير من الله ولحكمة إلهية.

فقد حلم الملك حلمًا حار في تفسيره، رأى أنه على شاطئ النهر وخرجت من النهر سبع بقرات سمان، ثم خرجت وراءهن سبع بقرات هزيلة عجاف، والتهمت البقرات الهزيلة البقرات السمان، ثم رأى سبع سنبلات خضر تنمو على شاطئ النهر ثم تغيب ويبقى مكانها سبع سنبلات جافة يابسة.

استيقظ الملك من نومه فزعاً شاعراً بانقباض واستدعى العرافين والكهنة وكبير وزراءه وقص عليهم رؤياه وطلب منهم تفسيرها إن كان في مقدورهم، ولكنهم عجزوا عن تفسيرها، وقالوا أضغاث أحلام أو تخاليط وأباطيل، والضغث هو ما جمع من أخلاط النباتات. أي أنها لا تعبر عن شيء حقيقي، ثم اعترفوا بعدم علمهم بتأويل الأحلام.

والحلم والرؤيا شيء واحد، إلا أنه جرى العرف على أن الرؤيا تعرف على ما يكون خير أما الحلم فما هو غير ذلك.

" وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ". (43 - 44 يوسف).

وعبر القرآن الكريم عن هذا كله في قوله تعالى:

" وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " (45 - 49 يوسف).

من أمثلة الإيجاز في هذه الآيات كلمة "أرسلون" ففيها معنى طلب الإذن بالإرسال ولا داعي لذكر أن الإرسال سيكون إلى السجن لأن المعروف سلفاً أن يوسف في السجن، ويُفهم أنه قد سُمح له بدخول السجن ومقابلة يوسف. لأن الكلمة التالية موجهة إلى يوسف.

فسر يوسف عليه السلام الحلم للساقى فقال له: عليكم أن تزرعوا سبع سنين دأباً - أي بكد ومداومة على العمل. وستعطىكم الأرض غلة طيبة إذ هي سنين سمان، وما تحصدونه فدعوه في سنبله واخترنوا أغلبه، وبقاؤه في سنبله يحميه من السوس إلا قليلاً تطحنونه وتأكلون منه، وسيأتي بعد ذلك سبع سنين جفاف وقحط ولا تجود الأرض بغله. وستأكلون أثناءها ما اخترنتموه وتركتموه في سنبله، وهذا ما قدمتم لهن - ولكن لا يجب أن تأكلوا ما اخترنتموه، بل يجب أن تحتجزوا جزءاً صغيراً "تحصنون" أي تحتفظونه وتحافظون عليه ليكون بذوراً وتقاوى للزراعة فيما بعد سنوات الجذب، ثم يأتي بعد ذلك عام يكون فيه الغوث والمطر الغزير ويأتي الفرج، وتتبت الحبوب والأشجار التي تعصرون ثمارها مثل العنب والزيتون والسّمسم وغيرها. وبعضهم قرأها تُعصرون أو تعصرون والعصر هنا من أعصرت السحابة أي حان وقت عصر الرياح لها لتمطر

فيغاث الناس ويعصرون، وقيل إن هذا العام الأخير لم يكن في الحلم ما يشير إليه، بل هو علم آتاه الله يوسف، ووحياً أوحاه إليه.

هنا فقرة ناقصة في ص 284 ما بين العاقتين !

وكما نرى فقد جاء السرد القرآني للقصة مختصراً، وفي نفس الوقت يصحح ما أغفله كاتبو التوراة:

1- يوضح القرآن أن الذي قص الحلم على يوسف هو الساقى، وحدث ذلك في السجن، وعبر يوسف الحلم للساقى وأوضح له ما يجب عمله، وعاد الساقى إلى الملك وأخبره بما قال يوسف في تفسير الحلم. وبالاحتياطات التي تتخذ لتلافي آثار الجذب. فأعجب الملك بهذا التفسير الذي يدل على بعد نظر وحكمة، فأمر بإحضار يوسف من السجن لمقابلته.

كاتبو التوراة جعلوا الساقى يستدعي يوسف من السجن فيخرج يوسف ويقص الملك بنفسه الحلم على يوسف ويسمع التفسير من يوسف.

2- يوضح القرآن بجلاء أن يوسف لم يرض أن يخرج من السجن دون أن تظهر براءته كاملة من التهمة التي ألصقوها به وزجوه في السجن ظلماً، في حين لم يركز كاتبو التوراة على تبرئته، بل جعلوه بمجرد أن يتسديعه الملك يسرع بالخروج من السجن.

ونستكمل القصة ذلك أن الملك لما سمع تفسير الحلم الذي أدلى به يوسف إلى الساقى أعجب بالتفسير إذ هو ينبئ بما سيحدث في المستقبل، من مجاعة أرض مصر. ويوصي بما يجب اتخاذه لتخفيف وطأتها، كذلك أعجب الملك بأن يوسف لم يشترط مثلاً إخراجه من السجن أولاً. مقابل تفسيره للحلم. ولو فعل فلا شك أن الملك كان سيجيبه إلى طلبه. ولكنه رآه قد أدلى طواعية بتفسير الحلم للساقى، مما يدل على كرم أخلاق وحرص على المصلحة العامة، وليس عن رغبة في الحصول على منفعة مقابلة.

" وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ " (50 - 54 - يوسف).

أمر الملك بأن يأتوا بيوسف من السجن وهذه المرة لم يكن الساقى هو الذي ذهب ليوسف في السجن، بل كان رسولاً خاصاً موفداً من قبل الملك وأخبر يوسف أنه سيخرج من السجن لأن الملك طلبه، كل هذا تضمنه لفظ "فلما جاءه الرسول".

لم يرض يوسف أن يخرج من السجن خروجاً مبتوراً، بل أراد أن يكون خروجه مع تبرئته تبرئة كاملة، لذلك فقد طلب من الرسول أن يرجع إلى الملك ويبلغه - كما نقول في عصرنا - أن يعيد التحقيق في التهمة التي أدخل السجن بسببها، وسماع شهادة الشهود، وهن النسوة اللاتي حضرن الوليمة وقطعن أيديهن وفي قوله تعالى: "إن ربي بكيدهن عليم" قال الألوسي: جاء في الكشاف أنه عليه السلام أراد بهذا أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله تعالى. أو استشهد بعلم الله على أنهم كدن له وأنه بريء مما اتهم به - أو أراد الوعيد لهم، أي أن الله عليم بكيدهم ومجازيهم عليه، ويحتمل أيضاً أنه كان يقصد سيده أي العزيز وقال عنه قبل ذلك: إنه ربي أحسن مثوأي، وخاصة أن العزيز بنفسه قال من قبل: "إنه من كيدكن. إن كيدكن عظيم". وكأن يوسف بهذا القول يطلب سماع شهادة سيده وهو العزيز لأنه عالم بمقدار الكيد الذي صنعتها امرأته وهو عالم بحقيقة الأمر.

وقد أخرج غير واحد عن ابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان. ولو كنت مكانه ما أجبته حتى اشترطت أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين



أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت  
الاجابة، وبادرتهم الباب، ولما ابتغيت العذر، أن كان حليماً ذا أناة.

وهكذا أعاد الملك التحقيق بنفسه في الأمر واستدعى الشهود وهن النسوة وبالطبع كان  
لا بد من استدعاء امرأة العزيز صاحبة الوليمة وما كانت لتحضر وحدها بل معها  
زوجها إذ أن يوسف قد استشهد بأنه يعلم الكيد من أوله.

وبدأت التحقيق بأن سأل النسوة عن شأنهن مع يوسف فقد نمت إليه أن كل واحدة منهن  
- يوم الوليمة - كانت تدعوه إلى بيتها - فأراد أن يستوثق هل لبي دعوى إحداهن "ما  
خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه" وكان جوابهن حاش لله: تنزيهاً له وتعجباً من عفته  
عليه السلام وفي هذا نفي لأي ميل منه نحوهن أو اجابه دعواتهن ثم بالغن في نفي أي  
سوء من جانبه، ولا حتى أية مقالة سوء عنه "ما علمنا عليه من سوء" كان في هذه  
الاجابة تبرئة ليوسف عليه السلام من الاستجابة لمرادة النسوة. ولكن بقي الطرف  
الأهم وهو امرأة العزيز. ولا بد أن الملك قد توجه إليها بنفس السؤال. ولعلها خشيت إن  
قالت غير الحقيقة أن تقوم النسوة بتكذيبها. فهي قد اعترفت أمامهن - يوم الوليمة -  
بأنها قد راودت يوسف عن نفسه فاستعصم. بل وهددت أنه إذا لم يرضخ لمطلبها  
سيكون مصيره السجن، وأسقط في يدها، فلم تملك إلا الاعتراف بالحقيقة، فبادرت قائلة:  
الآن ظهر الحق واضحاً، وظهرت حصة الحق من حصة الباطل "الآن حصص  
الحق" أو من حصص البعير إذا ألقى ما على ظهره ليُنَاخ ويستقر فيكون معناها الآن  
استقر الحق أي وضح الحق تماماً، واعترفت بأنها هي التي راودته عن نفسه وأنه كان  
صادقاً حينما قال: هي راودتني عن نفسها فقالت: "وإنه لمن الصادقين".

وأكملت امرأة العزيز كلامها في المجلس ولعلها توجه الكلام إلى زوجها، لتخبره أنها لم  
تخنه بالغيب من وراء ظهره، وقد ظهر الحق واضحاً لأن الله لا يخفي كيد الخائنين،  
وبهذا أبرأت ساحة زوجها مما شابها، وكان بعض القوم قد طعنوه في شرفه بهذه  
الأراجيف وشكوا في صلاحيته لمنصبه بهذا الاتهام الذي يحوم حول بيته وشرفه.

وتلك هي الحقيقة فقد كان يوسف في السجن متمسكاً بالأمر لا يخرج منه إلا بعد أن ينتهي التحقيق وتظهر براءته واضحة ناصعة.

وهكذا كان كلامها لتطمئن زوجها أنها لم تخنه بالغيب، وأن الأمر لا يعدو كونه وسوسة النفس انقادت لها. والنفس أمارة بالسوء وهي لا تبرئ نفسها مما زينته لها (وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ).

انتهى التحقيق وتأكد الملك أن يوسف برئ من أي تهمة، وتأكد له أن وضعه في السجن كان ظملاً إذ لمس الملك مدى أمانته والحفاظ على شرف سيده مع توافر كل الظروف التي كانت تغريه بغير ذلك، تأكد الملك من حسن خلقه وأمانته، وأكبر فيه عدم ارتضائه أن يكون خروجه من السجن قبل أن تظهر براءته كاملة، لهذا رأى الملك أن الأجدر أن يكون مثل هذا الشخص من خاصته هو ومن أهل مشورته.

"قال الملك انتوني به استخلصه لنفسي" والمعنى أن الملك أرسل رسولاً إلى يوسف، ومعه الإجابة على سؤال يوسف عندما قال "ارجع إلى ربك فاسأله ... " وأخبر الرسول يوسف أن الملك حقق في الأمر بنفسه وظهرت براءته وأن الملك يريد أن يكون من خاصته حينئذ - وليس قبله - خرج يوسف من السجن، وقابل الملك، ولما كلمه الملك ازداد اقتناعاً برجاحة عقله، وحسن خلقه. قال له: إنك منذ اليوم تعمل لدينا، ولك مكانة عالية وسلطة وموضع مكين أمين. آمن من كل مكروه، أو مؤتمن على كل شيء.

"فلما كلمه. قال إنك اليوم لدينا مكين أمين". ويقال إن الملك قال له: إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فحكاها له طبق ما رواها سابقاً فأجلسه الملك على السرير إلى جواره وفوض إليه أمر كل شيء في مصر.

تقول التوراة (إصحاح 41 تكوين) إن يوسف لما فسر الحلم للملك وأوضح له ما يجب إتخاذ من إجراءات لمعالجة آثار المجاعة التي ستحدث:

فحسن الكلام في عيني فرعون وفي عيون جميع عبيده، فقال فرعون لعبيده وهل نجد مثل هذا. رجلاً فيه روح الله. ثم قال فرعون ليوسف: بعد ما أعلمك الله كل هذا ليس

بصير وحكيم مثلك، أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبي، إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك، ثم قال فرعون لـيوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر. وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف، وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه (وهذه كانت الملابس الرسمية التي يلبسها عظماء البلاد) وأركبه في مركبته الثانية. ونادوا أمامه واركعوا (تحية له). وجعله على كل أرض مصر ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيح (ومعناها يتكلم من الله) وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون زوجة.

وهكذا قُدر ليوسف ان يرتفع من رق العبودية إلى نائب الملك والمتصرف في كل شئون مصر

" وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ". (54 - 57 - يوسف).

وهكذا توطدت مكانة يوسف عليه السلام في مصر .إذا أصبح نائب الملك يتصرف في جميع الأمور كما يشاء وينزل في أي مكان من أرض مصر و"يتبأ منها حيث يشاء" .وكان هذا عطاء ورحمة من الله تعالى. لأنه كان تقياً محسناً. والله لا يضيع أجر المحسنين. هذا جزاؤهم في الدنيا. ولهم جزاء آخر في الآخرة أكبر وأكثر خيراً، جزاء لهم بايمانهم وتقواهم.

" نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ " (56- 57 - يوسف).

سبق أن ذكرنا أن فرعون غير اسم يوسف إلى صفنات فعنيح وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أوف زوجة. وتستمر التوراة قائلة: وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتى سنى الجوع ودعا يوسف اسم البكر منسى قائلاً: لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت

أبى، ودعا الثاني أفرايم لأن الله جعلني مثمراً في أرض مذلتي، وكتب التفسير الإسلامية تذكر اسماءهم ميثاً وأفرايتم.

تقول التوراة: وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر. فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز في كل أرض مصر، ولكن الأرجح أنه قد بلغ من العمر 39 سنة وليس ثلاثين.

### مجيء إخوة يوسف:

بدأت السنوات السبع السمان وكانت الأرض تعطي غلة كثيرة ومياه النيل متوافرة والفيضان يأتي غزيراً. وكل عود من نبات القمح وغيره يأتي بسبع سنبلات ممتلئة بالحبوب، وأمر يوسف عليه السلام ببناء المخازن في كل أنحاء مصر وعين لها حراساً وأمناء وأمر بوضع أغلب المحصول في سنبله في المخازن إلا القليل اللازم للأكل.

ومضت سنوات الرخاء السبع. وبدأت السنون العجاف وقلت الأمطار أو امتنعت كلية - وجاء الفيضان منخفضاً جداً. وبالكاد تكفي مياهه للشرب. واجتاح الجفاف أرض مصر. وشمل أيضاً أرض كنعان (فلسطين) والشام وعمت المجاعة جميع بلاد الشرق الأدنى. وسمع الناس في كل المنطقة أن بمصر وزيراً تتبأ بالمجاعة واحتاط للأمر فاخترن الحبوب، وتوافد الناس من البلاد المجاورة على مصر ليحصلوا على الغذاء.

وجاء إخوة يوسف، ودخلوا عليه فعرفهم، فإن أحوالهم وهيئتهم لم تتغير كثيراً عما كانت عليه منذ أنزلوه في البئر.

أما هم لم يعرفوه، لأنه لم يدر في خلداهم أنه لا يزال حياً. فإن كان قد بقي في البئر فلا بد أنه قد هلك، وإن كانوا أخرجوه وباعوه إلى قافلة المديانيين أو أن المديانيين هم الذين أخرجوه من البئر، فلا بد أنهم أخذوه معهم إلى أرض مدين واستقر هناك كعبد في بيت أحد سادتها. ولم يخطر ببالهم أن المديانيين قد باعوه لقافلة الاسماعيليين المتوجهة إلى مصر وأن عزيز مصر اشتراه - ثم مكن الله له على النحو الذي رأيناه - حتى أصبح أهم رجل في مصر ! فمن الطبيعي أنهم لم يتعرفوا عليه.

وأكرم يوسف وفادتهم وسألهم عن حالهم وعددهم متظاهراً بأنه يريد معرفة ما يَكفِيهم من الحبوب. وعلم منهم أن والدهم (يعقوب) بخير وأن لهم أخاً صغيراً لم يحضر معهم لحب والده له ولخوفه عليه. وأعطاهم يوسف ما يلزم من الحبوب وطلب منهم أن يحضروا معهم في المرة القادمة أخاهم الصغير ليتأكد من صدقهم. وإلا لو حضروا بدونه فلن يكون لهم الكيل ولن يأخذوا حبوباً. فوعده أن يحاولوا اقناع أبيهم حتى يرسل أخاهم معهم المرة القادمة، ثم إنه أمر عماله بأن يضعوا في رحال إخوته - الأواني الفضية وقطع الفضة التي دفعوها ثمناً للقمح الذي أخذوه فوضعوها دون أن يشعروهم بذلك.

ولعل يوسف الصديق تخرج من أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوا بضاعتهم في متاعهم، ظناً منهم أنها قد وضعت خطأ، فيعودوا لردّها، أو أن يوسف عليه السلام خشي أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى فلا يرجعون لأخذ الحبوب مرة ثانية.

وفي طلبه أن يحضروا أخاهم الصغير في المرة القادمة قالوا: إنه سألوه حملاً زائداً عن عددهم لبنيامين، فأعطاهم ذلك وشرط عليهم أن يأتوا به مظهراً لهم أنه يريد أن يعلم صدقهم.

" وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (58 - 62 يوسف).

كان هذا مسلك يوسف الصديق مع إخوته فقد أحسن إليهم ورد ثمن ما اشتروه من الحبوب دون أن يشعروهم بذلك، وبلطف طلب منهم أن يحضروا أخاه في المرة القادمة.

ويتجلى إعجاز القرآن الكريم في ذكر نصائح يعقوب لبنيه في كيفية دخول المدينة والحرص حتى لا يصيبهم مكروه:

" فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ " . (63 - 66 يوسف).

ونلاحظ أنهم قالوا لأبيهم عن بنيامين:

"فأرسل معنا أخانا نكتل، وإنا له لحافظون".

وهو نفس ما قالوه من قبل عند أخذهم ليوسف:

"أرسله معنا غداً يرتع ويلعب، وإنا له لحافظون".

ولعل هذا ما جعل يعقوب عليه السلام يتوجس خيفة من أن يفقد بنيامين كما فقد يوسف من قبل. فقال:

"هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل".

أنه هذه المرة أوكّل الحفظ إلى الله سبحانه وتعالى، وشعر أنه في ضيق وشدة فأحْبُ آبائِهِ "يوسف" قد فقد من قبل. وها هو يرسل أحب الباقيين - ولا يدري ما يفعل به وهو يطلب من الله ألا يجمع عليه مصيبتين. لأنه لن يتحملهما معاً. فهو يرجو رحمة الله لأنه أرحم الراحمين وطلب من الله أن يحفظ ابنه الثاني هذا. فقال:

"فإنه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين".

وهو قول يجمل بالمرء أن يقوله إذا وجد في مثل هذا الضيق فيرجو من الله الحفظ والرحمة.

ولما رأوا أن فضتهم قد ردت إليهم قالوا لأبيهم: ما نبغي؟ سؤال استفهام كأنهم يقولون ماذا نريد وراء ما نراه من إحسان العزيز إلينا وكرمه هذه فضتنا قد ردت إلينا. وجلبنا الطعام والميرة لأهلنا، وسيكون حاله كذلك في المرة القادمة فيعطينا الطعام. وسيكون من إحسانه أيضاً أن نتمكن من حفظ أخانا ونرجع به، ولما سيري أخانا معنا سيزيد لنا كيل بغير، إذ سيعطينا احد عشر حمل بغير بدلاً من عشرة.

لما رأى يعقوب عليه السلام ضرورة إرسال ابنه بنيامين معهم - وإلا فلن يحصلوا على الطعام - أخذ عليهم الموثق والعهد ليعودون به - ولكنه وضع في الحسبان أن كل شيء بأمر الله سبحانه وتعالى ومشيتته ولا أحد يعلم الغيب إلا الله فاستدرك قائلاً: إلا أن يحاط بكم. أي إلا أن تغلبوا أو يحدث شيء لا تقدرון على دفعه ولا تطيقون رده، فلما أتوه موثقهم وعهدهم قال لهم إن الله مطلع على هذا الموثق وربي عليه والمراد أنه سبحانه مجازيهم إن أخلوا بهذا الميثاق.

وقد أصبح قوله تعالى: "والله على ما نقول وكيل" جملة يختم بها كل عقد أو اتفاق بين طرفين للتأكيد على وجوب تنفيذه.

بعد أن أخذ يعقوب على بنيه ميثاقاً بأن يعودوا ببنيامين أعطاهم نصيحة يعملون بها عند دخولهم مصر:

" وَقَالَ يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ". (67- يوسف).

قال بعضهم خوفاً عليهم من الحسد. وخاصة لما كان بنيامين معهم. وقال بعضهم: حتى لا يستتراب فيهم أنهم جواسيس إذا دخلوا معاً وهم أغراب في لبسهم ولسانهم.

وقيل طمعاً في أن يتسمعوا خبراً عن يوسف، فقد كان يشعر شعوراً داخلياً أنه لم يمت. ولكن أين هو؟ لا يدري !

وأدلى بهذه النصيحة لهم ثم قال إنه لا راد لقضاء الله - ولا يغنى حذر من قدر - فالحكم لله وحده دون غيره، وأخبرهم أنه يتوكل على الله ويجب على المؤمنين أن يتوكلوا على الله.

" وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانُ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (68 - يوسف).

ودخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم ولكن ذلك لم يكن يمنع قضاء الله عنهم وذلك ما كان يعقوب يعرفه وهو يدلي لهم بهذه النصيحة حتى يكون قد أدى الواجب نحوهم ولكنه يعلم تمام العلم أن ذلك لا يغني شيئاً، فالله قد أعطاه علماً جليلاً، ومتأكد أن مشيئة الله هي التي تنفذ وتكون. ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وقد يظنون أن اتخاذ الحيلة قد منع عنهم ضرراً ما. صحيح أن الأخذ بالأسباب واتخاذ الحيلة واجب على المؤمن. ولكن ليكن متيقناً في قرارة نفسه أن الأمر مرده إلى الله. إن شاء أنفذ الأسباب، وإن شاء عطّلها، وفي كلتا الحالتين لا ينفذ إلا ما شاء الله وقدره.

وسار إخوة يوسف حتى وصلوا مصر، ودخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم. ثم التقوا عند بيت عزيز مصر يوسف.

" وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (69- يوسف).

هكذا - في ايجاز - يصف القرآن الكريم هذا المشهد.

ويقول تفسير الألوسي: إنهم لما دخلوا على يوسف قالوا: أيها العزيز. هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، وقد جنناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي، وقال البعض إن يعقوب عليه السلام كان قد كلفهم برسالة تقول: بلغو عزيز مصر سلامي وقوله له إن أبانا يصلي من أجلك ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا. وقال آخرون: كان ذلك مبلغاً في كتاب فلما قرأه يوسف عليه السلام بكى. ثم إنه أكرمهم



وأنزلهم وأضافهم. وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامي وحيداً فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، فقال يوسف. بقي أخوكم وحده، فقالو له كان له أخ فهلك. قال: فأنا أجلسه معي، فأخذه معه وأجلسه على مائدته وجعل يؤاكله، وأنس بنيامين إلى يوسف، فقال له يوسف: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك أيها العزيز، فقال يوسف: أني أنا أخوك وعرفه بنفسه وطلب منه كتمان هذا الأمر عن إخوته، وطلب منه ألا يبتئس ولا يحزن على ما كان إخوته يفعلون به ويؤذونه.

وتقول التوراة (إصحاح 43 تكوين) إن يوسف أمر بإدخال إخوته إلى بيته ليضيفهم، فتوجسوا خيفة ظناً منهم أنه يريد الانتقام منهم بسبب الفضة التي وجدوها في رجالهم. ولكن كبير خدم البيت طمأنهم، وفك أسر شمعون وأدخله إليهم، وعند الظهر جاء يوسف للغداء. وأجلس بنيامين إلى مائدته فبهت الرجال بعضهم إلى بعض لأن المصريين لا يقدر أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنهم رجز عند المصريين، وبالعكس يوسف في إكرام بنيامين فكان الطعام أمامه خمسة أضعاف ما أمامهم.

وفي الصباح أمر يوسف بتجهيز الكيل وأحمال الطعام لهم، ثم جعل السقاية - وهي اناء كان يشرب به الملك - وكان من الذهب وقيل من الفضة وقيل كان يكال به الحبوب، وضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد وقالوا لم يضعها بنفسه، بل أمر كبير عماله بوضع طاس الفضة في قمح الصغير وثمان قمحه، ففعل بحسب كلام يوسف الذي تكلم به.

وانصرف إخوة يوسف ومعهم حميرهم. وخرجوا من المدينة. ولكنهم لم يبتعدوا إلا قليلاً حتى وجدوا فرساناً من قبل يوسف يدركونهم ويستوقفونهم واتهموهم بسرقة الكأس التي يشرب بها الملك. وأن الملك قد جعل جائزة لمن يرجعه له - حمل بعير من الحبوب - وقال كبير الفرسان أنه ضامن المكافأة لمن يرد الكأس.

وأنكر إخوة يوسف أنهم سرقوا شيئاً، وأخبروا الفرسان أنهم قد خبروهم من قبل وشاهدوا حسن سيرتهم، وأنهم لم يجيئوا ليفسدوا في الأرض.

" فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ " (70- 73 يوسف).

قالوا وكان يوسف عليه السلام قد وصل بنفسه وكانت عقوبة السرقة في مصر الضرب أو السجن، ولكن الله ألهمه الاحتكام إلى شريعتهم فسألهم عن الجزاء الذي يوقعونه على السارق فقالوا إننا في شريعة إبراهيم عليه السلام وهي تقضي بأن السارق يُدفع إلى المسروق منه ليسترقه ويصير عبداً له.

وبدأ الحرس يفتشون أمتعتهم وبدأ بتفتيش رجالهم قبل رحل بنيامين كي لا يثير شبهة في الأمر. قال قتادة: إنه كان لا يفتح متاعاً ولا يجد به الكأس إلا استغفر الله مما قذفهم به. حتى بقي أخوه الصغير، فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركك حتى تنتظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه، فلما استخرجها نكس الإخوة رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين يلومونه، ويقولون له: فضحتنا وسودت وجهنا يا ابن راحيل!

" قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " (74 - 76 - يوسف).

وهذا يدل على أن تدبير يوسف في وضع السقاية في رحل بنيامين كان بإيحاء من الله تعالى، ولذلك كان القول "كدنا" نسبة إلى الله تعالى وكذلك كان أخذه لبنيامين في سلطان الملك بمشيئته تعالى، فكان في الظاهر أنه أخذه استرقاقاً، وهو في الحقيقة يريد ضمه إليه. وهذا رفع لدرجته وإبعاد له عن اخوته الذين يؤذونه، وتدبير الله فوق كل تدبير وعلم الله فوق كل عالم وكل ذي علم، وقالوا إن هذا من الكيد المحبوب لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

"قالوا" راح إخوة بنيامين يلومونه لوجود الصواع في رحله وقالوا له: فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل لا يزال لنا منكم بلاء إذ أخذت هذا الصاع، فقال بنيامين: بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء. ذهبتم بأخي إلى البرية فأهلكتموه، إن الذي وضع الصاع في رحلي هو الذي وضع الدراهم في رحالكم، وواضح من هذا أن بنيامين لم يكن يعرف كيف جاء الصواع إلى رحله، وتذكر أنهم لما عادوا بالميرة إلى أرض كنعان ووجد الفضة معهم اعتقد أنهم سرقوها من العزيز بعد ما أخذوا القمح، ولعله ظن أنهم دسوا الصواع في رحله ليكيّدوا له فقد كانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون أخاه يوسف من قبل، ولعلهم - من جانبهم - ظنوا أن بنيامين قد سرق الصواع فعلاً ولحقدهم عليه - ولينفوا عن أنفسهم أي نقيصة - رأوا أن يُثبتوا عليه السرقة، بل وجعلوا السرقة طبعاً في أبناء راحيل.

" قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ " (77- يوسف).

فقالوا إن أخاه - أي يوسف - قد سرق من قبل، وليس بمستبعد أن يسرق هذا أيضاً، فهو أخوه من ناحية الأم أيضاً.

فمما لا شك فيه أن هذا الاتهام كان محض اختلاق من إخوته ليثبتوا براءتهم هم ويثبتوا السرقة على بنيامين بزعم أن ذلك طبع في أبناء راحيل وهي ليست والدتهم.

وبالطبع فإن يوسف غضب لهذا الافتراء عليه ولكنه أخفى ذلك في نفسه، ولم يبديها لهم. لا قولاً ولا فعلاً، حلماً منه، قال أنتم شر مكاناً، بعضهم فسرّها بأنه قالها في نفسه ومعناها أنهم أليق بالوصف بالشر لما فعلوه به من قبل باللقاءه بالحب.

لما نفسوا عن مكنون حقدهم على يوسف وأخيه بهذا الاتهام، وبدأت الشرطة في أخذ بنيامين لإحاقه بيوسف، أفاقوا، وتذكروا موثقهم مع أبيهم يعقوب بأن يكون بنيامين معهم عند عودتهم. فراحوا يستعطفون يوسف قائلين: إن له أباً شيخاً كبيراً يحبه كل الحب ولا يستطيع فراقه، وقد حل في قلبه محل أخيه الذي فُقد (يقصدون يوسف)

وعرضوا على يوسف أن يأخذ واحداً منهم بدلاً من بنيامين لأن أباهم قد يهلك إذا علم بفقدان بنيامين أيضاً، وكان المتكلم هو يهوذا لأنه هو الذي تعهد ليعقوب بالعودة ببنيامين، والباقون آمنوا على هذا التعهد.

" قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ " (78 - 79 - يوسف).

تأكد لهم أن يوسف - عزيز مصر - لن يقبل أن يأخذ أحداً منهم بدلاً من بنيامين ويئسوا من مناشدته العطف بأبيهم الشيخ الكبير الذي ما إن يعرف بفقدان بنيامين فقد يودي به الحزن إلى الهلاك، عندئذ انتحوا جانباً، وخلصوا من الناس، وتشاؤروا وتناجوا فيما بينهم "خلصوا نجياً" وذكرهم أخوهم الكبير - رؤبين - أنهم قد أعطوا أباهم عهداً وميثاقاً أن يعودوا بأخيهم بنيامين، وتعهدهم يهوذا بذلك أمام والده، وقد سبق أن فرطتم في يوسف، ولأنه لا يستطيع مواجهة أبيه، فسيبقى في مصر، ويعودون هم، فإن أذن له أبوه في العودة يعود وإلا فلن يعود، أو يكون في علم الله وحكمه تدبير آخر، فقد يقرر العزيز مثلاً أن يعفو عن بنيامين أو يستطيع هو بوسيلة أو بأخرى تدبير إخراجه المهم أنه فوض الأمر إلى الله والله خير الحاكمين.

وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم وقولوا له إن بنيامين سرق وأخذه العزيز عبداً له جزاء ذلك. وكنا شهوداً إذ استخرجوا كأس الملك من متاعه وهذا مبلغ علمنا، ولا ندري أسرق حقيقة أم وُضع الصواع في رحله دون أن يشعر. وعلى العموم هذا علمنا، وحين أعطيناك الميثاق لم نكن نعلم الغيب ولا كنا نعلم أن هذا سيحدث، وإن لم تصدقنا فإسأل أهل القرية الذين كانوا معنا.

" فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا

إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " (80 - 82 يوسف).

وفعلوا كما قال أخوهم الكبير، وعادوا إلى يعقوب، وأخبروه بما حدث وطلبوا منه التأكد من صدقهم بسؤال الرجال الآخرين الذين معهم في القافلة.

هنا قفز إلى ذهن يعقوب ما فعلوه بيوسف من قبل، لقد قالوا إن الذئب أكله، وأروه القميص وعليه الدم ولكنه غير ممزق، فتأكد من كذبهم، وأنهم فعلوا به أمراً آخر فقال: " قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ " (من الآية 18 - يوسف).

وظن يعقوب أنهم فعلوا بنيامين أمراً ليعدوه عنه، ماذا فعلوا به؟ لا يدري، أكان كل ما أخبروه به من أن عزيز مصر رفض إعطاءهم القمح إلا إذا أحضروا أخاهم الصغير معهم - أكان ذلك مجرد خدعة ليأخذوه منه؟ فقال نفس ما قاله عند فقدان يوسف: " قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ " (من الآية 18 - يوسف).

وهكذا فقد بنيامين - ويوسف من قبل فزاد حزنه واعتزل بنيه وأعرض عنهم فإن غياب بنيامين - كما نقول بلغة عصرنا - قلب عليه المواجه.

وهكذا ولو أن الموقف هو غياب بنيامين إلا أنه تذكر يوسف، وقال "يا أسفا على يوسف" بمعنى يا أسفي على يوسف وأبدلت ياء المتكلم ألفاً للتخفيف، أو أنها يا أسفاه وتسمى ألف الندبة، وحذفت الهاء، وبكى كثيراً من شدة الحزن، وابتضت مقلة العين من كثرة البكاء - كناية عن العمى، وزاد غضبه على أبناءه ولكنه كظم غيظه لا يظهره فهو كظيم.

وقال له ابناؤه، أنت لا تزال ولا تفتن تذكر يوسف وتبكي عليه وحذفت لا القسم - وستظل تفعل ذلك حتى تصبح ضعيفاً وتكون حرصاً، والحرص هو المهزول من المرض والمشرف على الهلاك. وإن استمر بك هكذا الحال فقد تهلك أي تموت

"قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُ تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ". (83 - 86 يوسف).

قال يعقوب عليه السلام: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله" قال ذلك لأن ابناؤه عابوا عليه شدة حزنه فكان جوابه أنه إنما يشكو إلى الله لا إليهم، وأنه يعلم من لطف الله ورحمته ما لا يعلمون، يعلم بيقينه أو وحيًا من الله وسبق أن قلنا إنه كان يشعر شعورًا داخليًا بأن يوسف حي يرزق. وأن الله سيجمعهم جميعاً في النهاية. ولعل ذلك من إيمانه بأن حلم يوسف الذي حكاه هو رؤيا من الله تعالى ولا بد أن تتحقق في يوم ما، وقيل إن يعقوب عليه السلام رأى ملك الموت في المنام فأخبره أن يوسف حي، ذكره غير واحد ولم يذكروا له سنداً.

وروى عن ابن أبي حاتم عن النضر أنه قال: بلغني أن يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاماً لا يدري أيوسف عليه السلام حي أم ميت حتى تمثل له ملك الموت فقال له: من أنت؟ قال ملك الموت، قال: أنشد بآله يعقوب: هل قبضت روح يوسف؟ قال لا. فعند ذلك قال:

" يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " (87- يوسف).

فطلب من أبنائه أن يذهبوا إلى مصر ويتسمعوا أو يتلمسوا من أخبار يوسف وبنيامين بلطف وفي خفاء، كأن المرء يتحسس شيئاً ليدرك ماهيته باللمس، بدون إثارة الضوضاء، وبعضهم فرأها فتجسسوا، وهو أيضاً بمعنى معرفة الأخبار ، وقيل التحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر.

وحثهم على البحث بجد، وأن لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله وأن لا ييأسوا من رحمة الله وفضله، ولأن رحمة الله واسعة، والعارف لا يقنط في حال من الأحوال قال ابن عباس: إن المؤمن بالله تعالى على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء، لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

عاد إخوة يوسف إلى مصر، كما أمرهم أبوهم، وكانت هذه هي المرة الثالثة، وكانت حالهم قد ساءت من حزن أبيهم وفقدانه للبصر، فلم يكن يقوى على العمل، كان قدومهم إلى مصر ليتسقطوا أخباراً عن يوسف مسaire لما أمرهم به أبوهم مع علمهم بهلاك يوسف منذ ألقوه في الجب قبل خمس وثلاثين سنة ظانين أن طلب أبيهم هذا هو من قبيل الأوهام، لشدة حبه ليوسف ولعدم تصديقه أنه قد هلك وكذلك ليتسمعوا الأخبار عن بنيامين، أين هو الآن، هل سجنوه؟ أم ضموه إلى العبيد الذين يعملون في قصر العزيز، أم جعلوه يعمل في أحد مخازن الحبوب المنتشرة في طول البلاد وعرضها، وهل يستطيعون لقاءه والتكلم معه. وحينئذ هل يمكنهم - بوسيلة ما - تدبير هربه والعودة به إلى أبيهم؟ كل هذه الأسئلة والأفكار كانت تدور في ذهنهم. كذلك كان قدومهم لمصر لطلب الطعام، ولكن ما كان معهم هذه المرة كان ثمناً قليلاً - دراهم قليلة - أو سمناً قليلاً - أو صوفاً غير جيد الصنع، فقد كانت المجاعة في شدتها - إذ الجفاف مستمر منذ ثلاث سنوات، ولذلك وصفوا بضاعتهم التي سيقايضون عليها - بأنها مزجاة. والمعنى أن هذه البضاعة لو قدمناها لتاجر آخر لما قبلها لردائها وقتلتها، وأقرب لفظ لذلك من حياتنا المعاصر هو قولنا بضاعة مضروبة أي كاسدة لردائها أو لعدم احتياج السوق لها وبوارها، وما جئنا بها إلا لأننا لا نملك غيرها فقد مسنا وأهلنا الفقر والضرر. وكذلك ما جئناك أنت بها إلا طالبين أن تتصدق علينا وتعطينا الميرة (الطعام) وهي أزيد من ثمن ما قدمنا. ونرجو أن تتم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا ولا تجعلها مقايضة بضاعة ببضاعة بل اجعلها صدقة منك علينا والله سيجزيك خير الجزاء لأنه هو الذي يجزي المتصدقين.

" فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ " (88 - يوسف).

بهذا الاستعطاف تقدموا إلى أخيه يوسف وهم لا يعرفونه، وعلم ما فيه أبوه من حزن وغم وكيف ساءت حاله وحال إخوته حتى إنهم لا يجدون الثمن الذي يشرون به طعامهم، ولعله قارن ذلك بما هو فيه من السعة والملك، فرّق قلبه، وأخذته رحمة وشفقة، ولا بد أن عيناه اغرورقتا بالدموع أو ذرفت دمعاً، ولعل إخوته استبشروا خيراً، من أن ضراعتهم قد رقت قلبه وأنه سيتصدق عليهم ويعطيهم الكيل مستوفياً، كما أعطاهم من قبل، ولكنه فاجأهم بالسؤال الذي لم يخطر على بالهم.

قال لهم: هل تذكرن ما كنتم تعملون في يوسف وأخيه من سوء معاملة وأذى؟ وما كان هذا منكم إلا جهلاً وحمقاً وسوء تصرف !

وبهتوا !!!

فهم لم يذكروا قبلاً أمامه اسم أخيهم الغائب، بل كانوا يقولون: أخ لنا هلك أو فقد، فكيف عرف ان اسم ذلك الأخ هو يوسف؟  
وقفرت الظنون إلى أذهانهم.

أ يكون هذا العزيز هو يوسف؟

ولكن كيف؟ كيف يكون هو في هذا المركز العظيم. وله كل هذا الجاه والسلطان، وفي أي بلد - في مصر - أم الدنيا - بل هي الدنيا كلها في ذلك الوقت !

لا. مستحيل، ولكن كيف عرف أن أخينا اسمه يوسف؟

هل سأل بنيامين عنه فأخبره؟ ولماذا سأل؟

وأي فائدة تعود عليه من معرفة اسمه؟

ولماذا كان دائماً يسأل: هل أبوكم حي؟ لأنه هو أبوه أيضاً؟

لا شك أنه هو يوسف!



لكن. لماذا تركنا في المرتين السابقتين بدون أن يجازينا بما كنا نفعله به في صغره وبإلقاءه في الحب؟

لكم يكون كريما إن كان هو يوسف!

ففي المرة الأولى رد لنا الفضة التي دفعناها ثمناً للميرة.

وفي المرة الثانية أكرمنا وأولم لنا وليمة في بيته، وأكل معنا، بل وأجلس بنيامين إلى مائدته!

أكان دس الصواع في رحال بنيامين من تدبيره ليتمكن من أخذه وضمه إليه إنقاذاً له من أيدينا ومن أديتنا له؟

لئن كان يوسف فوا خجلاه! لقد اتهمناه بالسرقة مواجهة دون مواردنا وقلنا "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" ولم يرد علينا هذه الاساءة...

ما أحلمك يا يوسف وما أكرمك !! إذا لم تجازنا بكل ما آذيناك به!

" قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ". (89 - 92 - يوسف).

يقال إنهم لما سألوهم أنك لأنك يوسف، رفع الغطاء عن رأسه وكانت جبهته فيها شامة. وقال لهم أنا يوسف وهذا أخي بنيامين وقد مَنَّ الله علينا بأن جمعنا بعد تفرقه، إنه من يتق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

قالوا والله لقد فضلك الله علينا وأوصلك بفضله إلى ما أنت فيه من عز وسلطان، واعترفوا بأنهم قد اساءوا إليه، بل وتعمدوا الخطأ في حقه، ومتعمد الخطأ خاطئ (أما من قصد الصواب فلم يوفق فهو مخطئ) واعترفهم بخطئهم يحمل ضمناً طلب العفو.

لم يستطيع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده، فصرخ: أخرجوا كل إنسان عني، فلم يقف أحد عنده حين عرّف يوسف إخوته بنفسه، فأطلق صوته بالبكاء. فسمع المصريون وسمع بيت فرعون، وقال يوسف لإخوته أنا يوسف، أحيّ أبي بعد، فلم يستطيع إخوته أن يجيبوه لأنهم إرتاعوا منه فقال يوسف لإخوته تقدموا إليّ، فتقدموا إليه، فقال: أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر، والآن لا تتأسفوا ولا تغتأظوا لأنكم بعتموني إلى هنا.

وأنتم لستم الذين أرسلتموني هنا بل الله وهو قد جعلني متسلطاً على كل أرض مصر، أسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف، قد جعلني الله سيداً لكل مصر، انزل إليّ لا تقف فتسكن في أرض جاسان وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل ما لك، وأعولك هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً لئلا تقتقر أنت وبيتك وهو ذا عيونكم ترى وعينا أخي بنيامين أن فمي هو الذي يكلمهم، وتخبرون أبي بكل مجدي في مصر، وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبي إلى هنا.

ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى، وبكى بنيامين على عنقه، وقبل جميع إخوته وبكى عليهم وبعد ذلك تكلم إخوته معه، ونختصر ما جاء في التوراة:

وسُمع الخبر في بيت فرعون وقيل جاء إخوة يوسف، فحسن في عيني فرعون وقال فرعون ليوسف: قل لإخوتك إذهبوا إلى أرض كنعان وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليّ أعطيك خيرات أرض مصر، وتأكلوا دسم الأرض، خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم.

ف فعل بنو اسرائيل هكذا وأعطاهم يوسف عجلات بحسب أمر فرعون وأعطاهم زاد للطريق وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب، وأرسل لأبيه هكذا: عشرة حمير حاملة من خيرات مصر. وعشر أتن حاملة حنطة وخبزاً وطعاماً لأبيه لأجل الطريق، ثم صرف إخوته فإنطلقوا وقال لهم: لا تتغاضبوا في الطريق.

بعد أن جهز يوسف العجلات والزاد لإحضار والده وأهله إلى مصر قال لإخوته:

" اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأُنْوِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (94 - 98 يوسف).

قال لهم يوسف اذهبوا بقميص هذا وأعطاهم القميص الذي كان عليه حينئذ.

وكانت قافلة خارجة من مصر فخرج معها إخوة يوسف والعجلات التي أرسلها يوسف - بإذن من فرعون - لإحضار أبيه وأهله. والعرير التي كانوا قد أتوا بها من أرض كنعان لحمل الحبوب، ولما فصلت العير أي خرجت من أرض مصر، واقتربت من أرض كنعان. قال يعقوب لمن حوله "إني لأجد ريح يوسف" ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى جعله يشم ما عبق بالقميص من ريح يوسف بالرغم من بعد المسافة بينهما، أو أن ذلك كان نوعاً من مما يسمى بالحاسة السادسة، أو الإدراك بغير الحواس الخمس المعروفة، وهي قدرة يعطيها الله للبعض من عباده المخلصين.

ولا شك أن يعقوب عليه السلام - وهو نبي - قد آتاه الله المقدرة على أن يشعر بما لا يدركه غيره، فقال: إني لأجد ريح يوسف، ولولا أن تتهموني بالفساد أو ضعف الرأي والتخريف بسبب كبر السن والهرم (كان عمر يعقوب وقتئذ 102 سنة).

ومما يروى في ذلك أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها فأنته بها، قال ابن عباس: وجد يعقوب ريح يوسف في مسيرة ثمان ليال! فقال:

"إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون". (94-يوسف).

والفند ضعف الرأي من الهرم، والتنفيد اللوم وتضعيف الرأي، فقال لمن حوله من ولد ولده وأمهاتهم - إني أشم رائحة يوسف، فقالوا له إن شدة حبك ليوسف - وهي شيء قديم - هو الذي جعلك تتخيل هذا الأمر، ولظنهم أن يوسف قد مات من زمن بعيد، فإن قوله بالشعور بريح يوسف هو باطل وضلال، وقالوا له ستظل في أوهامك وضلالك القديم من التوقع للقاءه حتى تهلك.

قال يهوذا ليوسف: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب، فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حي فأفرجه كما أحزنته.

وقال مجاهد: قال يهوذا لإخوته قد علمتم أنني قد ذهبت فيما مضى بقميص يوسف الذي لطحناه بالدم فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة.

وألقى القميص على وجه أبيه فارتد إليه بصره، وإن ارتداد بصر يعقوب حدث في أرض كنعان بعد أن ألقى البشير قميص يوسف على وجهه "فلما أن جاء البشير، ألقاه على وجهه فارتد بصيراً".

وجاء في الأخبار أن يعقوب قال للبشير: كيف يوسف؟ قال إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك. على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. فقال يعقوب: الآن تمت النعمة.

قال يعقوب لبنيه ومن كان حاضراً "ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون". وأعلم من الله أن يوسف حي وأننا سنلتقي في يوم من الأيام.

الأمر الثالث الذي أغفل كاتبو التوراة ذكره أن بني يعقوب طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم واعترفوا بذنوبهم في حق أبيهم وفي حق يوسف وأنهم كانوا خاطئين.

ووعدهم أبوهم بأنه سيستغفر لهم الله:

"قال سوف استغفر لكم ربي".

وسوف تعني تأجيل الاستغفار بعض الوقت.

وقيل آخر الاستغفار إلى وقت السحر من يوم الجمعة وأوردوا حديثاً عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " سوف استغفر لكم ربي " ويقول: حتى تأتي ليلة الجمعة. وقال ابن كثير. وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه نظر، ولعل غرابته في أن السبت هو يوم بني اسرائيل وفيه صلاتهم أما الجمعة فهو يوم المسلمين، وقال الشعبي: آخره (الاستغفار لبنيه) حتى يسأل يوسف عليه السلام، فإن عفا عنهم استغفر لهم، وقيل آخر ليعلمهم حالهم في صدق التوبة.

### ادخلوا مصر:

وسار الركب - يعقوب عليه السلام وبنيه وأحفاده وأهله، وكل ممتلكاتهم من أرض كنعان حتى دخلوا سيناء ثم عبروا إلى الصحراء في شرق الدلتا، ولما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم. قيل خرج يوسف في أربعة آلاف من الجند وكذلك خرج أكابر القوم وكثير من الناس وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهوذا! (والأقرب للعقل أنه كان يركب إحدى العجلات التي أرسلها يوسف لتحملهم) ونظر يعقوب إلى الجند والناس، فقال يهوذا يا يوسف - يبدؤه بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه، فابتدأ يعقوب بالسلام، قال: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

وساروا معاً، ثم أدخلهم القصر الذي ينزل به، وبه قاعة كبيرة فيها عرش كبير كان يجلس عليه وهو يصدر الأوامر التي تسير أمور الدولة.

وكان أبواه يسيران على بعد خطوات منه، فوصل إلى العرش قبلهما، كانت أمه قد ماتت بعد ولادة بنيامين، فكانت خالته ليا أو ليئة له بمثابة الأم ولذلك قيل ابواه، ولعلمهم وقفوا برهة يتأملون روعة العرش وفخامته وكان يوسف قد وصل إلى الكرسي وجلس عليه فخروا له سجداً. أبوه وخالته وإخوته الأحد عشر، لما رأى يوسف ذلك قال: "يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربي حقاً" مذكراً أباه بحلمه الذي حكا له في طفولته من أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأهم له ساجدين.

أغلب الظن أنه لم يكن سجوداً بمعنى ملامسة الجباه للأرض بل كان انحناء بالجسد وكان هذا سائغاً في شريعتهم، ولكن الإسلام أبطله.

" فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (99 - 100 يوسف).

وجاء عن ابن عباس أن يوسف عليه السلام لما رأى سجود أبويه واخوته له هاله ذلك واقتشعر جلده منه، وأجلس أبويه على العرش بجانبه وراح يعدد نعم الله عليه، ذكر منها مسألة خروجه من السجن - واجتماعهم ثانية بمجيئهم من البادية بعد أن أفسد الشيطان ما بينه وبين إخوته وهو ما جعلهم يدبرون إبعاده ولكن الله بلطف تدبيره جمعهم ثانية وهو العليم بمصالح العباد. فقيض حضور يوسف لمصر ليتدبر أمر الناس في سنين المجاعة، وهو الحكيم في أفعاله وفي قضائه وقدره.

وفي فترة غياب يوسف عن أبيه قال محمد بن اسحق: ثماني عشرة سنة وبعضهم قال أربعين سنة وقال قتادة خمس وثلاثين سنة، وهذا أقرب الأقوال إلى الصحة.

ويختتم القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى:

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ " (101 - 102 - يوسف).

فقد ذكر يوسف من بين النعم التي أنعم الله بها عليه نعمة الملك العظيم والسلطان الذي كان له في مصر، وكذلك نعمة تأويل الأحاديث وهي تفسير الأحلام كما في ظاهر اللفظ، وقالوا أيضاً فهم الغوامض وأسرار الكتب الإلهية، ثم ذكر قدرة الله التي

تفوق كل قدرة، وملكوته الذي يعلو كل ملك، فهو خالق السموات والأرض ونسب إلى الله تعالى توليه كل أموره في الدنيا والآخرة وطلب من الله أن يتوفاه - حتى يحين الأجل - على ملة الإسلام وأن يلحقه بالصالحين. وقيل هم آباؤه يعقوب واسحاق وإبراهيم عليهم السلام، وليس ذلك تمنياً للموت كما قد يتوهم البعض بل هو طلب الموافاة على الاسلام، وإن قيل إنه من المعلوم أن الأنبياء لا يموتون إلا مسلمين، فالجواب أن ذلك لم يكن إلا بإرادة الله وبمشيئته.

وكان ختام القصة خطاباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذلك" إشارة إلى ما ذكر من أنباء يوسف عليه السلام - من الغيب - الذي لا يعلمه أحد إلا الله ، ونرى فيه إشارة إلى أن فيه تصحيح للتحريف الذي أدخل على القصة في الكتب السابقة، فجاء القرآن الكريم ليرد القصة إلى أصلها وحقيقتها التي لا يعلمها إلا الله، أوحاه إلى رسوله الكريم.

ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه - أصدؤ وأخبر فرعون، وأقول له إخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليّ والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا أهل مواشي وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتم أن تقولوا: عبيدك أهل مواشي منذ صبا أنا إلى الآن، نحن وآباؤنا جميعاً، لكي تسكنوا في أرض جاسان.

فكلم فرعون يوسف قائلاً: أبوك وإخوتك جاؤوا إليك، أرض مصر قدامك، في أفضل الأراضى أسكن أباك وإخوتك ليسكنوا أرض جاسان.

### أرض جاسان أو جوشن:

أرض جاسان أو أرض جوشن - في أغلب الأقوال وأصحها - تقع في وادي طميلات. وتمتد من بحيرة التمساح حتى فرع النيل الشرقي، وتقع على الحد الشرقي لدلتا نهر النيل، مجاورة لصحراء سيناء التي تبدأ من شرق بحيرة التمساح ولم تكن إقليمياً زراعياً

بل كان مكاناً ملائماً لرعي الماشية، وتذكر في الآثار المصرية باسم أرض "جسم" أو "جاسم" بعضهم قال إنها تقع في شمال سيناء بين تانيس والعريش.

وفريق آخر قال بوجودها في جنوب فلسطين.

ولكن هذين القولين الأخيرين يتعارضان مع الحقائق التاريخية من أن بني إسرائيل عاشوا في مصر واستعبدوا في بناء مدن بمصر - وكان "الخروج" من مصر في عهد موسى عليه السلام.

أما وجود منطقة في جنوب فلسطين اسمها جوشن، فربما كان احياء لذكرى مصر التي امتد نفوذها حتى شمل هذه المنطقة.

ولعل يوسف عليه السلام اختار أرض جاسان بالذات لإسكان أبيه وإخوته لملاءمتها لرعي مواشيهم ولأنها بعيدة نسبياً عن المصريين إذ كان المصريون لا يرحبون برعاة الغنم والمواشي - وتقول التوراة: "لأن كل راعي غنم رجس للمصريين" فأراد باختيار هذا المكان أن لا يكون هناك احتكاك كثير بين قومه وبين المصريين مما يولد خلافات وصدامات.

سبب ثالث لاختيار أرض جاسان - ذلك أن الهكسوس بعد احتلالهم مصر اتخذوا عاصمة لهم تسمى أفاريس - وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن أفاريس هي تانيس أو صان الحجر. مركز فاقوس، محافظة الشرقية ووقع أرض جاسان في وادي طميلات فإنها تكون قريبة من العاصمة حيث يحكم ملك الهكسوس ومعه يوسف، وكما سبق أن قلنا بعيدة عن المصريين الذين لم يكونوا ليقبلوا العبرانيين - رعاة المواشي - بينهم.

لكل هذه الأسباب فإن وضع أرض جاسان أو أرض جوشن في وادي طميلات في المنطقة بين بحيرة التماسح إلى فرع النيل الشرقي أنسب الأماكن من جميع النواحي.

سكن بنو إسرائيل أرض جاسان وعاشوا في دعة من العيش وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد، وهذا معناه أنه كان يجري عليهم الأرزاق والطعام من مخازن الدولة. ولم يكن لهم - وهم أهل نائب الملك - أن يدفعوا ثمناً



للميرة، وهكذا فإن نتاج المراعي والأغنام كانت تبقى لهم بأكملها، فكثرت أموالهم ، وعاشوا في بحبوحة من العيش.

### وفاة يعقوب عليه السلام:

تقول التوراة (اصحاح 47 تكوين) وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة فكانت أيام يعقوب سنو حياته مائة وسبعاً وأربعين سنة.

ولما قربت أيام إسرائيل أن يموت دعا ابنه يوسف وقال له: إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فضع يدك تحت فخذي واصنع معي معروفاً وأمانة (وكانت هذه طريقتهم في أخذ تعهد وموثق من شخص - وهذا نفس ما فعله إبراهيم عليه السلام وهو يأخذ عهداً على أليعازر حتى لا يزوج ابنه اسحق من بنات الكنعانيين - لا تدفني في مصر، بل أضطجع مع آبائي، فتحملني من مصر وتدفني في مقبرتهم، فقال أنا أفعل بحسب قولك، فقال احلف لي، فحلف له.

قبل وفاته جمع يعقوب بنيه وأوصاهم وصيتين، واحدة تتعلق بالدين والثانية تتعلق بالدنيا، وقد ذكر القرآن الكريم الوصية المتعلقة بالدين أما التوراة فقد ذكرت تلك التي تختص بالدنيا.

### وصية يعقوب لبنيه في القرآن الكريم:

"أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (133 - البقرة).

وفي الآيات الثلاث التي تسبق هذه الآية أوضح القرآن الكريم أن الملة التي يعبدون الله عليها هي ملة إبراهيم عليه السلام . دين الله الحنيف - الإسلام.

" وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (130 - 132 - البقرة). "

كان بنو يعقوب في فلسطين بعيدين عن مراكز عبادة الأصنام التي كانت متمركزة في بابل ونيينوى ودمشق، صحيح أن عبادة الأصنام كانت في كل مكان، إلا أن معابدها العظيمة كانت في المدن الكبرى، وكان بنو يعقوب في البادية بعيدين عنها، أما في مصر، فكانوا قريبين جداً من معابد المصريين الضخمة وخاف عليهم يعقوب أن يُفتنوا بها وبما يقام بها من طقوس وصلوات. لذلك أراد أن يؤكد عليهم التمسك بعبادة التوحيد وأخذ عليهم العهد بذلك. لم يكن يخشى عليهم هذا الافتتان وهو حي بينهم، ولكن ما كان يخشاه هو بعد وفاته، لذلك قال: ما تعبدون من بعدي؟ فأعطوه عهدهم بأن يلتزموا بعبادة التوحيد التي كان عليها آباؤه - أي أبوه وجده.

ولكن بني إسرائيل من طول معاشتهم للمصريين استهوتهم عبادة الأصنام وكان أكثر ما مالوا إليه هو عبادة عجل أبيس، وكان بين الحين والآخر يظهر بين أبقارهم ومواشيهم عجل فيه المميزات التي كان المصريون يتطلّبونها في العجل المقدس، فكان بنو إسرائيل يحيطون هذه العجول بالرعاية وينظرون إليها نظرة تقديس، وبمضي السنين تشربت عبادة العجل في نفوسهم:

"وأشربوا في قلوبهم العجل" (من الآية 93 - البقرة).

### وفاة يوسف عليه السلام:

ومرت السنون وتوفى الملك خيان ملك الهكسوس حوالي عام 1715 ق. م. وكان عمر يوسف حينئذ 63 عاماً وتولى أبو فيس الأول حكم الهكسوس وحكم لمدة 40 سنة. حفظ خلالها ليوسف مكانته في البلاد، ومات أبو فيس الأول، وتولى بعده أبو فيس

الثاني، وكان يوسف قد بلغ من العمر 103 عاماً، وبعد سبع سنوات من حكم أبو فيس الثاني توفي يوسف إلى رحمة الله وكان قد بلغ من العمر مائة وعشر سنين.

قيل لما مات تعارك الناس عليه كل يحب أن يدفنه في محلّتهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يدفن في النيل حيث تتفرق المياه بمصر فيمر الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر فيصيب الخير الجميع ففعلوا ذلك، وكان قبره في النيل إلى أن حمّله موسى عليه السلام حين خرج من مصر ببني إسرائيل.

وروى يونس بن عمران عن أبي موسى قال: نزل الرسول صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكرمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرمتنا فأحسنّت، سل حاجتك، فقال: ناقة نرحلها وعنزة تحلبها أهلي. فقال صلى الله عليه وسلم: أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني إسرائيل؟ قالوا يا رسول الله. وما عجوز بني إسرائيل؟ فقال: إن بني إسرائيل لما خرجوا ضلّوا الطريق وأظلم عليهم الليل. فقالوا: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال موسى: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: عجوز لبني إسرائيل، فبعث إليها موسى، فأنتته، فقال: دليني على قبر يوسف، فقالت له: وتعطيني حكمي؟ قال وما حكمك؟ قالت: أن أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها حكمها، فأوحى الله إليه أن أعطيها حكمها ففعل.

ويروى من طريق آخر - أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء، فقالت لموسى: ألا أخبرك بموضع قبر يوسف؟ قال: نعم، قالت له: لا أخبرك حتى تعطيني أربع خصال: تطلق رجلي وتعيد إلي بصري، وشبابي، وتجعلني معك في الجنة. قال: فكبر ذلك على موسى، فأوحى الله إليه أن أعطيها ما سألت، فإنك إنما تعطي على، ففعل، فإنبطقت بهم إلى موضع عين في مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطئ النيل في صندوق من مرمر، فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه وساروا.

ولا ندرى مدى صحة هذا الحديث، وقد يرى البعض ان القصة من الاسرائيليات أو الموضوعات، ولكن لو تمعنا في الأمر لوجدنا فيه بعضاً من المعقولية، ولعلها كانت إرادة الله أن يُجهل مكان قبر يوسف على مر الأزمنة، ففي غمار التعذيب والتسخير والتكيل الذي تعرض له بنو إسرائيل، ما كان الأمر ليخلو من متعصب ينقب قبره - لو كان ظاهراً للعيان - أو لو كان معروفاً مكانه. انتقاماً ممن كان سبباً في مجيئهم إلى مصر!!

كما أننا ندرك مدى سطوة لصوص المقابر التي جعلت الفراعين - عند بناء الأهرامات - يعمدون إلى إخفاء مكان توابيتهم والتمويه بسراديبي وحجر دفن كاذبة، وما كان هؤلاء اللصوص ليتورعوا عن ممارسة نشاطهم لما قد يعتقدون من ثروة في قبر نائب الملك، وما نظن أن الفراعين في فترة تعذيب بني إسرائيل - كانوا يهتمون بوضع حراسة على قبره لمنع ذلك، بل لعلهم كانوا يغضون الطرف عمداً لتشجيع مثل هذا الفعل - لكل هذه الاعتبارات لعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى - حفظاً لقبر نبيه يوسف عليه السلام - من أي مساس به - أن يُجهل مكانه. حتى يحين موعد الخروج من مصر فيحملونه معهم ليدفن بعد ذلك بجوار أبيه وأجداده.

### **بنو يعقوب بعد طرد الهكسوس:**

مما لا شك فيه أن المصريين كانوا ينظرون إلى بني يعقوب - أي بني إسرائيل نظرة غير ودية للأسباب التالية

- 1- أنهم أسبويون: مثل الهكسوس الذين احتلوا مصر.
- 2- أنهم قدموا إلى مصر في عهد الهكسوس وتربوا في أحضانهم وتضاعفت أعدادهم كثيراً.
- 3- كان يوسف عليه السلام قد أقطعهم أرض جاسان وأجرى عليهم الأرزاق والحبوب والعطايا فكانوا في بحبوحة من العيش في حين أن المصريين انتهى بهم الأمر إلى أن باعوا ماشيتهم وأرضهم إلى ملك الهكسوس، وأصبحوا يدفعون الخمس بدلاً من الجزية المفروضة وهي العشر.

4- لا ندرى إن كان بعض من بني إسرائيل قد ساعدوا الهكسوس في حربهم ضد المصريين أو أثناء حصار عاصمتهم ولكن الأغلب أنهم وقفوا على الحياد، ولعل هذا قد أحفظ المصريين عليهم، إذ أنهم كانوا يتوقعون أن بني إسرائيل - وقد استوطنوا بمصر - وأكلوا من خيراتها - كان عليهم ، أن يساعدهم لطرد المحتل الغاصب.

5- مما لا شك فيه أن "الأرض الموعودة" كانت إحدى العقائد الثابتة لدى بني إسرائيل، وقال لهم يوسف قبل موته (إصحاح 50 تكوين) ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً: الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا.

من هنا كان بنو إسرائيل يعلمون أن وجودهم في مصر هو وجود مؤقت، ولو أنهم قد استناموا عن هذا الأمر لرغد العيش في مصر، ولرهبة المجهول الذي ما كانوا يعرفون عنه شيئاً، وإن كانوا يعرفون من سابق خبرتهم في أرض كنعان أنها أقل خيراً من أرض مصر وأن قومها أقسى طباعاً من طباع المصريين السلسلة.

ولا ريب أن أقوال بني إسرائيل عن "الأرض الموعودة" ما كانت لتخفى عن المصريين ولعل المصريين كانوا يرحبون برحيل بني إسرائيل عن مصر قبل طرد الهكسوس إذ أن ذلك يضعف من قوة الهكسوس ويفقد سندا لهم، إلا أنه بعد طرد الهكسوس من مصر تغير الوضع. إذ أن تجمع فلول الهكسوس في فلسطين آثار مخاوف أحسن من احتمال عقد صفقة بين الهكسوس وبني إسرائيل يكون من نتيجتها عودة الهكسوس إلى مصر بمساعدة بني إسرائيل، في مقابل إعطاء الهكسوس أرض فلسطين لبني إسرائيل، ومن هنا قد فرض أحسن عيونا على أرض جاسان وعلى بني إسرائيل ليعلم من يقدم إليهم، وليرصد أي اتصالات بينهم بين الهكسوس.

كان أفرايم بن يوسف قد زوج ابنته رحمة من أيوب بن موص بن رعويب بن عيسو وسافرت معه إلى أرض سعيير.

في أثناء حكم أحمس قدم أيوب لزيارة أهل زوجته في مصر، وكانت عيون الفراعنة ترصد أي قادم، فاستدعاه أحمس، وتأكد له أنه لا يمت بصلة إلى الهكسوس لا ندرى حقيقة المحادثة التي جرت بينهما، وعلى ما يبدو فإن أيوب - وهو على دين جده الأكبر إبراهيم واسحق عليهما السلام - لم يشأ أن يسفه عبادة الأصنام التي كان عليها المصريون، خوفاً من أن ينعكس أثر ذلك على استقرار بني إسرائيل في مصر لذلك أثر المداينة والملاينة وعاد إلى بلاده.

## موسى

### اسمه ونسبه:

هو موسى بن عمران بن يصهر بن قافت بن لاوي بن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم عليهم السلام وأمه هي (يوحانذ) ولما ولد بمصر كان والده عمران في السبعين من عمره.

وسيدنا موسى عليه السلام هو من أولي العزم من الرسل ويلقب بـ(كليم الله) وقد ذكره القرآن الكريم قال تعالى: (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً (52) وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً). (سورة مريم الآية 51-53).

وتبدأ جذور بني اسرائيل في مصر عندما قدم يوسف عليه السلام، وأحفاده من بلاد الشام للإقامة في أرض الكنانة، ذلك أن قومه أصابتهم سنين قحط، وكانت مصر بها أراض زراعية وافرة وقومه رعاة وبذلك يصلح حال قومه، ثم رغبة يوسف في أن يكون والده بجانبه في مصر.

وتمضي السنين ويكثر عدد بني إسرائيل، وأشاع بنو إسرائيل أنه سيخرج من ذرية ابراهيم ملك يقضي على فرعون، وكانت هذه الرواية مشهورة بين اليهود وبين القبط ووصلت في النهاية إلى فرعون الذي أمر بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من قدوم هذا الغلام الذي سيكون سبباً في هلاك أهل مصر على يديه وذكر عن ابن عباس أن فرعون مصر رأى في منامه كأن فأره أقبلت عليه من بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تؤذ بني إسرائيل فجمع الكهنة والسحرة فقالوا هو غلام يولد من هؤلاء فأمر بقتل الغلمان من بني إسرائيل، وعامل فرعون بني إسرائيل معاملة سيئة فقد كثر عددهم وقسم فرعون رعيته إلى أقسام يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل الذي هم من سلالة يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وكانوا أختيار الأرض وقد سلب الله عليهم هذا الملك الظالم يستعبد خيرة الناس ويذلهم ويستخدمهم في أدنى الضياع ومع هذا "يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ".

وفرعون جعل سنة مسامحة لا يقتل فيها الأطفال من بني إسرائيل وسنة يطبق فيه القتل، فولد في سنة المسامحة هارون وولد في سنة القتل موسى، قال تعالى: " بسم الله الرحمن الرحيم : طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ."

ولاسم موسى عليه السلام دلالات فقليل أن اسمه مكون من مو: بمعنى الماء، سى: بمعنى الشجر فهو ابن الماء والشجر وتفسره التوراة بـ(المنتشل من الماء) وكان الكهنة في مصر يعرفونه بابن بنت فرعون لمكوته فترة طويلة في قصر رمسيس فرعون مصر، فهو ابن ابنة فرعون بالتربية والنشأة فهي التي انتشلته من الماء وربيته.

#### نسبه:

يعود نسب موسى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وقد تكاثرت عائلة يعقوب ونمت بعد نزوحهما إلى مصر سنة 1656 ق. م . فأصبح الإسرائيليون جزءاً من الشعب المصري ولم يتعامل معهم الفراعنة معاملة كريمة بل جعلوهم في مرتبة العبيد وعوملوا معاملة سيئة أيام فرعون مصر رمسيس الثاني، واقطعوا أرضاً في بلبس وسكنوا في تجمعات أشبه بتجمعات العبيد باستثناء موسى الذي عاش عيشة ملكية رغيدة.

#### ولادة موسى:

في ظل هذا النظام الطبقي الغريب ولد موسى في عام القتل ذلك أن شيوخ القبط دخلوا على فرعون وأشاروا عليه أن يذبح أطفال بني إسرائيل سنة ويتركهم سنة، حتى يبقى منهم أحد للسخرة والعمل، لأنه إذا قتل جميع الغلمان فإن العمل والسخرة ستكون من نصيب غلمان القبط، فوافقهم فرعون وكانت تلك السنة هي السنة التي حملت أم موسى بوليدها.

احتارت أم موسى بحملها وكان الذباحون يدورون على الحبالى ليعلموا ميقات وضعهن حتى يقتلوا الغلمان.



عندما وضعت أم موسى طفلها ألهمها الله أن ضعيه في تابوت وكانت دارها على نهر النيل فكانت تضعه في تابوت وتربطه في حبل وترسله إلى البحر وأمسكت طرف الحبل عندما ذهب جنود فرعون استرجعته إليها هذا الوحي وحي إرشاد لا وحي نبوة. قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِيَّاكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ). (سورة القصص، الآية 7 - 9).

وذات يوم وبينما كان التابوت في نهر النيل أقبل الموج يرفعه مرة ويخفضه مرة أخرى حتى وصل إلى ساحل النيل وعند أشجار قصر فرعون فأقبلت جوازي زوجة فرعون (آسيا) فحملن التابوت وأدخلنه إلى سيدة القصر، فكان رأي فرعون أن يقتله خشية أن يكون هذا الغلام من بني إسرائيل وجادلته (آسيا) قائلة (عسى أن ينفعنا أن نتخذة ولداً) فقال لها فرعون بل ينفعك أنت، وحقيقة الأمر أن الله نفعها بموسى فصداقه وأسلمت لله رب العالمين ونفعها بالآخرة فأسكنها الله الجنة بسببه، طفق جنود فرعون يبحثون عن مرضعة للصبي، فلم يجد وزير السوء هامان أحداً رفض موسى ثدي المرضعات، وكانت أخت موسى في حيرة من أمرها فموسى لا يريد الرضاعة من أحد فقالت لهم هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون قالوا وما يدريك من أنهم ناصحون؟ قالت رغبة في سرور الملك.

فأخذتهم إلى بيتها فأخذته أمه وبدأ يرضع فذهب البشير إلى (آسيا) يعلمها أن الطفل بدأ يرضع فاستدعت آسيا أم موسى إلى القصر وقامت على إرضاع الطفل. وبينما كانت (آسيا) تراقص موسى وتلاعبه وإذا بموسى ينتف لحية فرعون فاستشاط غضباً وقال آسيا هذا غلام بني إسرائيل فقالت آسيا لفرعون إنما هو صبي يلعب وحتى أثبت صدق مقولتي فسأطرح أمامه الحلي والجمر من النار ونرى، فما كان من موسى إلا أن أخذ الجمرة ووضعها في فمه فأحرق لسانه، فصدق فرعون، وصار موسى محبوباً عند فرعون وزوجاته وخاصة آسيا.

وقيل أن أم موسى قالت لآسيا أن لي بعلاً وأولاداً ولست أقدر على رعاية موسى فهلا ترسلينه معي فأرسلته معها ورتبت له الهدايا والمنح.

قال تعالى: (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) (القصص 13)، وهذه منة من الله تعالى على موسى وأمه، ومن الله عليه محبة الناس فرغم عيشه في القصور، منعماً إلا أنه كان يحب الاختلاط بطبقات الشعب على غير عادة أمراء القصر الفرعوني فلم يره أحد أو خالطه أحد من الناس إلا أحبه.

قال تعالى: (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (38) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَلَقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) (سورة طه، الآية 37 - 40).

لم ينس موسى قومه ولم تغره حياة القصور آلام قومه، ولما بلغ الأربعين من عمره منحه الله النبوة والرسالة.

لكن حادثة عظيمة أثرت في مجرى حياته قال تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَاعَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) (سورة القصص: الآية 14 - 22).

لما بلغ سيدنا موسى مبلغ الرجال وصار عمره أربعين سنة على أرجح الأقوال منحه الله النبوة، فدخل مدينة فرعون وهي مدينة (منف) المصرية بمصر القديمة، ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان أنه كانت بيوتاً متصلة وفيها قصر فرعون، فدخلها موسى منتصف النهار.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي دخلها نصف النهار، وقال ابن عباس بين العشائين فوجد إسرائيلي وقبطي يتضاربان فاستغاب به الاسرائيلي فقد كانت لموسى صولة سيما وأنه تربي في قصر فرعون وتبناه فرعون وزوجته آسيا فعزت بنو إسرائيل بموسى وصارت لهم وجاهة، فاستغاث الإسرائيلي بموسى فما كان من موسى إلا وأن وكز القبطي قال مجاهد بمجمع كفه قال قتادة بعصا كانت معه ففضى على القبطي ومات القبطي لساعته.

عندها أحس موسى بالذنب فاستغفر الله، كيف قتل رجلاً ودعا ربه أنك يا رب قد أنعمت علي بالجاه والسطوة فلا تجعلني أكون ظهيراً للمجرمين، قال النبي صلى الله عليه وسلم (من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط المستقيم يوم القيامة يوم تزل الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام) وفي الحديث من مشى مع ظالم فقد أجرم فالمشي مع الظالم لا يكون جرماً إلا إذا مشى معه ليعينه.

فأصبح موسى خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ ها وقيل أصبح خائفاً من قومه وأن يسلموه وقيل أصبح خائفاً من الله تعالى.

فتجول بين الناس يترقب ما تؤول إليه الأخبار ولم يكن أحد يعلم بموت القبطي إلا الإسرائيلي، فخشي موسى أن يظن به فرعون ظن سوء وتعود إليه عقده بأنه ذلك الإسرائيلي الذي يريد هدم عرش فرعون، وبينما كان موسى يشعر بالخوف شاهد قبطياً آخر يتشاجر مع إسرائيلي، فطلب الإسرائيلي النجدة من موسى، فقال له موسى إنك لغوي خائب لا تستطيع حماية نفسك مضل قتلت بسببك رجلاً يوم أمس وتدعوني اليوم لقتل آخر وأراد الإسرائيلي أن يبطش بالقبطي فنهاه موسى فتوهم الإسرائيلي أن موسى يريد فحاف الإسرائيلي من موسى وقال له أتريد أن تبطش بي كما قتلت شخصاً آخر

بالأمر إنك لا تريد إلا تكون جباراً في الأرض ولا تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس وسمع القبطي القول فأخبر فرعون وصمم على قتل موسى، قال عكرمة والشعبي لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسه.

وجاء رجل إلى موسى وهو ابن عم فرعون وكان مؤمناً واسمه حزقيل ابن صبوراً، فقال له إن القوم يتآمرون عليك لقتلك بسبب قتل القبطي فاخرج من هذه القرية إني لك ناصحاً، فخرج من المدينة خائفاً يترقب فتك الناس به، فخرج فاراً بنفسه بلا زاد ولا راحلة ولا علم بالطريق وتوجه إلى مدين بلد شعيب عليه السلام، ومدين هذه منطقة تقع جنوب معان إلى الطفيلة فالرك فالأغوار، وكان فيها شجر الأيك، وكانت المنطقة مليئة بالأشجار، كثيرة الينابيع والعيون، وكان الجنوب الأردني فيما مضى جنان لكن معاول المعدنيين قد قطعت الأشجار إضافة إلى الرعي الجائر فتفككت التربة وسحبت السيول التراب الذي يغطي قمم الجبال وظهر الجبل صخراً صلباً خالياً من الحياة.

غير أن الذي شجع موسى على التوجه إلى مدين هو النسب بين النبيين الكريمين فشعيب من ولد إبراهيم وموسى من ولد يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم فدلّه ملك على الطريق قال لموسى اتبعني فتبعه، وصارت معه عصا يحملها لرعي الغنم.

### موسى في الأردن

توجه موسى عليه السلام تاركاً حياة القصور والنعيم إلى الأردن إلى مدين وكان يأكل الحشائش في الطريق فخرج من مصر خائفاً استبشاراً بالنبوة وكي يبتليه الله، فقدّر الأنبياء الاختبار.

لهذا كان يحس أنه يريد أن يكشف عن اسرائيليته ويبين أنه انحاز إلى بني قومه، حتى يتأكد فرعون أن موسى هو الشاب المطلوب الذي يريد أن يدمر عرش فرعون، سار موسى في طريق موحش يبحث عن النجاة، وعقد فرعون مجلساً يتذكر مواقف موسى معه، ويبين لحاشيته حادثة نتف اللحية، فجذ الذباحون في طلب موسى، وجد موسى في السير مردداً (عسى ربي أن يهديني إلى سواء السبيل) ويصل إلى مدين وتبدأ في مدين معه قصة أخرى يحدثنا القرآن الكريم عنها قائلاً: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ

يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). (سورة القصص - الآية 21 - 24).

ورد موسى ماء مدين وكان وحيداً اقتات الأعشاب وقطع المسافة من منف المصرية إلى مدين براً وهذه معجزة أخرى من معجزات النبوة، ولما وصل الماء وجد أقواماً يسقون أغنامهم ونظر وإذا بفاتنتين تبعدان غنمهما عن الناس فتجراً هذا الرجل الغريب وسأل الفاتنتين لم تتأخران عن السقيا؟ فالتا ننتظر حتى يفرغ القوم من سقي أغنامهم وجئنا هنا لأن والدنا شيخ كبير لا يقوى على الرعي، وكان الرعاة إذا فرغوا من السقيا يغلقون العين بحجر كبير قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان حجر ماء مدين لا يقوى على حمله إلا عشرة رجال.

لما أتم الرعاة السقيا أغلقوا الماء فمنح الله موسى قوة كبيرة تمكن من إزاحة الحجر وسقى أغنام الفاتنتين.

عادت الفاتتان إلى أبيهما، وكان أبوهما النبي شعبياً عليه السلام ثم انزوى موسى إلى الظل داعياً الله أن يخلصه من هذه المحنة وبينما هو غارق في الدعاء إلى الله جاءته إحدى البننتين فقالت له على استحياء إن والدي يدعوك لزيارته فقد شرحنا له موقفك، فلما جاء موسى إلى شعيب وقص عليه قصته قال نجوت من القوم الظالمين.

قدم شعيب إلى موسى الطعام فأبى وهو الجائع خشية أن يقال أنه أخذ على عمله من الفاتنتين أجراً، فاستغرب شعيب تصرف موسى، ورد عليه موسى بأدب جم (أنا من أهل بيت لا نأخذ على اليسير من عمل الآخرة الدنيا بأسره، فسر منه شعيب).

قال ابن عباس رضي الله عنهما سار موسى من مصر إلى مدين حافياً ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، فلما وصل مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس إلى الظل وإن بطنه لاصق بظهره وإن خضرة البقل لتري من داخل جوفه.

اختلف المفسرون في أمر شعيب فمن قال أنه نبي الله شعيب وهو الراجح وهو المشهور عند كثير من العلماء.

والرأي الثاني يرى أن شعيباً هذا رجل مؤمن من قوم شعيب لبعد المسافة الزمنية بين شعيب وموسى عليهما السلام وهذا أمر مقبول.

لما سكنت نفس موسى واطمأنت أشار القرآن الكريم إلى أمر هام هو أن بنت شعيب قالت لوالدها يا أبت اجعله أجيراً عندنا ليساعدنا في رعي الغنم، والقرآن الكريم يروي القصة مفصلة، قال تعالى: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) (سورة القصص، الآية 26 - 28).

عرض نبي الله شعيب على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه بعد أن مدحت البنت موسى وهو القوي لرفعه الصخرة التي على نبع الماء، وفي ذلك إشارة إلى جواز أن يعرض ولي أمر البنت ابنته للزواج.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة إلى البئر ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما؟ فحدثته فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستقي إلا ذئوباً (دلواً) واحداً حتى ارتوت الغنم حيث حصلت البركة والكرامة لموسى عليه السلام.

قالت البنت: يا أبت اجعله أجيراً عندك في رعي الغنم فهو قوي أمين قال شعيب أريد أن أزوجه إحدى ابنتي هاتين على أن تقوم برعي الغنم ثماني سنوات وإن أتممت عشر فهذا كرم منك واتقفا.

فموسى عليه السلام كان قوياً عندما رفع الصخرة التي سدها القوم في بئر مدين، وأميناً لأنه لما سار مع الفتاة قال لها كوني ورائي فإذا اختلف الطريق فإحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي به فوصل موسى إلى أبيها شعيب قال شعيب: أريد أن

أزوجك إحدى ابنتي على أن تساعدني في رعي الغنم ويكون المهر ثامني سنوات وإن أتممت عشراً فمن عندك.

وقيل وهذه سنة السلف الصالح أن يعرض ابنه على الرجل الصالح ليزوجه، فقد عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبو بكر وعثمان، وهناك دلالة فقهية أخرى أن يعرض الأجر بالطعام والكسوة قال موسى: اتفقنا على ما قلته والله شاهد وتزوج موسى وصار شعيب عليهما السلام صهراً له، انتهت مدة العقد بين النبيين انتهت الأعوام العشرة فقرر العودة إلى مسقط رأسه مصر، ففكر في طريقة للوصول إلى مصر وهو أن يذهب إليها متخفياً خشية بطش فرعون وأعوانه بعد أن من الله عليه بالولد والزوجة الصالحة.

غادر موسى ديار صهره، وقد أهداه صهره غنماً لتساعده في الحياة، وكان مسروراً من فكرة الذهاب إلى مصر فهو مشتاق إلى أهله بعد أن أكمل العقد بينه وبين شعيب وسمع أخبار طيبة تنبئ بوفاة فرعون مصر فخرج في ليلة باردة قدر الله الأسباب لتكون ليلة مشهودة فتأهوا في الطريق وأنقلهم السير، قال تعالى:

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّهُمَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (سورة القصص، 29 - 32).

سبحان الله مقدر الأسباب ومهيأ الأقدار والظروف، سار موسى بأهله في ليلة باردة مظلمة واشتد الظلام والبرد وبينما هو كذلك إذ أبصر ناراً تتأجج، وهي في حقيقة الأمر ليست ناراً بل نور الله، فقال لأهله امكثوا هنا لعلني أستعلم من عندها عن الطريق ولأحضر جذوة منه للتدفئة، فلما وصل إلى النار وجدها تتأجج في شجرة خضراء قيل شجرة من العوسج وكلما زادت الناء تأججاً زادت الشجرة خضرة، فوقف مشدوهاً، كان

موسى في منطقة (طوى) مستقبلاً القبله فناداه ربه أن يا موسى اخلع نعليك إنك في بقعة مباركة وفي ليلة مباركة فما كان من موسى أن يضع يديه على عينيه ليحميهما من شدة النور عندها خاطبه الله تعالى إنني أنا الله رب العالمين لا تصلح العبادة والطاعة إلا له سبحانه ثم أخبره أن هذه الدنيا فانية زائلة وأن دار البقاء هي الدار الآخرة، وحثه على الطاعة والعمل، وما عليك إلا أن تلقي عصاك فهذه معجرتك فلما ألقاها إذا هي حية تهتز كأنها جني فخاف موسى من المشهد فخاطبه ربه لا تخف إن هذه العصا هي برهان ومعجزة عن فرعون وقومه، فهؤلاء فسقة يجب أن تذهب لهدايتهم.

واختلف المفسرون في العصا، قال بعضهم كانت العصا من الشجرة المباركة التي كانت تشتعل نوراً من شجرة العوسج وهذا قول قتادة.

وقال آخرون هي عصا شعيب اختارتها زوجته (صفورا) له قبل الزواج لتساعده على الرعي والذي يهمن أن العصا كانت معجزة من المعجزات فكانت حية تسعى أمام سحرة فرعون وهي عصاي - كما يقول موسى عليه السلام اعتمد عليها في هذه الطريق الموحشة وحتى يهش الأشجار لتسقط الأوراق اليابسة لتأكلها الغنم بالإضافة إلى مآرب أخرى، أما موضوع يده عليه السلام فكانت معجزة أيضاً، حيث أمره الله بادخال يده إلى جيبه فإذا هي بيضاء كالقمر تتلألأ دونما مرض أو تشويه أو برص، قال ربه إذا خفت فضع يدك إلى فؤادك يسكن فؤادك، ويجوز لنا أن نفعل ذلك اقتداءً بالأنبياء.

وقد منحه الله سبع آيات أخرى ليصبح الجميع تسع آيات قال تعالى : (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133)) (الأعراف) والتسع آيات تختلف اختلافاً جذرياً عن الكلمات العشر فالتسع آيات هن كلمات الله القدريه أما العشر فهي الشرعية.



فالآيات العشر هي العصا واليد والأخذ بالسنين والمجاعة والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

كانت ليلة مباركة تلك الليلة التي كلم الله بها موسى عليه السلام، وصار الجبل - جبل طور سيناء مباركاً، ولم يبق عليه بعد أن تسلح بمعجزات ربه وإطمأنت نفسه - إلا أن يلاقي الطاغية فرعون حاكم مصر الجديد ويدعوه إلى عبادة الله وحده، إذن لا بد للعودة إلى مصر تنفيذاً للأمر الإلهي: (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِّي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (36)) (سورة طه، الآية 24 - 36).

طلبات مشروعة طلبها موسى من ربه، طلب أن يشرح صدره وييسر له أمره لضمان نجاح دعوته، وأن يحلل عقدة لسانه، هذا اللسان الذي احتراق من جمرة النار وهو طفل حتى يتسنى له شرح دعوته أمام فرعون وطلب من ربه أن يجعل له معيناً في مشواره الإيماني، وأن يكون المعين أخاه هارون، فأجابه الله واستجاب لسؤاله، عاد موسى والتقى بأهله، وأخبر هارون أن الله اختاره وزيراً.

لقد أمر الله نبيه أن يتوجه الى فرعون ليبلغه الرسالة واتجه نحو القصر في (منف) بمصر القديمة، وطلب من الحراس مقابلة فرعون فسمح له بالدخول وطمأن الله نبيه أنه معه يرى ويسمع وهما (هارون وموسى) في رعاية الله وحفظه.

قال تعالى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَىٰ (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (46)) (سورة طه، الآية 42 - 46).

وفي القصر الملكي بدأت المواجهة الحقيقة فقال فرعون لموسى:

- ما شأنك؟
- أنا رسول رب العالمين.

- ألم نريك صغيراً وفعلت فعلة سيئة بقتلك القبطي؟
  - نعم فعلت ذلك وأنا ضال، فتركت مصر وهداني الله وجعلني نبياً.
  - هل جئت بأية تدل على نبوتك؟
- ألقى موسى عصاه على الفور فإذا هي ثعبان ضخم أخافت فرعون قال له موسى هل لك في أن أعطيك شبابي فلا تهرم فإن مت دخلت الجنة، وتؤمن بي.
- قال فرعون هاتوا وزير ي هاما
- حضر هاما وكان طاغية أشد من الطاغية، كان مستشار فرعون ووزيره وقائد جيشه
- فعرض فرعون على هاما أقوال موسى فاستخفها
- قال تصير تعبد بعد أن كنت تُعبد؟
- هذا ساحر عليك بقتله، فهم فرعون بقتل موسى، وكان بين الحاضرين رجل مؤمن فقال لهم أقتلوا رجلاً أن يقول ربي الله؟
- فاجتمع الملاء لإبطال سحر موسى لقد ظنوا العصا سحراً فاجتمع السحرة قيل كانوا سبعين ساحراً، وقال آخرون كانوا ثلاثين فاجتمع بهم موسى ونصحهم بالرجوع إلى الله لكن السحرة كانوا أشد استكباراً من فرعون فرموا عصيهم وحبالهم، وأمر الله نبيه أن يرمي عصاه فإذا هي ثعبان ضخم يلقف العصي والحبال التي أصبحت في عيون الناس أفاعي، وانتهى المشهد، وكان رئيس السحرة أعمى فقال: ما الذي حدث، قالوا: أفعى موسى ابتلعت كل شيء، قال: هذا ليس بسحر فخر ساجداً لله مؤمناً برسالة موسى كافراً بفرعون وتبعه السحرة فاتهمه فرعون أن موسى هو الذي علمهم السحر، وقال لهم فرعون آمنتم قبل أن آذن لكم سأقطع أيديكم وسأصلبكم على جذوع النخل (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) (سورة طه، الآية 71).
- استشاط فرعون غضباً فأقبل على قتل السحرة، وقتل الرجل الصالح حزقيل الذي تشفع بموسى عند دخوله القصر واستشهدت (آسيا) تحت التعذيب وهي تقول: (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). (سورة التحريم، الآية 11).

ورغم معجزات موسى دعا موسى فرعون أن يؤمن بخالق هذه السموات والأرض والكواكب فظل في ضلاله قائلاً: (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (سورة الشعراء، الآية 37 - 38).

ولم يستطع فرعون أن يواجه الحجج، فهدد موسى بالسجن أو اخراجه من مصر. تمادى فرعون وقومه في الضلالة، وظلوا سائرين في الطغيان ولم يؤمن به إلا نفر قليل، والسحرة من هذا النفر.

قال ابن عباس: "كان فرعون أول من صلب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف فقد نطق السحرة بالحق وقالوا (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا) (سورة طه، الآية 72) وقالوا له احكم بما شئت ووقف الطغيان عاجزاً أمام الايمان وقال فرعون لوزير ابن لي قصراً عالياً حتى أصل إلى إله موسى لأقتله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (سورة القصص، الآية 38).

قيل لما بنى هامان القصر ارتقى إليه فرعون ورمى بسهم إلى السماء فارتد مخضباً بالدم فقال قتلت إله موسى قال تعالى (وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) (ورة غافر، الآية 37).

ازدادت نعمة فرعون على بني اسرائيل واشتد عليهم البلاء، فقال بنو اسرائيل لموسى لقد أودينا قبل مجيئك وأودينا بعد مجيئك فطمأنهم وقال لهم اصبروا سيجعلكم الله خلفاء في الأرض، أما قوم فرعون فهددوا بقتل بني اسرائيل (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)) (الأعراف 127 - 129).

قرر موسى الخروج من مصر ومعه قومه وقبل أن نواصل رحلة الخروج يجدر بنا أن نقف عند شخصية يوشع بن نون وقصة قارون مع موسى ولنبدأ بالشخصية الأولى يوشع بن نون وموقفه من بلعم بن باعوراء.

### يوشع بن نون:

عسكر الجيش الإسرائيلي في حسان بقيادة موسى عليه السلام بعد خروجه من صحراء النيه (سيناء) وقسم بني إسرائيل إلى اثني عشر فريقاً (سبطاً) على كل سبط نقيب، وكان يوشع بن نون هو نقيب السبط الخامس وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة رجلاً. مارس يوشع بن نون مهمات في النيه فكان مرافقاً لموسى عليه السلام وقد أمره موسى بقيادة الجيش الإسرائيلي والتوجه إلى الأرض المباركة لمحاربة الجبارين.

### نسبه:

يوشع هو الخليل يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام ويقول أهل الكتاب أن يوشع هو ابن عم هود.

لم يصرح القرآن الكريم بذكر يوشع ولكنه كان مرافقاً لموسى في قصة الخضر عليه السلام، قال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ) (سورة الكهف، الآية 60).

أمر بنو إسرائيل بالتوجه على بيت المقدس لمحاربة الجبارين فتوجه يوشع بن نون على بيت المقدس وأثناء توجههم كان بلعام (بن باعوراء) قد شجع الزنا في بني إسرائيل ويقول فيه تعالى: (وَائْتِلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177)) (سورة الأعراف، الآية 175 – 177).

وبلعم طلب أن تتزين النساء وتتجه على معسكرات بني إسرائيل فمرت امرأة منهم (كسبتي) بأحد عظماء بني إسرائيل وهو (رمزي بن شالوم) فخلا بها وزنى بها فسلط الله عليهم الطاعون فدخل فنحاص بن اليعازر بن هارون فقتل من في القبة فرفع الله عنهم الطاعون، فاتجه الجيش نحو أريحا بفلسطين.

جاء في تفسير ابن كثير أنها نزلت في رجل من بني إسرائيل هو (بلعام بن باعوراء). قال قتادة عن ابن عباس، هو (صيفي الراهب) وقال كعب كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان معلماً في بيت المقدس مع الجبارين. وعن ابن عباس رضي الله عنه هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم أتاه الله آية فتركها، وقال مالك بن دينار كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى رضي الله عنه إلى مالك (مدين) يدعوا إلى الله فاقطعه، فترك دين موسى وقال سفيان بن عيينه عن ابن عباس هو بلعم بن بعوراء وهو الراجح.

لكن ثقيف يقول أنه أمية بن الصلت والواقع أن أمية بن الصلت يشبهه، فقد أدرك أمية بن الصلت زمان النبوة وتعلم الكثير من الشرائع المتقدمة ولم ينتفع بعمله فهو شبه بلعم بن باعوراء فقد شايح أمية بن الصلت المشركين وولاهم وناصرهم ورثى أهل بدر من المشركين.

كان بلعم بن باعوراء يعلم اسم الله الأكبر وقد كان مجاب الدعوة لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، فلما جاء موسى الجبارين هرع قوم بلعم بن باعوراء فقالوا إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وأن يظهر علينا يهلكنا فادع ربك أن يرد عنا موسى ومن معه فقال بلعم بن باعوراء: إن دعوت أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وأخرتي، فلم يزل يلحون عليه حتى دعى عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فلما انقضت الأربعون سنة التي قال الله فيها (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة) بعث الله يوشع بن نون نبياً فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وقد أمره الله أن يقاثل الجبارين فبايعوه وصدقوه فانطلق إلى رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء وكان عالماً يعلم الاسم الأكبر المكتوم فكفر لعنه الله وأتى الجبارين فقال: لا ترهبوا بني إسرائيل فإنني إذا خرجت عليهم تقاثلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون، وقوله تعالى (فاتبعه الشيطان) أي استحوذ عليه وعلى أمره فهو يمثل له في كل حال ولهذا قال تعالى (فكان من الغاوين) أي الهالكين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من الغواية روى حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن

حتى رويت بهجته عليه وكان داؤه الإسلام اعتزاه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك قال: قلت يا نبي الله أيها أولى بالشرك المرمي أم الرامي، قال بل الرامي (أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي).

قال محمد بن اسحاق عن أبي النضر "أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم بن باعوراء إليه فقالوا له هذا (موسى بن عمران) فتى بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وأنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فأخرجه فادع الله عليهم قال ويلكم نبي الله من الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليه وأنا أعلم من الله ما أعلم قالوا له ما لنا من منزل فما زالوا يرتقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتت فركب حماره له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسان فلما سار عليها غير كثير بصت به فنزل فضربها حتى اذ ألزقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت له ويلك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعوا عليهم فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعوا عليهم ولا يدعوا عليهم بشر إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعوا لقومه بخير إلا صرف الله لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه يا بلعم أتدري ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال فهذا ما لا أملك هذا شيء قد غلب الله عليه قال فاندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم الآن ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والخديعة جمعوا النساء وأعطوهن السلع وابعثوا بهن إلى معسكر بني إسرائيل ومرروهن ألا تمنع امرأة نفسها من رجل إذا أرادها فإنه إن زنى منهم رجل واجب كفيتموهم ففعلوا.

مرت امرأة من الكنعانيين برجل من عظماء بني إسرائيل واسمه (رمزي بن شالوم) فلما رآها أعجبته فقام وأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال إني سأظنك سنقول هذا حرام عليك لا تقربها قال أجل هي حرام عليك فوالله لا أطيعك فدخل بها قبتة فوقع عليها فأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل وكان صاحب موسى (فنحاص) غائباً حين صنع رمزي بن

شالوم ما صنع فأخذ حريته ثم دخل القبة فوجدهما متضاجعان فانتظمهما بحريته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أصاب رمزي المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً والمقلل لهم يقوم عشرون ألف في ساعة من النهار ففي بلعم بن باعوراء أنزل (وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وأخرج ابن جرير فيه أن الزنى وقع من عدد من الجند الذين كانوا مع موسى عليه السلام فسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً وقوله تعالى: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) يقول ابن اسحق عن سالم بن النضر في تفسير هذه الآية إن بلعاماً اندلع لسانه على صدره فصار كالكلب في لهته إن زجر وأن ترك وقيل صار في ضلالة كالكلب في لهته في حالتيه إن حملت عليه وأن تركته هو يلهث في الحالين، وهو كالكلب بعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء وقوله تعالى (فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فاقصص القصص لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وفي اضلال الله إياه وإبعاده عن رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليم الاسم الأعظم حيث إذا سئل أعطي ولكنه استغل الاسم الأعظم فدعا على حزن الرحمن في زمن موسى عليه السلام. لعلهم يتفكرون فيحذروا أن يكونوا مثله.

فالله أعطى العرب علماً وميزهم عن الأعراب فهم أحق الناس باتباع دين محمد صلى الله عليه وسلم فهم يعرفون صفته كما يعرفون أبناءهم لهذا فإن من خالفه فقد ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا هم لها إلا تحصيل الطعام من خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب.

إن الله ما ظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم في عدم إتباعهم الهدى والاقبال على تحصيل الذات واتباع الهوى.

### التوجه إلى بيت المقدس

عبر يوشع بن نون نهر الأردن واتجه صوت أريحا وكانت محصنة عالية الأسوار آهلة بالسكان فحاصرها ستة أشهر وذات يوماً ضربوا الأبواق وتجمعونا وكبروا تكبيرة واحدة فتفسخ السور ودخلوا أريحا واعملوا السيف في أهلها وقتلوا اثني عشر ألفاً من رجالها ونسائها ودخلها يوم الجمعة قبل العصر، وقد دعا يوشع ربه أن يؤخر الشمس عن الغروب فحبسها الله حتى يدخل بيت المقدس.

وهذا دليل آخر على أن فاتح القدس هو يوشع بن نون لا موسى عليه السلام فقد توجه موسى نحو المشرق ومات في الأردن فمن قائل أنه مات في جبل نيبو في مادبا ومن قائل أنه مات في البتراء بوادي موسى لم تكن قيادة أتباعه هي المرة الأولى التي تولاهها يوشع بن نون، فقد كلفه موسى عليه السلام بقيادة الجيش الإسرائيلي لمقاومة الدولة الأمورية حتى يضمن موسى الوصول إلى جبل نيبو.

أمر يوشع قومه أن يدخلوا بيت المقدس خاشعين وقولو (حطة) قال تعالى: (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162) الأعراف 161 - 162 فبدل أن يدخلوا ساجدين دخلوا على استأهم زاحفين وأمروا أن يقولوا (حطة) أي يستغفروا وبدلوا القول الذي قيل لهم فقالوا (هطي سقانا أزمة نزيا) وهي بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شقرة سوداء).

عن ابن عباس عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستأهم فقالوا: حبة في شعيره).

وقد ذكر الله عاقبة هذه المخالفة الذي أنزله عليهم، قيل هو الطاعون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم"، ولما استقرت الأمور في بيت المقدس لبني إسرائيل وبين أظهرهم نبي الله يوشع بن نون كان يحكم



بكتاب الله (التوراة)، حتى قبضه الله إليه عن عمر مائة وعشرين سنة فقد عاش بعد موسى سبطاً وعشرين سنة.

### دروس وعبر:

1- المتتبع لقصة يوشع بن نون يرى أنه عاش على ثرى الأردن، وتجول في أرجائه، وكان ملازماً لموسى عليه السلام.

2- تُذكر قصة دخول موسى لبيت المقدس بدخول سيدنا "محمد صلى الله عليه وسلم" الذي دخل فاتحاً وكان مطاطئ الرأي إجلالاً لله وتواضعاً.

3- إن موسى عليه السلام لم يدخل بيت المقدس فاتحاً، وإنما الذي دخل بيت المقدس هو يوشع بن نون.

4- إن عاقبة الزنا وخيمة تؤدي إلى عصيان الله فيقع بسببها الأمراض.

5- إن الأردن شاهد على أحداث التاريخ، وهو رابطة الوصل بين شعوب العالم القديم، وعلى ثراه عاش أنبياء الله الكرام يشع نورهم إلى أرجاء الدنيا.

### قصة قارون مع موسى

كان قارون من أغنى أغنياء عصره، وهو ابن عم موسى عليه السلام، فقارون هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى هو موسى بن عمران بن قاهث كان يسمى المنور لجمال صوته عندما يقرأ التوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري وغره كثر ماله فبطر وبغي وأطال ثوبه شبراً ليترفع عن الناس، كانت خزائن ماله كثيرة جداً، وما كانت مفاتيح تلك الخزائن يتقل حملها وكانت تحمل على ستين بغلاً وقد وعظه خلصائه بأن لا تفرح لما أنت فيه من نعمة ولا تبطر وليكن مالك لتحصيل ثواب الآخرة، فتمتع بمالك في الدنيا ولا تنس نصيبك من الآخرة، لكنه لم يستمع إلى النصيحة فقال: إنما أعطانيه الله من خير لأنني استحقته، ولو أني حبيب عند ربي ما أعطاني. ذات يوم خرج قارون في زينته وفخره فخسف الله به الأرض، روى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بيننا رجل يجر إزاره خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة) كاد قارون لموسى بأن قال لامرأة ساقطة قولي أمام الملاء أن موسى فعل بي

الفاحشة فقالت فأقبل عليها موسى فسألفها من حملك على ذلك؟ فقالت قارون واستغفرت الله وتابت.

لما خرج قارون في زينته لم يكفه اتهام نبي الله بالزنا من قبل امرأة بل مرة بالقوم فلم يستمع إلى ذكر الله، فسأله موسى عما تقدم من كذبه قال: الله فضلك بالنبوة وفضلني بالمال فقليل: فدعا عليه موسى فخسف به الأرض وبمن معه قائلاً اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض.

وقد ذكر قارون في أكثر من موضع وحمل القرآن الكريم أكثر من مذمة فيه، قال تعالى: (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)) (سورة العنكبوت، الآية 39-40).

وهكذا فإن التكبر والبطر بالنعمة كلها أمور تستوجب عقاب الله وغضبه.

#### العودة إلى الأردن مرة أخرى:

دعا موسى ربه أن يطمس على أموالهم حتى يروا عذاباً شديداً، فقد فشلت كل السبل لإقناعهم بالدعوة.

قال ابن عباس أطمس على أموالهم أي أهلكها، وفسرها أبو العالية اجعلها حجارة على هيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة قال ابن عباس: وأما قول موسى (واشدد على قلوبهم حتى يروا العذاب) أي اطبع عليهم، وهذه دعوة غضب فاستجاب الله لدعوة موسى وحققها.

قال المفسرون استأذن بنو إسرائيل من فرعون للخروج في عيدٍ لهم فأذن لهم وهو كاره، واستعاروا حلبيهم فأعاروهم شيئاً كثيراً فخرجوا بليل، عندها أدرك فرعون أنهم قاصدون الشام فشرع يحث جنوده كي يلحقوا بهم قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي مِنْكَ مُتَّبِعُونَ (52) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

(57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)) الشعراء 52 - 68.

ركب فرعون وجنوده في أثر بني إسرائيل، بعد أن مكث بنو إسرائيل في مصر أربعمائة وست وعشرون سنة، وظل فرعون يجد في أثرهم فأدركهم عند شروق الشمس، فلما تراءى الجمعان، وعابن كل فريقه وتحقق منه لم يبق شيء سوى القتال عندها قال أصحاب موسى: (إنا لمدركون) ولم يبق لهم طريق سوى البحر (البحر الأحمر) فاتجهوا إليه، فيمينهم وشمالهم جبال شاهقة، وفرعون خلفهم وليس أمامهم سوى البحر، كان بنو إسرائيل خائفين من فرعون أشد الخوف، فقد عاشوا سنين طويلة من الذل والعذاب والسخرة، واعتقدوا أنهم عائدون لسنوات أشد من التي مضت وأقصى، فاشتكوا إلى نبي الله موسى عليه السلام، طمأنهم وقال لهم "إن معي ربي سيهدين" وكان موسى في مؤخرة القوم فتقدم إلى المقدمة وشاهد البحر تتلاطم أمواجه وهو يقول: (ها هنا أمرت، ها هنا أمرت) ومعه أخوه هارون والمؤمنون وسادات بني إسرائيل، فلما اشتد عليهم الأمر وزاغت القلوب أوحى الله إلى موسى (أن اضرب بعصاك البحر) فانفلق ويقال: أنه انفلق اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق يسرون فيه، وقيل وفي كل طريق شبابيك في الماء ليشاهد بنو إسرائيل بعضهم بعضاً، أما قوم فرعون فأطبق عليهم البحر فغرقوا، لما أحس فرعون بالنهاية قال: (قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) أَلَا الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (سورة يونس، الآية 90 - 91).

أهلك الله فرعون وقومه، ونجى موسى ومن معه من بني إسرائيل، فقال قوم موسى لنبيهم: آتانا الكتاب الذي وعدتنا به، كان خروج قوم موسى مع نبيهم لم يكن خروج طاعة لله أو هجرة في سبيله بل كان خروجهم هرباً من أذى فرعون وكان الله يأتيهم

بكتاب ناصح لهم يرشدهم إلى الطاعات وإلى تجنب الآثام، فسأل موسى ربه أن ينزل عليه الكتاب فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً تبدأ من الأول من ذي القعدة، فسار إلى الجبل واستخلف أخاف هارون وأوصى موسى أخاه هارون خيراً ببني إسرائيل، قال تعالى: (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ). الأعراف 142.

يبين الله تعالى فضله على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية، فقد كلم موسى وأعطاهم التوراة وفيها أحكام وتفاصيل شرعهم، قيل: صام موسى شهر ذي القعدة، ولما أتمها إستاك بلحاء شجرة فأمره الله أن يتبعه بعشر من ذي الحجة روى ذلك ابن عباس وغيره.

لما أتم موسى الصيام، قلنا أنه استخلف أخاه هارون ووصاه بالاصلاح، وهذا تنبيه على أن هارون نبي كريم، ولما جاء موسى إلى الجبل كلمه الله تعالى وطلب منه أن ينظر إلى الجبل، وقال الله لموسى انظر إلى الجبل فإن استقر في مكانه فإنك ستراني فلما تجلى الباري للجبل جعله دكا، قال ابن جرير والطبري أنه لما تجلى للجبل جعله دكا، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (فلما تجلى ربك للجبل جعله دكا) قال هذا وأشار بالسبابة وقال قتادة: وخر موسى صعقاً أي مات وقال الثوري: ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر، وعن عروة بن رويم قال لما تجلى الله للجبل صارت الشقوق والكهوف، والصحيح أن الله لما تجلى للجبل أغشى على موسى.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه قال: يا رسول الله إني قد مررت باليهودي فسمعتة يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، قال: وعلى محمد قال: قلت وعلى محمد وأخذني غضبه فلطمته قال (لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من أفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور) (رواه البخاري ومسلم وأبو داود).

## عبادة العجل:

رجع موسى إلى قومه ومعه التوراة ولكنه لما تأخر عن موعد الحضور بعد ثلاثين يوماً فعل بنو إسرائيل فعلة مشينة وهي عبادة العجل قال تعالى: ( وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئاًلَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ) الأعراف .

يخبرنا الله عز وجل أنه لما ذهب موسى لميقات ربه يسأل ربه، عمل رجل من بني إسرائيل واسمه هارون السامري فأخذ ما كانوا استعاروه من حلي الفراعنة ثم صاغ لهم عجلاً وأخذ حفنة من أثر فرس جبريل، خار التمثال كما يخور العجل الحقيقي قال قتادة كانت الريح إذا دخلت من دبره وخرجت من فمه يخور كما يخور العجل فيرقصون حوله، وقال لهم السامري هذا هو إلهكم وإله موسى نسيه هنا، وذهب يبحث عنه في الجبل.

لما رجع موسى عليه السلام وشاهد عبادتهم للعجل فعنفهم، قالوا له هذه حلية آل فرعون وذهب إلى أخيه هارون وقال له: ما منعك إعلامي، قال خشيت أن تقول تركتهم وجئنتي إلى الجبل وقد استخلفتني، واقبل على أخيه هارون ممسكاً لحيته وهارون يقول له (يا ابن أُمي) ليثير في نفسه أقوى عاطفة وهي عاطفة الأمومة، فسأل الله أن يغفر له ولهارون، وحذر قومه من العذاب وذكرهم بالتوبة فالله حلیم لمن تاب ولكنه لم يقبل توبة عابدي العجل إلا بأن يقتلوا أنفسهم، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (سورة البقرة، الآية 54).

أخذ الذين يعبدون العجل السيوف وألقى عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ويقول ابن كثير: أنهم قتلوا من عابدي العجل خلقاً كثيراً.

بعدها أخذ موسى سبعين صالحاً وطلب منهم أن يتوبوا إلى الله ويبتعدوا عن الخطايا وتوجه إلى الجبل كي يصوم هناك ثلاثين يوماً متتابعة إلا أن الله أمره أن يصوم أربعين يوماً، لقد وعد موسى بالعودة بعد ثلاثين يوماً ولكنه عاد بعد أربعين يوماً، حدث أمر عجيب في غيابه كما قلت وهو عبادة العجل.

سمع بعض بني إسرائيل موسى وهو يكلم ربه في طور سينين ورفضوا التوراة فتأهوا في الصحراء، وقال: (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) فضل بعضهم بعضاً لأنهم تناسوا فضل الله عليهم إذ نجاهم من فرعون وقومه.

وطلب من بقي منهم الذهاب إلى الأرض المقدسة لتكون المكان الآمن لموسى وقومه بعد أربعين سنة في النيه، قال تعالى: ( ) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)) (سورة الأعراف، 137 - 141).

ذكر الله بني إسرائيل بنعمه عليهم وأنه فضلهم على أهل زمانهم بالعلم والشرب وبالنبي الذي بينهم وأن الله نجاهم من فرعون، قال الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله "محمد صلى الله عليه وسلم" قبل حينين فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط فقال النبي "محمد صلى الله عليه وسلم"

: (الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) إنكم تركبون سنن الذين قبلكم) رواه الترمذي أيضاً.

توجه موسى إلى الأرض المقدسة وكان فيها قوماً من الجبارين الكنعانيين والحثيين، فأمرهم موسى بالتوجه إليهم ومقاتلتهم فأبوا فسلط الله عليهم الخوف والنتية يسرون ويرجعون مكانهم مدة أربعين سنة، وبين بنو إسرائيل سبب أحجامهم عن القتال إن المدن حصينة ولا طاقة لهم على حرب أهلها وأن السكان الكنعانيين قويو الإرادة وإن مدنها حصينة وأرضهم كثيفة الأشجار ولاسيما العنب وكانوا يذكرون أن أرض كنعان أرض خير تفيض لبناً وعسلاً.

بسبب هذا التقاعس الذي أبداه بنو إسرائيل عن القتال جعلهم يتيهون في أرض سيناء، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَحُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنْدَحُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (سورة المائدة، الآية 20 - 26).

حاول (يوشع بن نون) و(كالب بن فنه) المساهمة في حث بني إسرائيل على الذهاب إلى الأرض المقدسة، لكن لا إيمان عند القوم ولا احترام للأنبياء ولا طاعة لهم فرفضوا دعوة موسى وقالوا صراحة: إنهم لن يتوجهوا إلى أرض كنعان لمحاربة الكنعانيين، وقالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا، هذا هو التطاول على الذات الإلهية وهذا هو الكفر، لما سمع موسى وهارون هذا الكلام سجدا لله تعظيماً وإجلالاً له سبحانه، أما الرجلان اللذان يخافان الله فقد شقا ثيابهما وبللت الدموع الأرض، يئس موسى من قومه فقال رب إنني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الظالمين.

## التوجه إلى فلسطين:

قرر موسى عليه السلام التوجه من صحراء التيه (صحراء سيناء) إلى أرض فلسطين وحاول الوصول إليها عن طريق (بئر السبع)، وهناك وجد مقاومة عنيفة بسبب ثبات قبائل العمالة وفدائيتهم وتضحياتهم فاضطر عليه السلام أن يسير بجيشه عبر الأردن بعد أربعين سنة من التيه فاستأذن ملك الآدوميين فلم يأذن له المرور بأرضه ورفض فكرة المرور رفضاً مطلقاً خشية أن يستوطن بنو إسرائيل في الأردن، وكانت مملكة أدوم تشمل الأراضي الواقعة بين شرقي وادي عربة إلى إيله (العقبة) وتشمل العيص (مدينة نبي الله أيوب عليه السلام وبصيرة وهي قرية صغيرة من قرى الطفيلة وكرر موسى عليه السلام الطلب وبعد إلحاح شديد، وقسم من موسى ألا يستوطن في الأردن وألا يحتل شيئاً منه، وحمل موسى الوفد المفاوض الإسرائيلي أفكاراً مطمئنة إلى ملك الآدوميين تنص على أن يدفع الإسرائيليون أثمان المياه التي يحصلون عليها من مملكة أدوم ويدفعون الثمن يومياً، وألا يقيم الإسرائيليون في مملكة أدوم إلا إقامة مؤقتة، وألا يتجاوز دخولهم حدود المناطق الشرقية وأن يدخلوا الشريط الحدودي مسالمين. إذا أخل موسى بشرط من هذه الشروط فيطرد من يطرد ويؤخذ من يؤخذ أسارى يباعون عبيداً للسكان.

كان ملك أدوم مفاوضاً قوياً سيما وأن مملكته تتمتع بالهدوء والاطمئنان فلم يستطع موسى عليه السلام وهو النبي أن يغير شيئاً من شروط الاتفاق، ورأى أنه يستطيع الدخول إلى الأراضي الأمورية فالدولة ضعيفة فدخل باتجاه جبل (هور) وهو جبل قريب من البتراء وعند سفح الجبل نزل موسى في منطقة تسمى (وادي موسى) تكريماً له. وقبل أن يصل إلى جبل هور باتجاه الحسا التابعة للمملكة الأمورية وافى الأجل شقيقه هارون عليه السلام فدفن في جبل هارون.

ومن خرافات بني إسرائيل أنهم اتهموا موسى بقتل شقيقه عليه السلام فغضب موسى لكنه ظل مصمماً على التوجه إلى أريحا عبر وادي الموجب، فاستأذن الملك سجون الأموري للدخول إلى أريحا فتوجه وفد إلى حسبان لملاقاة الملك وكان جواب الملك الأموري لن نسمح لكم بالمرور أبداً، عاد الوفد المفاوض وفي نفسه غصة من الملك



سجون ورجعوا إلى موسى وأعلموه أن المملكة الأمورية ضعيفة جداً، وأن علاقاتهم سيئة مع الأدوميين والمؤابيين، لذا يمكن محاربتهم، كانت فرصة موسى أن يمتحن بني إسرائيل ويتأكد من صدقهم سيما وهم من الجيل الثاني الذي لم يمتحن في مهمة، ونشأ على الخشونة والاعتماد على النفس ولم يلق ما لقيه الجيل الأول من ذل فرعون أما الجيل الثالث فهم أسوأ ممن سبقه، إذ جاء بعد وفاة موسى عليه السلام وزور التوراة.

قام (يوشع) وكالب بتقسيم الجيش إلى مجموعات، كل مجموعة عليها نقيب، وسماهم نقباء الأسباط وقسمهم إلى اثنتي عشرة فرقة.

التقى الإسرائيليون مع جيش الدولة الأمورية الأولى فسقطت وقتل سجون، وأما المملكة الأمورية الثانية فصارت مهددة، وأحس ملكها (عوج) أن النار قد اقتربت إلى مملكته سيما وأنه رأى الإسرائيلييين على مشارف درعا العاصمة.

وكانت المملكة الأمورية الثانية تمتد من الزرقاء حتى جبل الشيخ، كان (عوج بن عناق) قوياً في مملكته، قوياً في خلقته ينام على سرير يتسع لعدة أشخاص ولا يزال سريره في (متحف عمان) سليماً كما هو.

وفي سهل درعا عسكر موسى عليه السلام وتواجه مع (عوج بن عناق) في معركة دارت سجالاً قتل في النهاية عوج وجميع أولاده وانتصر موسى عليه السلام.

بعد هذا النصر المؤزر أصبحت الجيوش الإسرائيلية مسيطرة على معظم حوران وشرقي نهر الأردن من حسان إلى درعا، لم يكن هذا هدف موسى عليه السلام بل كان هدفه فلسطين، وأن وجهته مدينة أريحا الفلسطينية.

قيل وقد نقشى الزنا في الجيش الإسرائيلي بلا خجل من الله ولا خجل من بعضهم، وقد أشاع بلعام من منطقة البلقاء الزنا وحببه إلى قومه فتفشى فيهم الطاعون.

### وقفات مع موسى عليه السلام

كان سيدنا موسى نبياً كريماً ورجلاً عظيماً ولدى استعراضنا لسيرته كما رواها القرآن الكريم نرى أن سيرته حافلة بجلال الأعمال، وسوف نتعرض لقصة بقرة بني إسرائيل وقصته مع الخضر وإلى بعض المواقف التي سوف نستخلص منها العظة والعبرة.

## قصة بقرة بني إسرائيل:

قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) (سورة البقرة، الآية 67 - 74).

قال ابن عباس ومجاهد والسدي: كان في بني إسرائيل رجل كثير المال وكان شيخاً كبيراً وله ابن أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه فقتله أحدهم وطرحه في مجمع الطرق، ولما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه وجعل يصرخ ويتظلم وقال بعضهم لم لا تأتون نبي الله فجاء ابن أخيه فشكا أمر مقتل عمه إلى سيدنا موسى عليه السلام، فقال: قال إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. يعني أننا نسأل عن شأن القتل وأنت تسخر منا قال لهم موسى : أعوذ بالله أن أفعل ذلك، ذلك ما أوحى إلي من ربي وهذا ما أجابني حين سألته، قال ابن عباس والسدي ومجاهد لو عمدوا إلى أي بقرة لانتهى الأمر، فسألوه عن صفتها ولونها وسنها.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: ضيقوا على أنفسهم فأمرهم بذبح بقرة صفراء فاقع لونها وهذا لون غزير، وظلوا يسألون وبدأت الصفات أضيق مما كانت بقرة صفراء فاقع لونها ليست بالذلول أي مذلة بالحراثة وسقي الأرض خالية من كل عيب قيل ولم يجدوا هذه الأوصاف إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فساوموه على وزنها ذهباً فأبى إلا أن أعطوه بوزنها عشر مرات فأعطاهم لهم فأمرهم نبي الله أن يذبحوها وما كادوا يفعلون، وطلب منهم نبي الله موسى أن يضربوا ببعض لحمها القليل، فلما ضربوه أحياء الله فسأله نبي الله من قتلك قال ابن أخي ثم مات فقال لهم موسى كذلك يحيي الله الموتى كما شاهدتم.

هذه القصة ودقائقها لم توردها التوراة، وهذه القصة دليل على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن هذا النبي أوحى إليه من ربه، وثمة آخر يذكرنا أن عاقبة بر الوالدين الأجر والمغرم.

### موسى عليه السلام ... دروس وعبر :

تاريخ موسى عليه السلام حافل بالدروس والعبر، ومنها أن رسالات الأنبياء واحدة تدعو إلى التوحيد الخالص ويحث على مكارم الأخلاق ليستقيم المجتمع ويصلح حاله، كان موسى نبياً، وكان داعية امتاز بالصبر والأناة وكان قائداً عسكرياً بارعاً وإن دخوله الأرض المقدسة فلسطين لم يكن للحرب والقتال.

ونظراً لمكانة هذا النبي الكريم وجهاده وصبره فقد ذكره الله في عدد كبير من السور القرآنية، وقد جمعت أربعين حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيلت في موسى عليه السلام، وفي ليلة المعراج التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في السماء وقد رحب موسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قائلاً: (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال "صلى الله عليه وسلم": فلما تجاوزته بكى.

ومنذ فجر النبوة - لما سمع ورقة بن نوفل عم خديجة "رضي الله عنها" (اقرأ باسم ربك) قال هذا الناموس الذي أنزل على موسى.

وجدير بالذكر أن هناك تشابهاً بين شرعة موسى ومحمد عليهما السلام، فأصلهما واحد وكانت أمة موسى أمة كبيرة جداً فيها العباد والزهاد والعلماء ولكن بعضهم فسقوا كما حصل لليهود العقبة الذين مسخوا قردة وخنازير وعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا، لكن كان قوم موسى بطيئين في الدعوة إلى الجهاد، وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فكانت تطلب الجهاد طمعاً في الجنة.

وعند الوفاة اشتدت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام فمات في بيته أما موسى عليه السلام فمات في الطريق إلى بيت المقدس ولم يصل الأرض المقدسة ولم يشاهدها إلا من فوق جبال الأردن، وهناك من يظن أنه مات في فلسطين لكن التاريخ يذكر أنه لم يدخل فلسطين، وقيل أنه شاهد فلسطين من قمة جبل نيبو وقيل إنه موقع سياغة الواقع شمال قمة نيبو وهناك دفن.

ويذكر المؤرخون أن يوشع بن نون اتجه إلى أريحا وإلى فلسطين، وكانت فكرة سيدنا موسى الذهاب إلى فلسطين للعيش فيها فهي الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً بعد التيه والضياع،

وأن يوشع طلب من بني إسرائيل أن يستغفروا الله قبل دخول الأرض المقدسة وذلك اعترافاً منهم على ارتكاب جرائم قتل بحق العزل من السلاح (وأن يدخلوا الباب سجداً) يزحفون ورؤوسهم مقنعة، وقوم هذا شأنهم لم يأتوا فلسطين لقتال.

وأن يقولوا حطة وحطة باب من أبواب القدس، وهناك باب العامود والزاهرة والخليل وذكر تفسير الجالين أدخلوا بيت القدس، وأدخلوا بابها منحنين وقولوا حطة أي حط أن تحط عنا خطايانا لكن الأمر المثير للاهتمام أن نجاح بني إسرائيل في عبور الأردن وفلسطين أوى إلى تفكك أقوام هذه الديار إلى ممالك متحاربة فيما بينها، فليس لديهم دولة مركزية تجمعهم وكانوا متفرقين حتى في عبادتهم فكل بلد صنماً ولم يكن الكنعانيون مبالين للوحدة، بل كان مجتمعاً تجارياً يهيمه الثراء بالإضافة إلى العلاقات السيئة بين الأموريين والكنعانيين.

فكان بنو إسرائيل إذا لم يجدوا ضالتهم عند الكنعانيين يستميلوا غيرهم ومن الغريب أن سيجون لم يتقدم قيد أنملة نحو المسلك (عوج بن عناق) لم يطلب نصرته ولم يعلمه بالخطر الداهم القادم، فكان نتيجة ذلك مقتل (جون) ثم مقتل (عوج بن عناق) وتدمير مملكتيهما، فقتل سجون في ياجوز وقتل عوج في درعا أما موسى عليه السلام فقد دخل الحرب مجبراً عليها فهو إما أن يسير محايداً لنهر الموابج (أرنون) إلى الزرقاء (بيوق) أو أن يتجه من العقبة إلى معان فالبتراء والجفر وباير فاختر أيسر الطريقين وهو الاشتباك مع سجون.

وكان من نتائج مرورهم بالأردن:

1. لم يتمكن اليهود من الإقامة بالأردن طويلاً فأزيلت ممالكهم بعد حربهم مع العمونيين والمؤابيين والأموريين فاقتلعوا من الأرض الأردنية سنة 860 ق. م. على يد ميشع الذي أعاد بناء مآدبا بعد تدميرها من اليهود.

2. سقوط مملكة سجون فتية ولم يمكنه الغزو الإسرائيلي المفاجئ من بناء مملكة قوية.

3. بذر بذور العداء بين بني إسرائيل وأهل البلاد التي مروا بها حيث قتلوا أهلها فقامت الحروب والمنازعات ولا زالت قائمة فقد انتصروا على (ملك عجلون) واعملوا السيف في المؤابيين لكن الملك المؤافي ميثع استطاع قهرهم وحول قادتهم إلى خدم وقتل كل ملوكهم وأذلهم وأمر توزيع الأميرات اليهوديات على المنازل لخدمة النساء المؤابيات واستطاعت عمون من استرداد أراضيها المحتلة وعاد السلام يخيم على الأردن والمنطقة من جديد.

ها هم أنبياء الله الكرام يواجهون الصعاب ويرشدون أقوامهم إلى ما فيه فلاحهم في الدنيا والآخرة.

رحلتنا مع موسى عليه السلام رحلة مع الجهاد والصبر والبلاء والامتحان، رحلة إيمان تبركت به الأرض الأردنية فمشى على ثراها، وكان ينبوع نور وبركة وفداء يجعلنا نستذكر تاريخ بلادنا فتملاً قلوبنا عزة وشموحاً وهذا ما سيزيدنا ثقة بأن هذه الأرض التي عشقت الأنبياء لا بد - يوماً ما - أن تكون مشعل نور وسلام فمنها ستشرق شمس السلام ويعم الخير أرجاء الدنيا وليس ذلك على الله بعزير.

### داود عليه السلام:

السنون تمر، وداود عليه السلام يزداد كل يوم عن سابقه علماً وحكماً، حتى آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، فجمع الله تعالى لداود ما لم يجمعه لأحد من الأنبياء إلا ولده سليمان، فآتاه الله تعالى النبوة والملك فكان من الملوك الأنبياء، وأعطاه حسن الصوت، وعلمه صناعة الدروع، ورزقه صوتاً ما سمعته الجبال حتى انقادت لأمر ربها فأوبت معه، فكانت الطير وهي أرق الخلق أفئدة تخشع معه وتأوب، وكان الكون كله يسبح مع داود الجبال بحجارتها والطير بلغتها.

ولم يكن داود عليه السلام إلا رجلاً شجاعاً قوي الإيمان، يوم أحجم بنو إسرائيل عن مقاتلة جالوت، فلم يرعه مشهده، وإنما خرج إليه حتى قتله، وقتل القائد مصيبة الجند العظمى، وبقتله تحقيق الهزيمة، فكان داود عليه السلام أمه في الشجاعة والقوة، وما

ذاك إلا لإيمانه الذي كان كالشلال الجارف، والإعصار الذي لا تقوى على الوقوف أمامه قصور الكفر وأسلحته وطواغيته.

### داود قبل أن يخلق

وقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الحديث وفيه: أن الله تعالى قال لآدم(.. اختر يدي يا آدم، قال: أختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين، وبسط كفه فإذا هو كائن من ذريته في كف الرحمن فإذا رجال منهم أفواههم النور، وإذا برجل يعجب آدم نوره، قال يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود، قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين، قال: يا رب فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة، ففعل الله ذلك، واشهد على ذلك، فلما نفذ عمر آدم بعث الله ملك الموت، فقال آدم: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود، فجحد ذلك، فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته). وقد روى هذا الحديث من غير وجه.

وزدادت الخطوب على بني إسرائيل، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء والرسل وعذبوا من عذبوا، فسلط الله عليهم ملوكاً جبارين يسفكون دماءهم إذا اقترفوا ذنباً، وسلط الله عليهم أعداءهم لكنهم إذا ما قاتلوا عدواً لهم يحملون تابوتاً، فكانوا ينصرون ببركته ففيه بقية مما ترك آل موسى وهارون.

وفي إحدى حروبهم في غزة وعسقلان، أتنزعه أهل غزة منهم فلما علم ملك بني إسرائيل مات كيداً.

قال ابن جرير فبعث الله فيهم أنبياء فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله شمويل بن بالي أربعمائة وستون سنة، ثم توالى الملوك يحكمون بني إسرائيل.

قال تعالى: (أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (سورة البقرة، الآية 246).

قال القرطبي: الملاء أشرف الناس، من بعد موسى أي وفاته، فقد قال الأشراف منهم نبي الله هو شمعون وهو من ولد يعقوب أن أبعث لنا ملكاً في سبيل الله، وهذه الآية خبر عن قوم من بني إسرائيل أصابهم الذل فطلبوا هذا الطلب تأخر أكثرهم عن الجهاد فنبههم الله، هل إذا كتب عليكم الجهاد تجاهدون؟ ويقرر الله تعالى أنه لما كتب عليهم الجهاد تولوا وهذا شأن الأمم التي تميل إلى الدعة، وتؤثر الخنوع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه فاثبتوا".

ثم أخبر الله بني إسرائيل على لسان نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت فقد أجابكم إلى ما سألتهم وكان طالوت سقاء فرفعه الله، حيث كان من سبط بنيامين ولم يكن من سبط بني لاوي التي كانت النبوة فيهم ولم يكن من سبط يهوذا الذي كان الملك فيهم فلذلك أنكروه.

قال وهب بن منبه: لما قال الملاء عن بني إسرائيل لنبيهم ما قالوه سأل الله أن يبعث لهم ملكاً ويدله عليه قال: قد بعث الله فيكم طالوت ملكاً، قال بنو إسرائيل كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه؟

ونحن من سبط الملوك وهو فقير؟

قال القرطبي في تفسيره: تركوا السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق حيث (إن الله اصطفاه) وبين لهم سبب الاختيار وهو بسطته في العلم الذي هو ملاك الإنسان والجسم معينة في الحرب، فتضمنت الآيات شروط الإمامة وأنها مستحقة بالدين والعلم والقوة ولا حظ فيها للنسب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان طالوت يومئذ أعظم رجل في بني إسرائيل وأجمله وأتمه" وقيل سمي طالوت لطوله وقيل زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة قال تعالى: "والله يؤتي ملكه من يشاء" قول قطعي لا اعتراض عليه وإضافة مملوك إلى ملك ويحتمل أن يكون بنو إسرائيل قد سألوا نبيهم عن دلالة صدقه في قوله (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) قال لهم نبيهم إن علامة ملكه أن يأتيه التابوت.

## وقفة مع التابوت

والتابوت كما قلت وصل إلى يعقوب عليه السلام فكان بنو إسرائيل يغلبون به من حاربهم حتى عصوا فغلبهم العمالة وأصحاب أهل غزة وعسقلان.

وكان التابوت يجلب الطمأنينة لبني إسرائيل وكانت تحمله الملائكة، قيل كان التابوت سبب سكون قلوبهم قال وهب بن منبه: السكينة روح من الله تتكلم فكانوا إذا اختلفوا في أمر نطقت ببيان ما يريدون، وإذا صاحت في الحرب كان الظفر لهم قال ذلك السدي وقال ابن عطية والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم. جاء في صحيح مسلم: عن البراء قال كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطين فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال "تلك السكينة تنزلت للقرآن".

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أسيد بن الخضير بينما يقرأ ليلة في مريده قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "تلك الملائكة كانت تسمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم".

فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم نزول السكينة مرة ونزول الملائكة مرة أخرى وفي ذلك حجة لمن قال أن السكينة روح أو شيء له روح، فلا يستمع للقرآن الكريم إلا من يعقل.

قيل: التابوت بقايا ألواح قوم موسى عليه السلام الذين عبدوا العجل وقيل عصا موسى وعصا هارون.

وقيل أن التابوت كانت فيه نسخة من الألواح يحفظون فيها مخلفات أنبيائهم، أو هي الألواح التي أعطاها الله تعالى لموسى، دلالة على صدق نبوته، فتأتي الملائكة وتحمل التابوت بقايا هذا الإرث فتدخل السكينة على بني إسرائيل فينتصروا على أعدائهم، وأن حمل التابوت من قبل الملائكة دلالة خارقة على صدق طالوت، وصدق اختيار الله لطالوت.

وشاهد بنو إسرائيل المعجزة فأمن من آمن وعصى من عصى واستعد المؤمنون منهم للجهاد مع طالوت جهز طالوت جيشاً قوياً ممن لم يتولوا عن الجهاد قال تعالى: (فَلَمَّا



فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ (سورة البقرة، الآية 249).

فلما خرج طالوت بالجنود فقال لهم إن الله مبتليكم بنهر بين الأردن وفلسطين وهو نهر الأردن فلا تشربوا منه، وفي ذلك اختبار لطاعته، فالجيش أفراد عطشى والماء بارد عذب فمن غلبته شهوته وعصى الأمر فهو في العصيان وسيمارس هذا العصيان في مواقف أخرى.

فقال لهم من شرب من ماء هذا النهار فليس من أصحابي وليس مني ولم يخرج من الإيمان وقال السدي: كانوا ثمانين ألفاً فيهم المؤمن والمنافق والمجد وفي الحديث (من غش فليس منا) أي ليس من أصحابنا ولا على طريقتنا وهذينا.

فقد حذرهم نبي الله ألا يشربوا من هذا الماء العذب الفرات ليمتحن طاعتهم، وقال لهم من شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني، والطعم هو أقل الذوق وبالتذوق باللسان وقيل أن الماء طعم، وهذا ضعيف لأنه لو كان لسد سد القوت للأبدان.

ونبه طالوت جيشه أن من عطش فله أن يغترف بيديه غرفة فيشرب ليرتوي ظمأه، فشرب أكثرهم دون الاهتمام إلى توجيهات القائد، فرسب معظمهم في أول اختبار للطاعة فصار المؤمنون منهم قلة، ولكنهم ثبتوا وظلوا على العهد مع نبيهم، ولكن أمام هذا الواقع الحاصل ظهرت قلة عدد جنود طالوت أمام عدوه جالوت فالموازن اختلفت، وموازن القوى تغيرت، هناك موازن جديدة، موازن الإيمان، فئة نكصت على أعقابها وفئة في جيش طالوت ثبتت، قال تعالى (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ). (سورة البقرة، الآية 249).

هذه حكمة الله كثيرة هي المواقف التي تغلب فيها الفئة القليلة المؤمنة الفئة الفاجرة الظالمة، والفئة القليلة من المصطفين الأخيار هي الفئة الغالبة لأنها تمثل القوة الكبرى قوة الله، الغالب على أمره، قاهر الجبابرة، هذه الفئة فئة طالوت لم يززع إيمانها قوة جالوت - مع ضعفها - فهي التي تقرر مصير المعركة لأن الله معها على كل حال،

فمنه تعالى تستمد العون والنصر، وفي مشهد فريد يزيد النفس طمأنينة وبفيض في القلب صبراً يلتقي الجيشان.

(وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ). (سورة البقرة، الآية 250 - 251).

هذا الموقف يذكرنا بالمسلمين في معركة بدر، كان المشركون ألفاً والمسلمون ثلاثمائة كان جيش جالوت مائه ألف، واجتاز نهر الأردن مع طالوت أربعة آلاف مقاتل وت خلف ست وسبعون ألفاً.

اجتاز طالوت بمجموعته الصغيرة المؤمنة نهر الأردن باتجاه جالوت المتمركز في مرج الصفر في سهول حوران التابعة لمحافظة درعا السورية.

قال المؤمنون الصابرون مع طالوت، ربنا ألهمنا الصبر على الثبات وثبت أقدامنا في المعركة وانصرنا على القوم الكافرين.

وقفة إيمانية يلجأ بها المستغيثون إذا أدلهم الخطب، اللجوء إلى الله، والدعاء والتوجه إليه في طلب النصر ففي ذلك فلاح قال تعالى: (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ (سورة آل عمران، الآية 200) وقال (وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ) (سورة الحج، الآية 40) وقال (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (سورة الأنفال، الآية 45) هذه هي شروط النصر، مهما عمت الفتن وعظمت المحن.

ثبت المؤمنون مع طالوت في ساحة الوغى، وقتل داود جالوت وبشره الله بالملك والحكمة وعلمه ما يشاء وأوحى إليه بالنبوة.

لقد اختار طالوت فتى يافعاً من جيشه هو داود ليقف أمام العملاق جالوت فقتله فمن هو داود.

### حياة داود ونبسه

داود فتى مقدسي وقيل ولد في مدينة بيت لحم حيث ولد المسيح، واسمه داود بن زكريا بن رشوى وكان من سبط يهوذا بن يعقوب لم يكن يهودياً وإنما بعث إلى بني إسرائيل بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام جمع الله له بين النبوة والملك نشأ راعياً التحق مع

سبعة إخوة له في جيش طالوت، وكان صغير السن قصير القامة قال لأذهبن على تلك الحرب. وقيل وبينما هو في الطريق مر بحجر فناداه وقال خذني فبي تقتل جالوت وناداه حجر ثان فأخذهما ووضعهما في مخلاته وتوجه إلى الحرب، ولما برز جالوت طالباً من يبارزه قال طالوت من يبرز إليّ ويقتله فأنا أزوجه ابنتي فبرز داود فاحتقره طالوت لصغر سنه وقصر قامته فردّه، ونادى جالوت ثانية فبرز داود فقال له طالوت هل جربت قوته في شيء، قال: نعم، وقع ذئب في غنمي فضربته ثم أخذت رأسه ففصلته عن جسده، قال طالوت الذئب ضعيف، هل جربت نفسك في غيره؟ قال: نعم دخل الأسد في غنمي فضربته، ثم أخذت لحبيبه فشققتهما؛ افترى هذا أشد من الأسد قال لا. وكان عند طالوت درع لا تستوي الأعلى من يقتل جالوت فأخبره بها ووضعها طالوت على داود فاستوت قال طالوت فاركب فرسي وخذ سلاحي ففعل فلما مشى قليلاً رجع فقال الناس جبن الفتى وقال داود ولكنني أريد أن أقتله على عادتي وأخذ مخلاته ومقلّعه وخرج إلى جالوت فقال له جالوت أنت يا فتى تخرج إليّ، قال: نعم، قال: أهكذا كما تخرج على الكلب، قال داود: نعم وأنت أهون، قال: لأطعن لحملك اليوم للطير والسباع ثم تدانينا وأخرج داود يده إلى الحجارة ويقال أنها التأمت وصارت حجراً واحداً وضعه في المقلاع وأدار ظهره وسمى ثلاثاً ورمى بالمقلع فأصباح الحجر من جالوت مقتلاً، ويقال أن الحجر تفتت فأصاب من بمعسكر جالوت وقتل داود جالوت ورجع طالوت فانكح داود إحدى ابنتيه فمال الناس إلى داود وأحبوه، فغضب طالوت على داود وعلى الناس مع قناعة طالوت أن داود عليه السلام قام بعمل بطولي يستحق الشكر والعرفان بالجميل، لأنه حقق النصر لقومه وأصبحوا أعزاء بعد أن كانوا أذلاء.

### الصراع بين طالوت وداود

لم يتوقف الصراع بين طالوت وداود، فبعد انتصار داود على جالوت فقد طالوت هيبة الحكم فحسد طالوت داود وصمم على قتله، فأدرك داود الخطر ففارق قومه وأهله، فدخل طالوت مضجع داود ليقتله فلم يعثر عليه فشدد طالوت الحراسة، وذات ليلة دخل داود مضجع طالوت فوضع سهمين عند رأسه وسهمين عند رجله، ولم يقتله عندها

أدرك طالوت أن داود عليه السلام ظفر به فلم يقتله فأذكى طالوت الجواسيس لينالوا من داود لكن داود اختفى عن الأنظار في جبل فعمرى الله تعالى أثره على طالوت. كان غياب داود صفة لبني إسرائيل حيث تذكروا الأيام السوداء التي مرت عليهم وانكسارهم في معركة (ام حكيم) وتوجه العلماء وأعيان الأمة على طالوت ليتوسطوا في المصالحة بين داود وطالوت سيما وأن داود هو صهر طالوت وحامل خاتمه. لم تتج كل وسائل الوساطة، فأقدم طالوت على قتل كل من رفع عقيرته مجاهراً بالصلح، قال تعالى: (اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ (20)) (سورة ص، الآية 17 / 20).

يقول الطبري في تفسيره فقد أتى الله داود النبوة والملك والحكمة في فض المنازعات وشددنا ملكه بالهبة والرجال والجنود.

كان يونان ابن الملك طالوت من أشد المتحمسين لداود فترك والده وقال لداود أبي يريد قتلك، وظل طالوت يطارد داود فهرب منه من قعيله وإلى بريه (زيف) ثم انتقل إلى عين جدي ومنها إلى (قعون).

والتقى طالوت بالفلسطينيين فقتلوا طالوت وأولاده ووجدوا جثتهم ابنه الأصغر (اشبوش) ملقاة في جبل جلبوع، ووضعوا جسده على سور بيسان.

سمع سكان نابلس بمصير طالوت وأولاده فأحضروا الجثث من بيسان وأحرقوها في نابلس.

فترك طالوت الملك لداود فأتى الله الملك لداود حوالي عام 1000 ق. م وبعضهم قال سنة (1004) ق. م.

## ملك داود

استقطبت مملكة داود ملوك الحرب، فضعف الآشوريون وسقطت دولة الحثيين والآراميين والأدوميين وحتى العمونيين، وضعف الدولة المصرية، شجع هذا الاستقطاب.

كل هذه العوامل جعلت داود رجلاً قوياً بلا منازع فقد استمال (أوريا الحثي) واستطاع داود عليه السلام أن ينشئ مملكة قوية من جبال الكرمل إلى أطراف جبل الشيخ شمالاً إلى حدود مصر ونهر الموجب والعقبة، أما الساحل الفلسطيني من يافا إلى غزة فكان تابعاً للدولة المصرية.

أما شرقي الأردن فلم يدخل في الديانة اليهودية لأن سكانه القدماء كانوا وثنيين كالكنعانيين ولم تكن العقيدة اليهودية عقيدة لكل اليهود حيث عبدوا (بعل) والأفعى وظلوا يعبدونها حتى (720) ق. م.

### مدينة الخليل عاصمة داود عليه السلام

اتخذ داود الخليل عاصمة لمملكة ثم انتقل إلى مدينة القدس، فبنى قصراً وأشرف على بناء القصر نخبة من المهندسين الكنعانيين في زمن حاكم صور (حيرام) وذلك لتوطيد العلاقة التجارية بين مملكة بيت المقدس ومملكة صور.

والأردن كان بعيداً عن السيطرة الإسرائيلية بل كانت ممالك الأردن زمن (عصر القضاة) أقوى من مملكة بيت المقدس، فكانوا أخلاطاً يؤثر غزو القوى الصغيرة ليستمتعوا بصيد يكفيهم أياماً وحتى فلسطين لم تكن كلها تحت السيطرة. والقدس نفسها لم يدخلها داود إلا بعد ثمانية أيام من السلطة.

وكانت أول تطلعات داود هو غزو مؤاب، لحقد دفين ورثه اليهود على أهل مؤاب، فقد عامل ملك مؤاب (عجلون) اليهود على أنهم عبيد له وأخضع جنوبي الأردن من الكرك إلى العقبة وثم نقل مجموعات صغيرة من اليهود إلى العقبة وهم الذين حولهم الله إلى قردة وخنازير.

كان داود يملك علاقات جيدة مع ملك عمون (عمان اليوم) واسمه (ناحاسن) فقد هرب داود عند (ناحاسن) ولجأ إليه عندما طارده طالوت وظلت العلاقات وطيدة إلى أن مات ناحاسن ونصب ابنه جانون فساءت العلاقات بين داود وجانون، عندما تحالف مع المملكة الآرامية في دمشق، وشكلا حلفاً ضد داود.

ولكن حصل الصدام بين المملكة العمونية وجيش يؤاب الإسرائيلي وحوصر العمونيون في قلعتهم المعروفة بجبل القلعة فاستسلم قائد القلعة، واتصل (يؤاب) بداود يعلمه الانتصار فدخل عمان، وفي أثناء الحصار قُتل القائد الحثي أوريا في الحصار. والروايات الإسرائيلية تدعي أن داود قتل أوريا طمعاً في زوجته وهذا خطأ كبير. مارس الإسرائيليون كل أنواع التعذيب على العمونيين فلم يرحم هذا الجيش الأطفال ولا كبار السن فنشروا الأجساد بمناشير الحديد، وغيرها من أساليب القتل والتعذيب. إن داود بريء من أعمال جيشه والعهد القديم مليء بالافتراءات على الأنبياء الكرام وعلى داود عليه السلام وهو منها براء.

### القائد الحثي أوريا وزوجته

استطاع داود عليه السلام أن يستقطب الكثير من القادة من الأدوميين والمؤابيين والحثيين ومنهم (أوريا) الحثي الذي قتل خلال حصار جبل القلعة. والقصة أن داود عليه السلام رأى امرأة تستحم وهو على سطح القصر فقال من هذه قالوا هي (بتشيع بنت اليعام) زوجة أوريا، فأرسل في طلبها وقام بفعل الفاحشة ثم استدعى أوريا من ربة عمون وأكل معه وشرب ثم قال لجنده أرسلوه إلى ربة عمون ففعلوا فمات في الحصار والقصة منشورة في العهد القديم بروايات مختلفة، حاشا لله أن يفعل نبي الله هذه الفعلة.

قال تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) (سورة ص، الآيات 21 / 24).

كان داود عليه السلام يوزع أيام الأسبوع، فهناك يوم لوعظ بني إسرائيل ويوم للعبادة ويوم لشؤونه الخاصة، سيما وأنه تزوج عدداً كثيراً من النساء.

وفي يوم من الأيام وبينما كان في المحراب يتعبد دخل عليه رجلان بدون استئذان فتسورا عليه السور، ففزع وخشي منهما شراً وقص واحد منهما قصته قال لخصمي تسع وتسعون نجعة ولي نجعة واحدة فأراد أن يضمها إليه، فما كان من داود أن قال إن صاحبك قد ظلمك دون أن يستمع على إفادة الطرف الثاني وهذا أمر مخالف لسير القضاء إذ لا بد للقاضي النزيه من الاستماع إلى إفادة الطرفين، ونبيه الله على ذلك فاستغفر داود ربه على هذا الخطأ غير المتعمد.

فالرجلان لم يكونا من الملائكة، هما خصمان حقيقيان، والنعاج هي نعاج حقيقية. أما ما تدعيه الإسرائيليات من أن داود عليه السلام طمع في زوجة (أوريا) الحثي، فهذا ظلم واقتراء، بل هو خدش لعصمة الأنبياء ومساس بأخلاقهم، وحاشا لله أن يكون في نبي مرسل.

### داود عليه السلام في عمان

طمع أبيشالوم ابن الملك داود في ملك أبيه، فقد كان أبيشالوم قائداً بارعاً، لكن سلوكه غير سلوك أبيه فاستمال أبيشالوم قادة الجيش الإسرائيلي والكهنة، مستغلاً في ذلك الأوضاع المضطربة في ملك أبيه، بالإضافة على مرض الطاعون الذي تفشى في المملكة والغرور الشخصي الذين انتاب أبيشالوم ناهيك عن البطانة الفاسدة عند الأب والابن.

كل هذه الأمور بالإضافة على انشغال داود عليه السلام، جعلت الابن طامعاً في الملك.

بدأ أبيشالوم بمناهضة والده، واتخذ من حبرون (الخليل) مقراً لقيادة المعارضة، فأعلن الحرب على أبيه وكان داود يتخذ من أورشليم (القدس) مقراً له.

لما رأى داود قوة ولده دعا أنصاره لعبور الأردن فاستقبلهم الملك العموني (ولي بن ناحاش) استقبلاً يليق بالملوك وساهم حاكم السلط (برزلاي الجلعادي) في تأمين كل ما يلزم جيش داود من مواد غذائية وجميع المواد اللازمة للجيش.

رغم حفاوة الاستقبال التي استقبل بها داود في عمان لكنه ظل في قلبه غصة من هذا الولد، فكانت محنة داود عظيمة إذ رغم اكتواء داود بنار اللجوء إلا أن أبيشالوم لم يكفه

أن خلع والده ودخل القدس ونصب نفسه ملكاً ثم جمع قاداته وتوجهوا إلى مملكة عمون، لكن داود توجه إلى جلعاد والتقى الجيشان فصارت هناك مقتلة عظيمة قتل فيها ابيشالوم فحزن داود عليه حزناً شديداً.

ثم رجع داود إلى القدس واحتفل الناس بانتصاره عليه السلام.

### داود الملك والنبي

جمع الله لداود عليه السلام الملك والنبوة وأعطاه الزبور، والزبور قصائد وأناشيد وتراتيل في مدح الله تعالى والتضرع إليه وعددها عند اليهود مائة وخمسون وهي ليست كلها لداود.

قال تعالى: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80)) (سورة الأنبياء، الآية 79-80).

فهذه الكرامات لا تمنح إلا للأنبياء والرسل لتعزز موقفهم أمام الناس، لقد كان داود قوياً وكان خاشعاً وكان مجاهداً، وكان حكيماً وقاضياً يصلح ما بين الخصوم.

### مسح اليهود في العقبة

سكن اليهود العقبة أيام داود عليه السلام، فكانت تأتيهم الحيتان يوم السبت بشكل كثير، ثم عملوا أحواضاً فإذا كان آخر النهار من يوم الجمعة تدخل الحيتان الأحواض ويتركها اليهود إلى يوم الأحد، فنهوا عن ذلك فلم ينتهوا قال تعالى (وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ نَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)) (سورة الأعراف، الآية 163 - 166) قال المفسرون: القرية هي إبله، وهي العقبة ويقول ابن كثير رحمه الله وهذه القرية هي الواقعة على بحر القلزم.



كانت مدينة العقبة أيام داود عليه السلام تسكنها أقوام عدة منهم اليهود الذين تطوق أحياء مدينتهم الأسواء العالية فقد كان اليهود في العقبة ثلاث فئات:

1. فئة ارتكبت المحظور واحتالت على صيد السمك يوم السبت.

2. وفئة نهت عن هذا الفعل.

3. وفئة ثالثة لم تفعل ولم تنه عما فعله الآخرون فمسخ الله المخالفين قردة

وخنازير فقد مسخ الشباب قردة والشيوخ خنازير فهموا على وجوههم فأماتهم

الله بعد ثلاثة أيام من المسخ.

### وفاة داود عليه السلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل: "كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تتطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لتفضحن بدادود، فجاء داود فإذا بالرجل قائم وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمتع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه، فلما غسل وكفن، وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي داود، فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحاً".

قال أبو هريرة: فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وغلبت عليه يومئذ (رواه أحمد)، وقال ابن كثير: اسناده جيد قوي ورجاله ثقات: ومعنى قوله " (وغلبت عليه يومئذ المضرحية)، أي: وغلبت على التضليل عليه المضرحية، وهي الصقور الطوال الأجنحة، وأحدها مضرحي، قال الجوهرى: هو الصقر الطويل الجناح، وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه، فقال له: دعني أنزل أو أصعد، فقال: يا نبي الله، نفذت السنون والشهور والآثار والأرزاق، قال: فخر ساجداً ثم علا مراقاه له من تلك المراقي

فقبضه وهو ساجد، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم، لقد مات داود بعد أن أتم المائة حيث أن الله تعالى لن يبذل قضاءه لنسيان عبده آدم.

لقد بقي أن الله تعالى قد أطلق يد داود ليحكم في الأرض، ووصاه إتباع الحق لا الهوى فقال سبحانه (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (سورة ص، الآية 26).

وكانت الأخيرة أن ربه أراه قبل موته قرّة عين في ولده سليمان لما حكم بالحق في حياته، ثم أعطاه الملك والنبوة لتستمر في اله من بعد موته. توفي داود عليه السلام عن مائة عام قضى أربعين منها ملكاً حيث زاره ملك الملك في محرابه فقبضه وهو ساجد ودفن في سلوان وهي على مقربة من مدينة القدس.

#### دروس وعبر:

لقد وصف الله تعالى داود عليه السلام فقال: "واذكر عبدنا داود ذا الأيد" فهو الذي أعطى القوة في العبادة والعمل الصالح، ولا زال يتعبد لربه ويكثر من العمل الصالح حتى رضي الله عن عمله، فقال "أعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور"، ولا زال يعمل حتى صار مثلاً للآخرين فصدق النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "كان داود أعبد الناس"، وهو الذي واصل العبادة آناء الليل وأطراف النهار حتى قال تعالى: (إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) وذلك هو أول النهار وآخره، حتى إنه كما قال ابن كثير - رحمه الله - لم يكن يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً أو نهاراً، ولا زال بين صلاة وصيام، وذكر دائم حتى صار هو الذي أنشأ الله عليه فقال: (عبدنا) وتلك أسمى مراتب العبودية لا سواها.

ويجمع النبي صلى الله عليه وسلم هذا كله لداود عليه السلام كما روى عبد الله بن عمرو بن العاص عنه فقال: "أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل - ويقوم ثلثه، وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى".

ويمكن الاستفادة من قصة داود عليه السلام بأمور كثيرة:

1. المؤمن مبتلى وقد ابتلى داود بولده فحارب الابن أباه وطارده والده وذاق داود مرارة اللجوء والغربة عن الوطن فأقام في عمان حزناً على ملكه الذي ضاع وحزناً من تصرفات ولده (ابشالوم) الذي جلب له الويلات.
2. إن عصيان الله يجلب الشرور للإنسان وما سخط اليهود في العقبة إلا بسبب عصيانهم وخروجهم عما نهوا عنه.
3. لا بد من وجود مصلحين في الأمة يبينوا لها سبل الرشاد فيقوموا برد الضال حتى لا تفسد الأمة بسبب الفاسدين والمفسدين.
4. شروط الإمامة مستحقة بالعلم والدين.
5. هناك حالات شبه وتوافق بين النبي داود وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فالنبيان رعا الغنم ولاقيا العداوة من اليهود وهما من بيت ملك ونبوة، وقد مارسا فنون الحرب والقتال في حياتهما.
6. إن داود عليه السلام من نسل إبراهيم عليه السلام وعلى ملته فلم يكن إبراهيم نصرانياً ولا يهودياً ولكن حنيفاً مائلاً عن الشرك، مسلماً. وأن دين الأنبياء جميعاً هو الإسلام وهو الاستسلام لله بالطاعة والانقياد له والخلوص من الشرك.
7. قيل أن زوجات داود تسع وتسعون وهذا قول منقول عن الإسرائيليات فالشك في هذا العدد مشروع، إذ لا يعقل أن يكون له سوى تسعة عشر ولداً من هذه النساء التسع والتسعين سيما وأنه قسم يوماً من أيامه لنسائه.
8. هناك مسألة جديرة بالتوقف والنظر فاليهود جعلوا يوم السبت يوم عيد، في حين أن العيد هو يوم الجمعة، فاليهود في العقبة عظموا السبت وتركوا ما أمروا به فكان ذلك أن مسخهم الله قردة وخنازير، وظل اليهود المؤمنون على حالهم وظلت بذرة الإيمان في النفوس، كما بقي المؤمنون من قوم شعيب والمؤمنون من قوم لوط، لتظل شجرة الإيمان ممتدة في عمق التاريخ، أما الفاسدون والمكابرون والمعاندون لشرع الله فليس لهم مكان في الدنيا، فقد عذبهم الله بذنوبهم وطهر الأرض من رجسهم لتظل الأرض صافية نقية لعباد الله وحتى

تظل بذور ضاربة في عمق الأرض استعداداً للدين العالمي الذي جاء لخير البشر وهو الاسلام والله الموفق.

### سليمان عليه السلام

قال مجاهد: ملك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران: فالنمرود بن كنعان، وبختنصر. وقال كعب الأحبار: كان سليمان عليه السلام أبيض جسيماً مضيئاً يلبس من الثياب البيض، وكان خاشعاً متواضعاً، يخالط المساكين ويجالسهم، ويقول مسكين يجالس مسكيناً، اختصه الله تعالى بنعم عظيمة منها: تعليمه منطق الطير. قال تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) (سورة النمل، الآية 16) أي: ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال، لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليخص بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة" فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة، من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخص بها أقربائهم لأن الدنيا أهون على الورثة، وأحققر عندهم من ذلك كما هي عند المرسلين الذين اصطفاهم الله وأرسلهم وفضلهم.

قال وهب: لما استخلف داود ابنه سليمان وعظه فقال: يا بني إياك والهزل فإن نفعه قليل، ويهيح العداوة بين الاخوان، وإياك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه، وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس، وإن كانوا برآء، واقطع طمعك عن الناس، فإن ذلك هو الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وإياك وما يتعذر منه من القول والفعل. وعود نفسك ولسانك الصدق، والزم الاحساب فإن استطعت أن يكون يومك خيراً من أمسك فافعل، ولا تجالس السفهاء، ولا ترد على عالم ولا تماره في الدين وإذا غضبت فألصق جسمك بالأرض، وتحول من مكانك، وارج رحمة الله، فإنها وسعت كل شيء.

## نسبه

هو سليمان بن داود بن أبشأ وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل عليهم السلام، جمع له النبوة والملك، ولد في بيت المقدس - فك الله أسرها - وأعادها إلى ديار الإسلام. كان سليمان بن داود عليهما السلام أبيض جميلاً باراً بوالديه، على عكس أخيه أبيشالوم، الذي كان عاقاً سيء السمعة، اضطر والده داود أن يلجأ إلى الأراضي الأردنية، وإلى قلعة عمون ليحتمي بملكها خوفاً من عدر ولده أبيشالوم هذا. كان سليمان بصحبة والده داود عليهما السلام عندما لجأ داود إلى الأردن، اختصه الله تعالى بمكارم عدة فقد علمه تعالى منطق الطير وأورثه النبوة والحكمة من أبيه داود، ولا يظن أحد أن داود ورث سليمان مالا فالأنبياء لا تورث.

ويحكي المؤرخون قصصاً كثيرة عن حكمة سليمان منها ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم "بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء بالذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فداعهما سليمان فقال هاتوا السكين أشقه بينكما فقالت الصغرة يرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى وقد أثنى القرآن الكريم على سليمان لصواب رأيه وعلى داود لاجتهاده في قضية الزرع التي رعتها الأغنام، فكان قضاؤه مرضياً لأصحاب الزرع ولأصحاب الغنم".

قال تعالى: (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) (سورة الأنبياء، الآية 78 - 79).

كان سليمان محبباً إلى أبيه، فلما استخلفه قال له يا بني إياك والهزل فإن نفعه قليل، ويهيج العداوة بين الاخوان، وإياك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه، وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس، وإن كانوا برآء، واقطع طمعك عن الناس، فإن ذلك هو الغنى وعود نفسك الصدق والزم الإحسان فإن استطعت ان يكون يومك خيراً من أمسك فأنفعك.

لقد تربي سليمان تربية صالحة في كنف والده فزرع فيه بذور الخير فكافأه الله بالحكمة والنبوة وعلمه منطق الطير وسخر له الريح كما سخر له الجن والشياطين وأجرى له عيناً من نحاس.

فقد دعا سليمان ربه دعاء (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (سورة ص، الآية 35).

### سليمان والنملة

وذات يوم وبينما كان يستعرض سليمان أفراد جيشه من الإنس والجن والطير في وادي النمل قالت نملة ادخلوا مساكنكم حتى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. قال تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)) (سورة النمل، الآية 17 - 19).

يخبرنا الله سبحانه نعمة على داود وابنه سليمان، فيحدثنا القرآن الكريم بينما كان سليمان يستعرض قواته من مختلف الأجناس، قالت نملة لأفراد النمل ادخلوا مساكنكم حتى لا يحطمكم سليمان بخيله وجنوده، ففهم سليمان قولها فتبسم ضاحكاً من قولها وقال ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك وأن أعمل عملاً صالحاً تحبه وترضاه وإذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادة.

روى ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي فإذ هو بنملة مستقيمة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول "اللهم أنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك وألا تسقنا تهلكنا قال سليمان ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم".

وقد تعلم سليمان كثيراً من منطق الطير فصارت الأقوال حكماً بالغة قيل أنه أتى إليه طاووس فقال لجلسائه أتدرون ما يقول قالوا لا قال إنه يقول كما تدين تدان.

وصاح عنده هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال من لا يرحم لا يرحم وهددت حمامة عند سليمان فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال أنها تقول سبحان ربي الأعلى عدد ما في سماواته وأرضه.

وفي مجلس للطير، وقفت أصناف كثيرة من الطيور قال الغراب: اللهم العن العشار والقطاه تقول من سكت مسلم، والحدأة قال كل شيء هالك إلا وجهه، والبازي قال سبحان ربي وبحمده.

فإذا كان هذا النبي الكريم يفهم السنة الطير والحيوان فإنها لا تتكلم إلا حكمة، فقد صار هذا النبي الكريم حكيماً، كما سخر له الريح يصرفها بأمره وسخر الله له الجن (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (سورة سبأ، الآية 12) وللسليمان الفضل في البناء فهو الذي بنى سور القدس ومدينة تدمر وفي فلسطين له آثار كثيرة مثل برك سليمان قرب بيت لحم وقبة سليمان في ساحة المسجد الأقصى وكروسي سليمان في محيط المسجد الأقصى وسور سليمان المحيط بالحرم الإبراهيمي في الخليل.

أما في الأردن فقد اهتم سليمان بعمارة ميناء سليمان وهو ميناء العقبة وأفران النحاس والمنغنيز على ساحل البحر الأحمر وسحب المياه لتبريد مصاهر المعادن من البحر وله آثار في تل الخليفة وهناك مقام سليمان في صرفه (الكرك).

### عدد جيش سليمان

اختلف المفسرون في عدد جيش سليمان من الإنس والجن والطير، وقيل أن معسكره كان مئة فرسخ، والصواب أن الدنيا انقادت إليه ولكل صنف وزعة (رتبة) من الإنس والجن والطير والوحش.

وأما وادي النمر التي استعرض فيه سليمان جيشه فقيل أنه بوادي السدير من أودية الطائف واسمها طاخية، ولا أظن أن النمل تسمى باسم لأن هذه الأمر معروف في البشر، وهو كلام فيه إسرائيليات والصواب أن وادي النمل معروف في السلط، فهناك مكان يسمى وادي النمل في مدينة السلط وفيه التقى سليمان بالنمل والسلط ليست بعيدة عن بيت المقدس.

وقال آخرون أن وادي النمل في اليمن وأن النملة كانت مثل النمل المعتاد. وأظن أن وادي النمل هو الوادي الموجود في السلط فقد كانت مملكته ببيت المقدس على علاقة ودية مع مملكة ربة عمون ولا نستبعد أن يأتي سليمان إلى السلط ويتفقد جنده ثم يعود إلى مملكته والله أعلم.

ولكن الثابت أن النملة استوقفت سمع سليمان فتبسم من قولها ودعا ربه أن يمنحه القدرة على الشكر وأن يهبه ملكاً لم يمنحه لأحد قبله.

ومن طريق ما يروى أن رجلاً اعترض الخليفة العباسي المأمون واستوقفه ليعرض مسأله فلم يقف له فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن الله استوقف سليمان بن داود عليهما السلام لنملة يستمع إليها وما أنا عند الله بأحق من النملة وما أنت عند الله بأعظم من سليمان قال المأمون صدقت ووقف وسمع منه ولبى حاجته.

### سليمان والهدد

قال محمد بن إسحاق: كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه تفقد الطير فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدد ويروي القرآن الكريم القصة كاملة قال تعالى: (وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين (20) لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأدبجنه أو ليأتيني بسلطان مبين (21) فمكت غير بعيد فقال أحتط بما لم تحط به وجنتك من سبأ بنياً يقين (22) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (23) وجنتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (24) ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون (25) الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم (26) قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين (27) اذهب بكاتبى هذا فآلفه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) (سورة النمل، الآية 28/20).

كان يوماً حافلاً ذلك اليوم في وادي النمل، فنبى الله لم يرد الهدد وقيل كان الهدد مهندساً يدل سليمان على موضع الماء فينظر في تخوم الأرض فإذا ادلهم أمر سليمان الجن فحفروا ذلك المكان فيستببط الماء، وقال سليمان (لأعذبنه عذاباً شديداً) قال ابن



عباس يعني نتف ريشه وتركه ملقي على الأرض يأكله النمل وقوله (لأذبحنه) يعني لأذبحنه فقالت الطير للهدد تهدد سليمان ووعيده قال الهدد: هل استثنى نبي الله. قالوا نعم وقد قال (أو يأتيني بسلطان مبين) قال الهدد نجوت إذن لم تطيل غيبة الهدد وجاء إلى سليمان لقد علمت بشيء لم تعلمه أنت من قبل إني وجدت امرأة تحكم القوم وهي بلقيس ملكة سبأ وحظيت هذه الملكة بمتاع الدنيا ولها عرش عظيم.

ويحدثنا علماء التاريخ عن حياة البذخ في القصر، فهو قصر شاهق البناء جميل البناء، بديع الصنعة، فيه سرير تجلس عليه الملكة مزخرف بالذهب وبأنواع شتى من الجواهر واللائي، فيه ثلاثمائة وستون طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه، وقد صمم هذا البناء على أن تدخل الشمس كل يوم في طاقة فهو يؤلهون الشمس ويسجدون لها صباحاً ومساءً من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فهم لا يهتدون ولم يهتدوا إلى عبادة الإله الواحد القهار (الذي يخرج الخبء في السموات والأرض) قال ابن عباس، يعلم كل خبيئة في السموات والأرض، وقال سعيد بن المسيب، الخبء: الماء، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبأ السموات والأرض ما جعل فيها من أرزاق، المطر من السماء والنبات من الأرض.

ولما كان الهدد داعياً إلى الخير وإلى عبادة الله وحده فقد نهى عن قتل الهدد، ويتابع الهدد حديثه مع نبي الله سليمان، ويفكر نبي الله في كلام الهدد وقال له سننظر في الأمر، وكتب سليمان إلى بلقيس كتاباً ثم قال للهدد إذهب بكتابي هذا فألقه على الملكة ثم تتح جانباً وأنظر كيف تتصرف الملكة وأفراد مملكتها.

صحت الملكة من نومها فوجدت الكتاب وأمرت بالحاشية فأحضرت وقالت لهم جاني كتاب كريم وأنه من سليمان وأن نصه "بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين".

كتاب موجز قصير، مبدوء بالبسملة وهذا أول كتاب تكتب فيه البسملة اما أنه كتاب كريم فإن الكتاب حمله طائر (الهدد) ووضعه بين يدي الملكة وانزوى جانباً تأدباً ورياسة.

كان الكلام موجزاً والرسالة قصيرة مؤثرة، بسم الله الرحمن الرحيم لا تتكبروا علي وأتوني موحدين، وقال سفيان بن عيينه أتوني طائعين.

قالت بلقيس للمستشارين لن أتصرف أي تصرف إلا بعد أخذ مشورتكم، قالوا لها نحن أشداء أقوياء ولا شيء يعيقنا عن حربه - إن شئت، لكن بلقيس الحكيمة كانت أعلم منهم بشأن سليمان وأنها لا قبل لها بحرب سليمان عليه السلام وقال أخشى أن نحاربه فيقصدنا بجنوده ويدمرنا ولذلك قالت ((إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)).

قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوها وخربوها.

قالت بلقيس: وكذلك فإن الملوك إذا قصدوا البلاد أهانوا من فيها من السادة والكبراء، ثم عادت بلقيس إلى المهادنة، وقالت: سأرسل إليه هدية تليق بمقامه ثم أنظر ماذا يكون بعد ذلك. قال ابن عباس: قالت بلقيس إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه، وصل الوفود إلى سليمان فقدموا هدية آنية ذهباً فلم ينظر إليها نبي الله وقال: أنصانعونني بالمال والذهب وعندي خير منه النبوة والملك والمال فأنتم قوم تتقادون للمال وأما أنا فلا أقبل منكم سوى الاسلام أو السيف بيننا.

قال ابن عباس فموه سليمان قصرأ من ذهب، ولما رأى وفد بلقيس القصر احتقروا هديتهم وعادوا إلى بلقيس فلما رأتهم بلقيس قررت الذهاب إلى سليمان والاسلام ومتابعته ولما سمع بذلك سليمان سر سروراً كبيراً.

وسلمت بلقيس مقاليد الحكم وسارت في اثني عشر فارساً وكان سليمان يبعث في أثرها الجن لموافاته بأخبار قدومها من اليمن إلى بيت المقدس حتى إذا دنت جمع الإنس والجن وقال من يأتيني بعرشها قال أحد الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وأنا قوي أمين.

قال ابن عباس يعني قبل أن تقوم من مجلسك وقال مجاهد مقعدك وأما قول الجني بأنه أمين أي أنه أمين على ما في العرش من جواهر وياقوت قال سليمان: بل أريد أعجل من ذلك.

قال مارد من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك.

لقد كان هدف سليمان من إحضار عرش بلقيس إظهار قوته وجبروته وعظمته وما وهبه الله من الملك، قال رجل من أهل الكتاب أنا آتيتك بعرشها قبل أن يرتد إليك طرفك قال ابن عباس هو أصف كاتب سليمان وقال قتادة كان مؤمناً من الجن وزاد قتادة كان مؤمناً من بني إسرائيل.

فقام سليمان وتوضأ ودعا الله فإذا العرش بين يديه قال يا ذا الجلال والإكرام يأمر سليمان أن يغير بعض صفات العرش ليختبرها قال مجاهد أمر فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر وهكذا، فلما وصلت بلقيس إلى القدس قالت كأنه هو قال لها نبي الله أدخلني الصرح، حيث أن نبي الله أمر الجن أن يبنو لها قصرًا من زجاج وأجرى تحته الماء ليربها ملكاً هو أعز من ملكها فحسبته لجة وكشفت عن ساقها خشية الماء، فلما وقفت أمام سليمان عاتبها لعبادته الشمس ودعاها إلى التوحيد قالت (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) فأسلمت بلقيس وحسن إسلامها وكثرت الاسرائيليات عن سبب كشف بلقيس عن ساقها فقيل أنهم أرادوا أن يجعلوها بشعة أمام سليمان فيظهر الشعر فينفر منها ومن قائل أن أم بلقيس جنية وتتسلط عليهم، وهذا كله كلام مردود وقيل أن سليمان تزوجها وأبقاها على ملك اليمن وكان يزورها كل شهر ويبقى عندها ثلاثة أيام ثم يعود سليمان إلى بيت المقدس وهذا أمر لا غرابة فيه فقد سخر الله له الريح.

قال تعالى: ( وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِرَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) سورة ص، الآية 30 / 40.

بعد أن يحدثنا رب العزة عن خلق سليمان المطيع يذكر أنا وهب له من الخيل الصافنات التي تقع متأهبة على ثلاث قيل وكان سليمان منشغلاً بالخيل فتأخر عن الصلاة فطلبها وضربها بالسيف على أقدامها وأعناقها لأنها شغلته عن ذكر الله، فترك سليمان الخيل وعوضه الله بالريح بدلاً من الخيل فكانت تأتمر بأمره ثم يذكرنا القرآن الكريم أن سليمان كان قاضياً بارعاً قيل بينما امرأتان معها ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن أحدهما فتنازعتا قالت الكبرى إنما ذهب ابنك قالت الصغرى، إنما ذهب بابنك فتحاكما فذهبتا إلى داود فحكم للكبرى فخرجتا على سليمان فقال انتوني بسكين لأشقه نصفين لكل واحد منكن نصفه قالت الصغرى يرحمك الله هو ابنها فحكم لها.

قلنا لما ترك سليمان الخيل عوضه الله بالريح حيث إذا أراد بلداً من البلاد كان له بساط يسع ما يحتاجه من خيل أو أدوات فتحمله الريح إلى ما يريد تحمله الريح من بيت المقدس فتغدو به مسيرة شخر.

قال الحسن البصري: كان يغدو من دمشق فينزل باصطنخر فيتغذى بها ويذهب راثحاً منها فيبيت في كابل وبين كابل واصطنخر مسيرة شهر، قال تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاخُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ). (سورة سبأ، الآية 12 - 13).

قال ابن عباس وقتادة وعكرمة القطر هو النحاس، وكانت باليمن أنبعها الله قال السدي: ثلاثة أيام نبعها الله وأخذ منها ما يحتاج للبيانات.

وكانت الجن تعمل لسليمان ما يشاء دون خروج عن أمره من محاريب وتماثيل وأحواض لجبي الماء والقدر الثابتة التي لا تنزل لكبرها ومن الشياطين من سخره سليمان للبناء وآخرون للغوص لاستجلاب اللؤلؤ والجواهر، ومنهم من حبس وقيد بالأصفاد نتيجة خروجه عن طاعة سليمان عليه السلام.

وقد ابتلي سليمان بفتنة كما يحدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال

سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله.

فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل ولم تحمل منهن إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه قال النبي صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا في سبيل الله أجمعين. وقيل أن الفتنة التي أصابت سليمان عليه السلام هي في جسده حيث ابتلي سليمان بمرض شديد تحل منه وضعف حتى صار لشدة المرض كأنه ملقى على كرسي ثم رجع إلى حالة الصحة.

أما ما تقوله الإسرائيليات فهو كلام لا يقبله عقل، فبنو إسرائيل عرفوا بتهجمهم على الأنبياء وعدم احترامهم الأنبياء، فقولهم إن الشيطان تمثل بسليمان خطأ.

### سليمان في الأردن

ابتلى داود عليه السلام بولد عاق هو ابيشالوم، فقد تمرد هذا الولد العاق على أبيه وأسرته ورغب في ان يحل محل أبيه، فاضطر داود عليه السلام وأفراد أسرته إلى اللجوء للأردن وإلى ربة عمون في جبل القلعة بعمان اليوم.

ولم يكتف أبيشالوم بخلع والده على العرش بل طارده بجيش كبير يقوده الخائن (عماسا بن بئرا) الإسرائيلي وأقام هذا الخائن وجيشه في منطقة السلط، وخرج الجيش الداودي لملاقاة ابيشالوم وجيشه المتمرد.

كان مع داود عدداً من أولاده، وكان معهم الولد المطيع سليمان ورغم عقوق ابيشالوم قال داود لجيشه: ترفقوا بالفتى ابيشالوم كان سليمان واحداً من تسعة عشر صبياً لداود وقد تزوج سليمان من زوجة أوريا القائد العظيم.

إذن وطئت أقدام سليمان ثرى الأردن وأقام فيها فترة من الزمن وظل مع أخيه (أمنون) يحارب في سبيل العودة إلى بيت المقدس الذي سلب الحكم من أبيه داود عليه السلام. ويقال أن سبب خروج ابيشالوم على أبيه داود عليه السلام كان تحريضاً من زوجته أم سليمان التي كان داود يحبهما كثيراً وكانت تكره سليمان لأنه مؤهل للحكم أكثر من أبيشالوم.

ولتكلمة الحديث عن علاقة سليمان بالأردن نقول أنه كان مع جيش أبيه في (أفراثيم) التابعة لأرض (جلعاد) أي السلط والمقابلة للأغوار وكان فيها مقتلة عظيمة. وبناتصار داود عاد سليمان مع والده إلى القدس، ولم ينس داود الذين كرموه في الأردن فطلب منهم الذهاب إلى بيت المقدس ليكرمهم الشعب اعترافاً بفضلهم.

### اسرائيليات وخرافات في قصة سليمان عليه السلام

#### 1. خاتم النبوة، والمارد صخر!!

قال الله تعالى: (( وَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)). (سورة ص، الآية 30 - 35).

وإليك ما سطره السفهاء من أهل الكتاب، والزنادقة، ونقله عنهم المسلمون في كتب التفسير فسودوا بها صفحاتهم وكانوا في أشد الغنى عنها:

1- ذكر الطبري برقم (29875) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخيل أي

(الصافنات الجياد) أخرجها الشيطان لسليمان من مرج من مروج البحر وقال:

الخيول والبغال والحمير تصفن، والصفن: أن تقوم على ثلاث وترفع رجلاً واحدة

حتى يكون طرف الحافر على الأرض، وزاد مجاهد (29877) أنها كانت

عشرين فرساً ذوات أجنحة ولا أدري كيف استطاعوا تحديد عدد الخيول،

وصفتها؟ وكيف استطاع الشيطان أن يخرجها لسليمان من البحر؟ وهل من

السهل هكذا أن يلبس الشيطان على نبي من الأنبياء هذه الأضغاث

والكوابيس، وليس له عليه سلطان؟ أويكفينا أن الرواية تولت كبرها رأس

الوضاعين: عبد الله بن زيد بن أسلم.

2- وفي تفسير الجلالين على هامش المصحف الكريم قال: (فتنا سليمان) امتحناه

وعاقبناه، و(جسداً) أي لا روح فيه ولا قوة، وقيل: شيطان.

3- أما المارد صخر، وخاتم سليمان وفتنة سليمان فتسوقها هذه الرواية التي بلغ بها الفحش مبلغاً عظيماً حتى نالت من نبي الله سليمان عليه السلام، فقد ذكر الطبري (2990) عن السدي، وذكر السيوطي في الدر المنثور (7/ 179 - 180) بنفس السند عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء، فأعطى (الجراد) خاتمه - وهي أثر نسائه عنده، وكانت أحبهن إليه - فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها هاتي خاتمي، فأعطته، فلما لبسه دانت له الجن، والإنس، والشياطين، فلما خرج سليمان عليه السلام قال: هاتي خاتمي، فقالت: قد أعطيتك سليمان قال: أنا سليمان قالت كذب لست سليمان فجل لا يأتي أحداً يقول له: أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله عز وجل، وقام الشيطان يحكم بين الناس.

فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان عليه السلام سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان عليه السلام فقالوا: أياكم من سليمان شيء؟ قلن نعم، إنه يأتينا ونحن حيض وما كان يأتينا قبل ذلك !!! فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر ومكر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس قالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم، فكفر الناس سليمان، فلم يزلوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فطرحه في البحر، فتلقته سمكة فأخذته، وكان سليمان عليه السلام يعمل على شط البحر بالأجر !!!، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فدعا سليمان عليه السلام فقال: تحمل لي هذا السمك؟ ثم انطلق إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى باب داره، أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فأخذها سليمان عليه السلام، فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه، وكان شيطاناً مريداً يطلبونه ولا يقدرّون عليه حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاءوا فنقبوا عليه بنياناً من رصاص،

فاستيقظ، فوثب، فجعل لا يثبت في مكان من البيت إلا دار معه الرصاص، فأخذه وأوثقه وجاءوا به إلى سليمان عليه السلام، فأمر به فنقر له في رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر فطرح به في البحر، فذلك قوله (ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً) (سورة ص، الآية 34)، يعني الشيطان الذي كان تسلط عليه !!

- ثم أخرج الزمخشري بأسوأ مما سبق فقد قال: إن سليمان لما أصاب ابنة ملك صيدون، واسمها جرادة، أعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبّت، فخوفها، فقالت: اقتلني ولا أسلم، فتزوجها وهي مشركة، فكانت تعبد صنماً من ياقوت أربعين يوماً في خفية من سليمان إلى أ، أسلمت، فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوماً. (الكشاف م 3 - 328).

- وذكر كعب الأحبار أن سليمان لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه، ذكره القرطبي (15 / 190).

- وذكر الحسن البصري - كما هو في تفسيره (2 / 253) أنه - أي سليمان - قارب بعض نسائه في شيء من حيض أن غيره، وهذا أبعد ما يكون.

### ردود العلماء على هذه الافتراءات

1- قال الزمخشري (3 / 329) في تفسيره بعد ذكر قصة الخاتم ولقد أبى العلماء المتقون قبوله، وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وتسلط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام !!!

2- وقال القاضي عياض (2 / 189) في الشفا: ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به وتسلكه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله.

3- وقال ابن كثير (7 / 60) في تفسيره: وهذه كلها من الإسرائيليات، ثم ذكر رواية ابن عباس وقال: اسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما إن صح عنه - من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا تعتقد نبوة سليمان عليه السلام فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها: ذكر النساء. قلت: وقد ذكرنا أن



صحة السند لا تعني المتن خاصة إن كان المتن فاسداً، والسند هنا مهلهل  
النسج من السهل أن يبصره الأعمى قبل البصير.

4- أما الفخر الرازي - رحمه الله - في مفاتيح الغيب فقد أجاد في ذكر هذه الوجوه

الباطلة والرد عليها، فبعد ذكر هذه الروايات قال بردها على أربعة وجوه وهي:

الأول: أن فتنة سليمان أنه ولد ابن، فقالت الشياطين: إن عاش صار مسلطاً علينا مثل  
أبيه، فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان عليه السلام ذلك، فكان يريه في السحاب، فينما  
هو مشغول بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتتبه على خطيئته في أنه لم  
يتوكل فيه على الله تعالى فاستغفر ربه وتاب.

الثاني: روي أنه عليه السلام قال: قال سليمان: (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل  
واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله فطاف تلك الليلة على  
مائة امرأة، فلم تلد منهم امرأة إلا امرأة ولدت نصف إنسان) فقال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم "لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل  
الله" (إواه أحمد، 2 / 229) وأصله في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه.  
فذلك قوله: (ولقد فتنا سليمان) وهذا ما نميل إليه ونرجحه.

الثالث: (ولقد فتنا سليمان) أي بسبب مرض شديد ألغاه الله تعالى عليه حتى صار لشدة  
المرض كأنه جسم بلا روح، وقوله (ثم أناب) أي رجع إلى حال الصحة.

الرابع: إن الله عز وجل ابتلاه بتسليط خوف أو توقع البلاء من بعض الجهات عليه،  
وصار بسبب قوة ذلك الحوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم أزال الله  
عنه ذلك الخوف، وأعادته إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب.

وهذا هو ما قاله العلماء المحققون وهو الصواب في نظرنا - والكلام للرازي - لقيام  
الأدلة على حفظ رسل الله من ذلك الهراء الذي نصبه الأعداء للنيل منهم.

قلت: والوجه الثاني هو الوجه الذي قال به العلماء المحققون كالألوسي، والشنقيطي  
وهو ما يتفق وما نعتقده من عصمة الأنبياء.

## وفاة سليمان

قال تعالى: ( فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ) (سورة سبأ، الآية 14) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان نبي الله إذا صلى رأى شجرة ثابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك فتقول كذا، فيقول لأي شيء أنت فإن كانت لغرس غرس أو لنبت أنبتت، فينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها ما اسمك؟ قالت: الخروب قال لأي شيء أنت قالت لخراب هذا البيت قال اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب منحتها عصا فتوكأ عليها حولاً والجن تعمل فأكلت الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب وإلا لما لبثوا في العذاب المهين فشكرت الجن للأرضة وكانت تأتيها بالماء".

وقد روى السدي هذا الخبر أيضاً ورواه الحافظ وابن عساكر عن طريق مسلمة بن كهيل والله أعلم بالصواب.

قال اسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش اثنين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة.

وفي سنة أربع من حكمه ابتدئ ببناء بيت المقدس ثم ملك بعده ابنه رحبعام وحكم سبع عشرة سنة قال ابن جرير تفرقت مملكة بني إسرائيل من بعده وقيل أن آخر ملوك القدس هو أرميا.

## السبي الأول

قال هشام الكلبي قدّم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل قاروا على ملكهم فقتلوه لأنه صالح بختنصر، ف ضرب بختنصر رقاب من معه من الرهائن ورجع إلى بيت المقدس وأخذ المدينة عنوة وسبى الذرية.

قيل ووجد بختنصر أرميا مسجوناً فقد سجنه الإسرائيليون لأنه حذرهم من عقاب الله ومن مخالفة أمر الله، ولما علم بختنصر ذلك قال ببس القوم عصوا رسول الله وخلي سبيله وأحسن إليه واجتمع مع ضعفاء بني إسرائيل فقالوا لنبيهم إنا تبنا فادع لنا فدعا

ربه فأوحى إليه ربه أنه فاعل فإن كانوا صادقين فأقيموا معه في هذه البلدة قالوا كيف نقيم وقد غضب الله على أهلها فأبوا أن يقيموا فيها.

قال ابن الكلبي ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة بوادي القرى وذهبت طائفة إلى مصر

### خاتمة المطاف

وبعد تفرق اليهود في البلاد أوحى الله إلى أرميا أنني معمر هذه القرية فخرج إليها حتى هلك بختنصر وأعاد تعمير بيت المقدس فأقام الله أمر بني إسرائيل ولم يكن لهم سلطان فتمكنوا كذلك حتى غلبت الروم في زمن ملوك الطوائف وختاماً فقد كان سليمان عليه السلام نبياً حكيماً استطاع أن يحكم الإنس والجن ووهب الله له ملكاً واسعاً عرف منطق الطير وتعامل مع الطير وتوالى أنبياء الله يصححون أخطاء البشر ويقومون سلوكهم تنفيذاً لأمر الله في عمارة الأرض واستخراج كنوزها، وتوفير سبل العيش الكريم لبني البشر في نسر العدالة بينهم ودرئهم من الشرور والآثام.

### عيسى بن مريم عليهما السلام

الحديث عن عيسى بن مريم عليهما السلام حديث ممتع يأسر القلوب ويصدر من معلم حبيب يناجي النفس البشرية فقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح، هداية إنسان لا سلطه له علي أحد، غير العطف ومكاشفة القلوب والافهام، فكانت حاجة الدنيا منذ ولادته عليه السلام إلى نور يملأ النفوس، وإلى يقين ينقي القلوب، بعد أن تحجرت القلوب وتبلدت الأفهام فجاء المخلص المسيح إلى بني إسرائيل.

ويقول عباس محمود العقاد "وقد يشتد الأمل في المخلص حين تشتد الحاجة إليه، فكان المصريون القدماء يترقبون المخلص المنقذ، وكان البابليون ينتظرون (مردخ المخلص) ليجمع الفتنة وتطهيرها من الفساد، وكان الفرس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث من جسد إنسان".

أما ظهور عيسى بن مريم عليه السلام كمخلص يظهر بطور رسول إلهي فلم يعرف قبل التوراة وتفسيراتها وإنما عرف بالمسيح فمن هو المسيح؟

## أصل التسمية

ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر الواردة في سفر التكوين وسفر الخروج فإن المسيح بالزيت شعيرة من شعائر التقديس والتكريم، فكان مسح الملوك هو شعائر التتويج وقد مسح داود بالزيت فهو من بين هؤلاء المسيح - عباس محمود العقاد، ص (32) منشورات المطبعة العصرية / دار بيروت.

كما أطلقت كلمة المسيح على كل منذور مختار، فسمي كورش الفارسي (مسيحاً) وتكررت الكلمة في كتب التعاليم أو (الهجادا) إشارة إلى الرسول المنتظر فتارة يطلقون كلمة المسيح على يوسف وتارة على موسى عليهما السلام، وثالثة على عيسى ابن مريم وهو لقب التصق به عليه السلام إلى يومنا هذا، وإذا نظرنا إلى اعتقاد بعض الطوائف اليهودية ينتظرون مسيحاً آخر في صورة هاد أو صورة مبرور لأنهم لا يدينون برسالة عيسى عليه السلام، وقد كان الإيمان بالمسيح الموعود شعوراً جارفاً بعد زوال مملكة داود عليه السلام حتى ارتقى إيمان بني إسرائيل إلى ضرورة ظهور مسيح هاد ومبرور.

ولا نستغرب كثرة الأنبياء في بني إسرائيل في فترات متقاربة، وقد يظهر نبي إن نبيان أو أكثر في بني إسرائيل وفي زمن واحد، فهم كالعلماء في أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" فلم يكن قيامهم منكراً فهم - عليهم السلام - أشبه بالفقهاء في الأمة الإسلامية.

ويجوز أن يظهر النبي في بني إسرائيل وتصدق علاماته ولا يصدقونه حتى ولو أظهر المعجزات، فمن الأنبياء من يصوم ويجتهد ويتعهد ولا يأكل طعاماً شهياً، وقد يطلب بنو إسرائيل أية من نبي، فإن أتى بها فقد يكذبونه وإن كان صادقاً.

وفي عصر الميلاد ترقبت النفوس بشائر الدعوة الإلهية، كما يتربق الفلكيون ظهور نجم أو مذنب حان موعد ظهوره، فإن ظهرت المعجزة يكون بنو إسرائيل في أشد العسرة للتصديق.

هكذا حال بني إسرائيل من ظهور المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام حالة ترقب وحذر، بين مصدق ومكذب، وبين منتظر يرجو الخلاص منه، وآخر يتربص يجد الخلاص على يديه.

أما الحالة السياسية، فقد خضعت فلسطين بل وسوريا الكبرى للدولة الرومانية بقيادة (بومباي) الذي قضى على ثورة العبيد بقيادة (سبارتاكوس) لكن الأمر لم يطل، ففي فلسطين والشام كان يتنازعهما دولتان دولة الفرص ودولة الروم، فمنهم من كان يشايح الفرس، ومنهم من كان يشايح الروم وانتقلت عدوى التباغض إلى رجال الدين من كلا الطرفين، وظل جنوب فلسطين يتمتع بحكم رأس قبائل الآدوميين (هيرود) الذي عرف بثاقب نظره الكفة الراجحة فداهن السلطة الدينية بأن جعل قبيلته يعتنقون ديانة بني إسرائيل وداهن الإغريق بالأزياء والمساكن لكن أبناء شعبه ثاروا عليه، فاقتيد (هيرود) إلى المحكمة، وحرقوه حياً، وتمت البلوى بأن اختلف أبناء هيرود فيما بينهم فقسمت البلاد بين الأولاد الثلاثة وأقسموا ولاء الطاعة لروما.

فكان هيرود الثاني يحكم الجليل حيث ولد عيسى عليه السلام، ووقعت اليهودية في يد أرخلاوس أما مشارق الشام فكانت من نصيب فيليب في هذا الجو المشحون بالتفكك والتوتر ولد عيسى بن مريم عليه السلام.

### مريم أم عيسى عليهما السلام

أفرد القرآن الكريم سوى آل عمران وأفرد في صدرها ثلاثاً وثمانين آية تتحدث عن مريم، وترد على زعم بعض النصارى الذين يقولون أن الله ولداً وبين القرآن الكريم كيفية خلق عيسى عليه السلام.

خلق آدم عليه السلام بلا أب ولا أم وإنما بواسطة النفخ، وخلق عيسى عليه السلام بأم بلا أب وهذه معجزة أيضاً، فعندما جاء الملك مفوضاً من عند الله لتتم عملية الخلق (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بِغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝ (سورة

مريم، الآية 18 - 21). قال لها جبريل عليه السلام كيف تتعجبين من هذا الخلق والله عند هذا الأمر هين، فسكنت نفسها وهذأت.

ومريم سيدة طاهرة عابدة امتدحها القرآن الكريم وهي من بين آل عمران وهو بيت طاهر مشهود له بالعفة والدين، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (سورة آل عمران، الآية 33 - 37).

يذكر القرآن الكريم أنه اصطفى آدم واختاره كما اختار الخالص من ذريته الذين يتبعون شرعه ولا يجيدون عن ملته وذكر (آل إبراهيم) وهذا بيت كريم شريف المحتد منهم آل اسماعيل وآل عمران ومنهم والد السيدة العذراء مريم عليها السلام.

### نسب مريم

لا خلاف على أن سلالة مريم من سلالة داود عليه السلام ووالدها عمران بن ياشم ابن أمون يتصل نسبه بداود أما أمها فهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات الصالحات، عاشت في عهد النبي زكريا عليه السلام وهو زوج أختها (أشباع) وقيل زوج خالتها.

وعلى جميع الأحوال فإن مريم تنسب إلى نبي ومملك كريم وهو داود وتربت في بيت نبوة، حيث عاصرت نبي الله زكريا عليه السلام وذكر محمد بن اسحق وغيره، أن أم مريم لم تحمل ورأت يوماً طائراً يزق فرخاً فاشتتهت فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً (حبيباً) في بيت المقدس.

وشأنت إرادة الله أن تحمل فحملت في مريم، ولما وضعت (حنه) وليدها إذ هو أنثى، فقالت رب إني وضعتها أنثى وكنت محتاجاً إلى ذكر فإن خدمة بيت المقدس للذكور أوجب من الإناث ثم قالت وإني سميتها مريم وإني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال "ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها".

وقال أحمد أيضاً: حدثنا اسماعيل بن عمر حدثنا أبي ذؤيب عن عجلان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان باصبغه إلا مريم ابنة عمران وابنها عيسى".

فلما ولدتها أمها حين وضعتها لفتها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها للعباد فتنازعوا عليها، والظاهر أنها فعلت ذلك بعد أتمت الرضاعة وطلبوا القرعة بان وضعوا أقلاماً في نهر الأردن فغاصت الأقلام إلا قلم زكريا فوضعت عند زوج خالتها والخالة بمنزلة الأم فكفلها زكريا وكان زكريا كلما دخل عليها المحراب في مكان لا يدخله أحد، يراها تقوم بالعبادة ليلاً ونهاراً ويجد عندها خيراً كثيراً فيسألها من أين لك هذا الخير يا مريم فتقول رزق بعثه الله إلي، ويستمر السياق القرآني في الحديث عن ابنة عمران العابدة الطاهرة. (إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِبْهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمَصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (سورة آل عمران، الآية 44 - 51).

اختار الله مريم من بين نساء العالم في زمانها وبشرها بعبسى، كلمة الله واختارها للمعجزة الكبرى مولود بلا أب، مولود شريف، يدعوا الناس في صغره إلى عبادة الله وحده لا شريك له وكذلك الحال في شبابه وكهولته وأمر هذا المولود بكثرة العبادة والطاعة ليكون أهلاً لهذه الكرامة.

هذه البشارة التي بشرها الله لمريم عليها السلام جعلها تجد في الطاعة ولا تنقطع عن تسبيح الله وحمده حمداً يليق به سبحانه حتى قيل أن قدمها قد تقطرت من كثرة القيام والسجود.

كانت مريم خير نساء العالمين قبل زمانها وبعده أن أعدناها نبيه حيث كلمها الوحي، وهي خير نساء زمانها.

روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "خير نساءنا مريم ابنة عمران وخير نساها خديجة بنت خويلد".

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومهما يكن من شيء فإنه مريم بنت عمران من خيرة نساء العالمين فقد بشرها الوحي بعبسى عليه السلام وبين دلالات نبوته يعلم الناس في المهد جاء بالإنجيل رسولاً إلى بني إسرائيل له كرامات يشفي بعض الأمراض بإذن الله ويحي الموتى بإذن الله وفي نهاية المطاف دعا إلى توحيد الله وطاعته.

### ولادة عيسى عليه السلام

قال الله تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بِبَغِيّاً (20) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلْهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمراً مَقْضِيّاً (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ



مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (23) فَوَدَّعَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَرَبَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (25) فَكَلِمَةَ أَشْرَى وَفَرَّيَ عَيْنًا فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا (28) فَأُشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (سورة مريم الآية 16 - 37).

كانت مريم في مكان شريف في المسجد لا تفارقه حتى جاءها جبريل عليه السلام. وبشرها أنها ستحمل غلاماً فتعجبت كيف تحمل ولداً بلا والد فأخبرتها الملائكة أن الله قادر على فعل كل شيء، عندها أذعنت للقدر الإلهي، وعلمت أنها ستكون في محنة عظيمة فالناس لم يعرفوا واقع الحال.

وذات يوم وبينما هي خارجة لبعض شؤونها انفردت وحدها شرقي المسجد وقال لها جبريل أنا رسول ربك ستحملين ولداً وسيكون هذا المولود آية للناس، فنفخ جبريل في جيب قميصها (ثوبها) فحملت من فورها وقيل استمر الحمل ساعة وقيل ثلاث ساعات وقال آخرون ستة أشهر أو تسعة وكانت ابنة عشرين سنة فقاضت ذرعاً بالحمل وشاهدها رجل من عباد بني إسرائيل على هذه الحالة فاستغرب الحمل وهي المرأة الفاضلة الطاهرة، وكان ابن خالتها حاضراً فقال لها يا مريم هل يكون زرع من غير بذر قالت نعم فمن خلق الزرع الأول قال فهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم آدم قال فأخبريني خبرك قالت إن الله بشرني (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ الصَّالِحِينَ) (سورة آل عمران، الآية 45 - 46).

وقد مر معنا في قصة يحيى عليه السلام قالت مريم إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك أرى ذلك لتفضيل عيسى لأن الله جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص.

ولما شعرت مريم من اتهام قومها لها بالريبة ابتعدت عنهم حتى لا تراهم واستقرت في ربوة هي جبل مرتفع عند المعطس فتغير لونها وشاع الحديث في بني إسرائيل فاتهموها وقالوا إنما صاحبها يوسف، فاخفتت عن الأنظار حتى اضطرها ألم الولادة ألجأها إلى جذع نخلة، فقال السدي كان شرقي محرابها التي تصلي فيه وقال وهب بن منبه كان ذلك على بعد ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية يقال لها بيت لحم وهذا هو المشهور ولا يشكك فيه النصارى قالت مريم (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا) (سورة مريم الآية 23).

فهي كانت في عيون الناس عابدة زاهدة أما الآن فهي فاجرة ولا تمتلك دليلاً على صدق موقفها.

كان لجوؤها إلى النخلة إلهام رباني فقد قال لها جبريل عليه السلام (وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا) (قال الربيع خيثم) (ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل) وقال عمرو بن ميمون (ما أدري للمرأة إذا عسرت عليها ولادتها خير من الرطب).

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمضغ التمر ويحنك به أولاد الصحابة حين يولدون.

قيل ثم أن يوسف النجار عمد إلى حطب فجعله كالحظيرة بالقرب منه وأشعل النار لتصطلي ثم كسر جوزات كانت في خرجه فأطعمها إياها فمن أجل ذلك توقد النصارى النار وتلعب الجوز ليلة الميلاد.

وناداه جبريل من أسفل الوادي، وقال مجاهد ناداها ابنها، وقال لا تخافي ولا تحزني قد جعل الله تحتك نهراً جارياً

وقال الضحاك السري النهر الصغير بالسريانية وقال السدي هو النهر وقال آخرون المراد بالسري عيسى بن مريم قال ابن عباس وقال لها خذي جذع النخلة وهزيه وكان مثمراً ناضجاً قال عمرو بن ميمون ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب. وقال لها جبريل ومهما رأيت من أحد فقولي إني صائمة وكان القوم إذا صاموا حرم عليهم الطعام والكلام روى ابن اسحاق عن حارثه قال كنت عند ابن مسعود فجاءه رجلان سلم أحدهما ولم يسلم الآخر قال ما شأنك؟ قال صاحبه: حلف ألا يكلم أحداً اليوم قال ابن مسعود كلم الناس وسلم عليهم فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لن يصدقها فقد حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم ابنة عمران - ليكون عذراً لها اذا سئلت، وقال عبد الرحمن بن زيد لما قال عيسى بن مريم لأمه لا تحزني قالت وكيف أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة أي شيء عذري عند الناس وقالت (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا).

أمرت مريم أن تصوم يومها ولا تكلم الناس فسلمت أمرها طائعة لله كي يفرج عما هي فيه من محنة فأخذت ابنها وضمته إلى صدرها وأتت به قومها فلما رأوها أعظموا ذلك واستكروه منها وقالوا لها يا شبيهة هارون في العبادة والنسك كيف يصدر منكم شيء كهذا فأنت من بيت طاهر أصيل مشهود له الصلاح والعبادة وإن أمك امرأة صالحة عفيفة... قيل يا أخت هارون قال السدي من نسله، وقيل أن هارون ليس هو أخي موسى، ولكنه رجل صالح محبوب في قومه.

فلما استتراب القوم في أمرها وعرفوا شأنها وأنها صائمة صائمة لا تتكلم أشارت إلى ولدها أن كلموه فقبل لها كيف نكلم طفلاً صغيراً، قال السدي لما اشارت له غضبوا وقالوا لسخريتها بنا تأمرنا أن نكلم الصبي، فتكلم الصبي وأول كلامه كان تنزيل الله عما لا يليق به، ونزهه - تعالى - وبرأه عن الولد وأثبت لنفسه العبودية لله وحده وبرأ والدته فقال: (وأتاني الكتاب وجعلني نبياً) قال مجاهد وجعلني مباركاً أين ما كنت ، أي معلماً للخير، واستطرد الغلام قائلاً وأوصاني بالصلاة والزكاة، كما أوصاني أن أكون باراً بوالدتي لا عاقاً لها، وختم مقالته والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً وفي ذلك اثبات من عيسى عليه السلام أنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت

وبيعت كسائر البشر ولكنه له السلامة في الأحوال كلها وهذه السلامة شاقة بل هي أشق ما يكون عليه الخلق.

وكان كلام عيسى عليه السلام (إني عبد الله) بعد أربعين يوماً من ولادته هو أول كلام تقوه به وهو الإقرار لله بالعبودية وأنه سبحانه وتعالى منزّه عما يقوله الظالمون بأن عيسى هو ابن الله بل هو عبد الله ورسوله وأن الله أوصاه بالصلاة وهذه وظيفة العباد على الأرض وتتمثل في الإقرار لله بالتوحيد والتواصل معه سبحانه بالصلاة فهذا حق الله على عبده، ثم أوصاه بالإحسان إلى عباد الله وبالزكاة وهي النماء والطهارة وتشمل طهارة الحال وطهارة النفس من الأخلاق الرذيلة.

كما أوصاه بالإحسان إلى والدته، فهو لا والد له، وهذا دليل واضح وشهادة الطفل أمام القوم ببراءة أمه وأن قدرة الله هي التي أوجدته في رحم أمه.

قيل ولما قدم وفد من نجران يناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن المسيح، فأنزل الله على رسوله صدر سورة آل عمران وما أن انتهى (العاقب عبد المسيح) من المناظرة حتى قال لقومه يا معشر النصارى لقد علمت أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالقصل من خبر صاحبكم (عيسى) ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم فإن كنتم قد أبيتم إلا ألف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فودعوا الرجل محمداً صلى الله عليه وسلم وانصرفوا إلى بلادكم فطلبوا ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم وأقروا بدفع الجزية.

ویمضي القرآن الكريم ويرد على الفرق المسيحية بلسان عيسى عليه السلام فهو عبد الله وليس له أب وهو ليس ابن الله كما تدعي بعض الفرق وليس إلهاً كما تدعي فرقة أخرى وليس ثالث ثلاثة كما تدعي فرقة ثالثة، فهو يعلن صراحة أن الله جعله نبياً لا ولداً ولا شريكاً لله تعالى.

بعد ذلك كله وبعد أن بين القرآن الكريم اختلاف الفرق المسيحية في عيسى وقول اليهود قولاً مشيناً في مريم بين القرآن قول الحق في عيسى بن مريم عليهما السلام فالله جل شأنه في عنى عن الشريك والزوج والولد.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من شهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل).

### الله تعالى منزله عن الولد

الله سبحانه وتعالى لا ينبغي الولد لأنه خالق كل شيء والكل محتاج إليه سبحانه، محتاج إلى رحمته، فهو رب من في السموات والأرض جميعاً، والذي يفترى على الله ويقول أنه سبحانه له ولد يرتكب خطيئة عظيمة (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (سورة الأنعام، الآية 100 - 103).

الولد لا يكون إلا بين شيئين متناسيين والله جلت قدرته لا شبيه له ولا نظير ولا عدل ولا صاحبة، لا نظير له في ذاته أو صفاته ولا أعماله فهو سبحانه لم يلد، أي لم يوجد منه ولد ولم يولد أي لم يتولد عن شيء قبله ولا عدل ولا مكافئ له ولا نظير تعالى الله علواً كبيراً.

إن الغلو في الدين يسبب الكفر، وكان الواجب على النصارى أن يؤمنوا أن عيسى هو عبد الله وأمه مريم البتول التي أحصنت فرجها فبعث لها جبريل فنفخ في جيب قميصها والذي اتصل بها من الملك هي المضافة إلى الله تعالى اضافة تشريف وتكريم وهي مخلوقة وسمي عيسا بها لأنه من غير أب وهي نفسها الطريقة التي خلق بها آدم. نقول بيت الله، تشريفاً لهذا البيت ونقول عبد الله تشريفاً لهذا العبد قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ). (سورة التوبة، الآية 30).

ادعت اليهود والنصارى على الله كذباً وزعموا أن له ولداً وليس لديهم حجة لما قالوا وإنما يرددون أقوالهم من سبقوهم في هذا القول الضال.

### القرآن يفند أقوال النصارى:

قال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة المائدة الآية 17) فالله غير عيسى بن مريم.

وقال تعالى: (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أُنْثَوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (سورة يونس، الآية 68). وقال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ). (سورة المائدة، الآية 75).

### نشأة عيسى بن مريم

يجمع المسيحيون على أن سيدنا عيسى عليه السلام ولد بمدينة بيت لحم القريبة من القدس بفلسطين ويرى وهب بن منبه أن مريم سافرت إلى مصر بصحبة رجل يقال له يوسف النجار ومكثوا في مصر مدة، وهذا كلام ينكره النصارى.

قيل ولما ولد عيسى ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك فارس أشفق من ظهوره وسأل الكهنة عن ذلك قيل هذا لمولد عظيم في الأرض، فلما جاؤوا الشام قيل أن عيسى بن مريم قد ولد ويكلم الناس وهو في المهد، وجاء الكهنة إلى بيت المقدس محملين بالهدايا حتى يصلوا إلى عيسى ويقتلوه فأرسل ملك الشام أن يا مريم جاء الكهنة ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به إلى مصر فمكثت اثنتي عشرة سنة ثم عادت بولدها.

وقيل أنه في ظل حضانة أمه مريم في بيت لحم ولما بلغ سبع سنين أرسلته إلى الكتاب ليتعلم فتعلم.

كان عبد الله بن عمر يقول كان عيسى بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان وكان يلعب معهم فكان يقول لأحدهم أتعلم ماذا خبأت لك أمك؟ فيقول الصبي نعم فيقول عيسى خبأت لك كذا وكذا فيذهب الصبي إلى أمه ويقول لها أطعميني مما خبأت

فتقول من أخبرك، فيقول عيسى بن مريم فقالوا والله لئن تركتك هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم وسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا إنما هؤلاء قردة وخنازير فقال: اللهم كذلك فكانوا كذلك (رواه ابن عساكر).

وترعرع عيسى في كنف أمه فهمت به بنو إسرائيل لأنهم رأوا منه العجائب فأوحى الله إلى أمه أن تتطلق به إلى مكان أمين، قال تعالى (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) (سورة المؤمنون: الآية 50) والربوة هي منطقة جبل نبو في (مأدبا).

وثمة أمر آخر، وهو أن الامبراطور الروماني (أوغسطس) ولي على بلاد الشام حاكماً ظالماً هو هيرودس، وكان قد علم من الكهنة أنه سيولد مولود سيكون له سلطان على اليهود فأمر بقتل كل طفل يولد في بيت لحم وتذكرنا القصة بفرعون موسى، فالظلمة لا وطن لهم ولا قومية ويتحدث الانجيل عن الحادثة ومفادها أن بعضاً من مجوس الشرق قد قدموا أورشليم (القدس) وقالوا قد طلع نجم المولود الذي سينزل لليهود فإن رأيناها سنسجد له، فلما سمع (هيرودس) ذلك أين سيولد المسيح قالوا في بيت لحم، وأرسل عماله ليجثوا عن الصبي، ورأوا الصبي مع مريم فخرجوا له ساجدين وقدموا له الهدايا واتفقوا على عدم الرجوع إلى هيرودس.

وأدرك هيرودس أن المجوس قد سخرؤا منه، فاعمل السيف في رقاب الأطفال في بيت لحم من سن سنتين إلى حديثي الولادة، ففرت مريم مع ابنها إلى مصر حتى مات هيرودس سنة (4م) فرجعت به إلى الناصرة وكان قد بلغ من العمر سبع سنين، وإلى الناصرة ينسب النصارى وشب وترعرع في مدينة الناصرة ولما بلغ اثنتي عشرة سنة جاء وأمه إلى القدس يصحبهم ابن عم مريم يوسف النجار، وفي إحدى الأيام وبينما كان يصلي وانتهت صلاته فتشت أمه عنه فلم تجده والتمسته في الناصرة فلم تجده وبعد عناء وجدوه يعظ الناس فاستغربوا أمره فحقد عليه اليهود فانصرفت به إلى الناصرة ولا يذكر التاريخ شيئاً عن حياته من سن الثالثة عشرة إلى سن الثلاثين حيث أنته النبوة في سن الثلاثين وكل ما نعرفه عن تلك الفترة أن النبي الشهيد (يحيى) العجلوني عليه

السلام كان يبشر بخروجه، فقد خرج يسوع إلى البر وصام أربعين يوماً ونزل عليه الوحي (الإنجيل) في ثمان عشرة ليلة بدأت في الثالثة عشر من رمضان، وظل نبياً في بني إسرائيل ثلاث سنين يدعوا الناس إلى التوحيد ويذكرهم بشريعة موسى ومبشراً بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقوم بالمعجزات منها شفاء الأمراض وإحياء الموتى بإذن الله عندها حقد عليه اليهود وعزموا على قتله ووشوا به إلى حاكم روما قائلين أن عيسى يسعى إلى زوال روما، وتم كفراً من إقناع القيصر فحكم عليه بالإعدام غائباً، فاختفى عيسى عن الأنظار ودخل القدس متخفياً وقال: (إن بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يسلمني).

وما هي إلا أيام حتى طارده اليهود والجنود الرومان والتجأ إلى مغارة فكان أول الداخلين الخائن (يهوذا الاسخريوطي) وصلبوه. قال تعالى: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ) (سورة النساء، الآية 157).

#### عيسى عليه السلام - في الأردن:

اليهود هم اليهود، كثيراً ما حدثنا التاريخ عنهم بمخالفة الأنبياء وقتلهم ولما لم يجد عيسى فائدة من البقاء في القدس قرر الهجرة إلى الأردن قائلاً: (لا كرامة لنبي في وطنه) وكانت جدارا (أم قيس) أول أرض يهاجر إليها يرافقه (بطرس) الخطيب المفوه الذي مات مصلوباً فيما بعد في روما (65 م) وأم قيس لها تاريخ مع اليهود ، فقد ثارت (جدارا) على اليهود الذين سكنوها وقتل أهل أم قيس جميع اليهود المتمردة بذلك على الحكم الروماني.

ولكن عيسى كان يزور منطقة شرقي النهر في فترات متقاربة ليجتمع مع يحيى وقد تعمد على يدي يحيى عليهما السلام.

بدأت الرحلة باتجاه الساحل الشرقي لبحيرة طبريا ثم إلى أم قيس ماراً بالمخبية إلى منطقة طبريا وكانت هذه الولاية مؤلفة من التلال الممتدة من (بيوق) الزرقاء إلى وادي الموجب (أرنون) وكانت تتمتع بحكم ذاتي كانت أول معجزاته عليه السلام معالجة رجل مجنون يعيش في القبور لم يستطع أحد السيطرة عليه، فكانوا كلما ربطوه بقيود أو سلاسل قطعها وجرح نفسه بالحجارة فلما رأى عيسى قال: ما لي ولك ولا تعذبني قال



لن أعذبك اخرج أيها الروح النجسة من جسم هذا الإنسان وقال عيسى ما اسمك قال  
\_(لحون) فخرج وطلب الجني والشياطين أن يدخلوا في الخنازير فأذن لهم فاندفعت إلى  
البحر وماتت كلها.

استأذن (الأخون) من عيسى أن يرافقه فلم يأذن له وقال اذهب إلى أهل بيتك فأعلمهم  
بما جرى ومضى ينادي في المدن العشر ويعلمهم بأنه شفي على يد المسيح.  
وقد توجه المسيح إلى منطقة طبريا وقال آخرون إلى جدارا وألقى خطبته المشهورة التي  
تحمل أرقى القيم . قال -عليه السلام-

(قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة  
ليشتهمها فقد زنا بها في قلبك فإن كانت عينيك اليمنى تعثر فاقطعها وألقها عنك لأنه  
خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم وإن كانت يدك اليمنى  
تعثر فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله  
في جهنم).

لا يقدر أحد أن يحب سيدين أنه إما يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلزم الواحد  
ويحتقر الآخر لا تقدر أن تخدموا الله والمتال.

ومتى صمت فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس  
صائمين الحق أقول لكم إنهم إن استوقفوا أجورهم وإما أنت فمتى صمت فادهن رأسك  
واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً بل لله الذي في الخفاء الذي يرى الخفاء  
يجازيك علانية.... الخ والخطية طويلة.

وكان عيسى بن مريم رسوم محبة وسلام، لقد مهد الطريق للرسالة المحمدية فاشتملت  
دعوة عيسى على كثير من القيم والأخلاق والشرائع.

كانت دعوى عيسى امتداداً لدعوات الأنبياء والرسل وحتى تكون رابطة الوصل برسالة  
الإسلام، لتكون الرسالة المحمدية مسك الختام في الرسالات السماوية، ولتكون رسالة  
عالمية لكل البشر فكما أن الإنجيل قد نسخ التوراة فإن القرآن قد نسخ الإنجيل وكما أن  
عيسى عليه السلام كان آخر أنبياء بني إسرائيل فإن محمداً كان آخر الأنبياء  
والمرسلين.

لقد وجد عيسى عليه السلام في الأردن مكاناً مناسباً لنشر الدعوة لأن اليهود تنكروا لشرع موسى وكذبوا الأنبياء وحقدوا على عيسى وخططوا لقتله وذبخوا يحيى، فكان الأردن ملاذاً آمناً، أضيف إلى خيانة يهوذا الاسخريوطي (من نابلس). وإن فلسطين في ذلك الوقت آثرت الوثنية وعبدت الإله (بعل) أما الأردن فإنها كانت أكثر انفتاحاً على سوريا وما جاورها.

كما أن العديد من الأقوام في الأردن عبدت الأوثان أيضاً فالأنباط عبدوا صنماً وظل العرب يقدرونه ويقيمون له القرابين حتى الفتح الإسلامي، وأما اليهودية في الأردن فقد اتبعتها سكان قلاتل من سكان طبريا.

لذلك وجد عيسى عليه السلام الملاذ الآمن في الأردن في أم قيس وتل الكفارات وكان الحواريون يؤازرون السيد المسيح في التبشير للدعوة وكان أشهرهم (بطرس) وشقيقه (أندراوس).

فقد اختار بطرس منطقة طبريا وأما اندراوس فقد اختار منطقة الغور الشرقي أما الحواري (يعقوب بن حلقى) فاختر الجنوب الأردني والجنوب الفلسطيني ولاقى مشقة كبيرة في نشر الدعوة لمقاومة الأنباط له ففر إلى مصر وبشر بالدعوة واستشهد في مصر وهو يدعو إلى المسيحية في سنة 44 م ومن الغريب أن تلاميذ المسيح المخلصين لاقوا حتفهم في فترات متقاربة فقد لحق أندراوس بالركب وقتل عام 62م وبطرس عام 75 م وبولس عام 67 م وهذا شأن الدعاة المخلصين الذين نذروا أنفسهم لخدمة دينهم.

### من هم الحواريون

قال تعالى: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران، الآية 52) الحواريون جماعة من بني إسرائيل آمنت بسيدنا عيسى عليه السلام اتخذته مرجعاً لها، وقاموا بنشر رسالة المسيح وقد سمع الحواريون عن موائد الرحمن التي كانت تنزل على مريم فطلب الحواريون من عيسى أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء وخص الله هذه المائدة بسورة كاملة في كتابه العزيز، ولكن كتاب التفسير التي بين أيدينا لم تشر إلى مكان

المائدة نهائياً، قال تعالى: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) (سورة المائدة، الآية 112 - 115).

ومفاد ذلك أن عيسى أمر الحواريون بصيام ثلاثين يوماً فلما أتموها سألوا من عيسى أن ينزل عليهم مائدة رحمانية ليأكلوا منها وتطمئن نفوسهم ليتيقنوا أن الله قبل صيامهم وتكون بمثابة عيد فيفطرون بعد صيام وتكون كافية للجميع فوعظهم عيسى وخاف عليهم ألا يستجيبوا فيشكروا الله فما كان منه عليه السلام إلا أن أطرف رأسه ودعا ربه وأجهش في البكاء ضارعاً إلى الله أن يستجيب لما طلبوا فأُنزل الله مائدة والناس ينظرون إليها وصارت تقترب رويداً، رويداً، ولما دنت سأل عيسى ربه أن يجعلها رحمة وبركة وظلت تقترب حتى صارت بين يدي عيسى وكانت مغطاة بمنديل وقيل أنه لحم وخبز فكشف عنها وقال (بسم الله خير الرازقين) وقيل كانت سبعة حيتان وخل وorman وثمار لها رائحة طيبة وقال للحواريون كلوا فقالوا لا تأكل حتى نأكل فقال أنتم الذين طلبتم فاقترب الفقراء والمرضى الزمني وهم قرابة ألف وثلاثمائة وكل صاحب عاهة أكل منها عفاه الله، وقيل أنها كانت تنزل كل يوم مرة ثم يوماً بعد يوم ثم قصرت على الفقراء وتكلم المنافقون فرفعت عن الجميع ومسح الذين تكلموا لقردة وخنازير.

قال قتادة عن هلاس عن عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم (نزلت المائدة من السماء من خبز ولحم وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير) وهذا هو المسخ الثاني بعد مسخ يهود إيلة (العقبة).

كان عيسى إذا ذكرت عنده الساعة صاح صياح الثكلى وقال اسحق بن بشر وبينما عيسى يوماً تأثم على حجر قد توسده وقد وجد لذة الندم إذ مر به إبليس فقال يا عيسى ألسنت تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا فهذا الحجر من عرض الدنيا فقام عيسى وأخذ بالحجر ورماه به!

كان عيسى زاهداً في الدنيا مثله مثل الأنبياء الكرام قال: (يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت وكن في الدنيا ضعيفاً واتخذ المساجد بيتاً وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكير ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة).

ومن أقواله عليه السلام ما رواه سفيان الثوري قال عيسى بن مريم عليه السلام (لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في مكب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في الإناء).

#### رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

قال تعالى (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ زَعَمَ الَّذِينَ الْإِنْسَاءُ أَنِّي مُنْزِلُكِ إِلَيْكَ الْمَائِدَةَ وَرَأَيْكَ الْيَحْيَىٰ مَظْهَرًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فُوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (سورة آل عمران، الآية 54 / 55).

قلنا في موضع سابق أن اليهود تأمروا على أنبياءهم ومنهم عيسى بن مريم عليه السلام وقيصر روما أمر بصلب المسيح، وفي ليلة المؤامرة توفى الله عيسى بالنوم ورفعته إلى السماء وظل شبيهه على الأرض فأخذ وصلب ظانين أنه عيسى وإنما هو أحد التلاميذ الخونة (يهوذا الاسخريوطي) أما عيسى فقد رفعه الله من فتحة في السقف والناس ينظرون واليهود أصروا على أنهم صلبوا المسيح وأعلموا النصارى بذلك فصدقهم وسينزل عيسى آخر الزمان ويقتل المسيح الكذاب ويحكم بشرع الاسلام أما بخصوص حادثة الصلب فإن اليهود أخذوا الشبيه وصلبوه وافترقوا ثلاث شعب فقالت طائفة كان فينا ما شاء وصعد إلى السماء وهؤلاء هي الفرقة اليعقوبية، وقلت طائفة كان فينا ابن الله ثم رفعه إليه وهؤلاء هي الفرقة النسطورية وقالت ثالثة كان فينا عبد الله ورسوله فرفع الله وهؤلاء هم المسلمون، فاجتمعت الفرقتان على الثالثة فقتلوا حتى بعث الله محمداً قال ابن عباس: (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) (سورة الصف، الآية 14).

ورغم المشاق والتنقل فإن الذين آمنوا بعيسى عليه السلام عدد قليل جداً والحواريون هم اثنا عشر رجلاً هم بطرس ويعقوب وبحنس أخو يعقوب وأندراوس وفيلبس ووحنى وتوماس ويعقوب بن حلفي وتداوس وفتاتيا ويهوذا الخائن وفي الفترة التي كان فيها

عيسى عليه السلام يبشر بالدعوة كان النبي يحيى العجلوني في معتقل مكاور ينتظر حكم الاعدام فيه من ابن هيرودس وذهب اثنين من تلاميذ يحيى إلى عيسى فقالا له أنت هو الآتي أم ننتظر آخر فقال عيسى إذهب وأخبرنا يوحنا (يحيى) بما تسمعان وتظران.

### كنيسة القيامة في القدس:

ظلت روما بعيدة عن النصرانية إلى أن جاء قسطنطين فاعتنق المسيحية سنة 306 م، وعمم الديانة المسيحية وانتشرت المسيحية وكانت البتراء مركزها ولما صلب اليهود يهوذا الاسخريوطي القوه في القمامة وظل كذلك فعمدت هيلانة أم قسطنطين فأخرجته من القمامة معتقدة أنه المسيح فأمرت بإزالة هذه القمامة وبنت كنيسة هي كنيسة القيامة ووضعت القمامة على صخرة اعتمدها اليهود قبلتهم وظلت كذلك حتى جاء عمر بن الخطاب فأمر بإزالة القمامة ووضع المسجد أمامها.

### خاتمة المطاف

من استعراضنا لتاريخ السيد المسيح يجب أن نتذكر قواعد وأحكام وملاحظات هي: أن السيدة مريم العذراء سيدة طاهرة من بيت طاهر اختارها الله المعجزة ليشهد الخلق على أن الله قادر على خلق البشر بدون أب وأم كآدم وبدون أب كعيسى بن مريم فزكريا منحه الله الولد بعد شيخوخة. إن الإنسان يجوز أن يتمنى من الله الموت خشية الفتنة كقول مريم (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا).

إن قصة عيسى عليه السلام وقصة مريم عليهما السلام معجزة عرفها الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن وهذا دليل على صدق الدعوة. هناك ارتباط وثيق بين الدعوة الإسلامية والمسيحية. هناك اعجاز قرآني في قوله تعالى (إني عبد الله) إلى قوله (ويوم أبعث حيا) فعدد الكلمات في هذه الآيات (33) كلمة وتنتهي الآية الأخيرة برقم (33) وعمر سيدنا عيسى (33) سنة بعدها رفع إلى السماء.

الأنبياء لهم منزلة سامية في الدين الإسلامي والمسلم لا يفرق بين أحد من رسله فكلهم كرام لهم الاحترام والتقدير .

إن تحريف اليهود للتوراة وعصيانهم الرسل، جعل الله فيهم نبياً يهديهم ويرشدهم وهو عيسى عليه السلام.

كل ملوك اليهود ما عدا طالوت عصاة عبدوا الأوثان والأصنام لهذا بعث الله عيسى عليه السلام ليردهم إلى شرع الله ويصحح ما أصاب شريعتهم من تحريف وتبديل.

ظل عيسى عليه السلام ثلاث سنوات يصحح ويقوم اليهود وهي فترة كافية لرد اليهود إلى جادة الصواب ونسخ الديانة اليهودية لكن اليهود عمت قلوبهم أما الديانة المسيحية انتشرت انتشاراً هائلاً ونصارى العالم الغربي تجاوز المليار في حين أن اليهود خمسة عشر مليون والإسلام الذي جاء بعد سبع قرون كان ديناً عالمياً اتبعه الملايين أيضاً.

كان مجيء عيسى عليه السلام توطئة لنشر بذور الخير في الدنيا فجاءت رسالة الإسلام لتكون رسالة عالمية تصلح لكل زمان ومكان.

وقد بشر بها عيسى قبل أن يرفعه الله إلى السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم وسمي الرسول أحمد سلام على أنبياء الله في الأولين وفي الآخرين وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

## الفهرس

|         |                                  |
|---------|----------------------------------|
| 1.....  | آدم عليه السلام                  |
| 4.....  | لماذا خرج إبليس عن طاعة ربه      |
| 5.....  | بداية الخلق                      |
| 6.....  | آدم على الأرض                    |
| 9.....  | نوح عليه السلام                  |
| 13..... | نوح في قومه                      |
| 23..... | صنع السفينة                      |
| 23..... | الطوفان:                         |
| 28..... | هل كان الطوفان عاماً أم خاصاً    |
| 33..... | طوفان أم فيضان                   |
| 39..... | أبناء نوح عليه السلام            |
| 43..... | إبراهيم عليه السلام              |
| 55..... | محنة الاحراق                     |
| 59..... | هجرة إبراهيم عليه السلام         |
| 69..... | زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر   |
| 71..... | سبب زيارة إبراهيم لمصر           |
| 74..... | زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر |
| 81..... | لوط عليه السلام                  |

|          |  |
|----------|--|
| 90.....  | قدوم الملائكة على إبراهيم                    |
| 105..... | يوسف عليه السلام                             |
| 112..... | مصر وقت مجيء يوسف إليها                      |
| 112..... | يوسف الصديق في مصر                           |
| 163..... | موسى   |
| 176..... | يوشع بن نون:                                 |
| 181..... | قصة قارون مع موسى                            |
| 185..... | عبادة العجل:                                 |
| 188..... | التوجه إلى فلسطين:                           |
| 190..... | قصة بقرة بني إسرائيل:                        |
| 191..... | موسى عليه السلام ... دروس وعبر :             |
| 193..... | داوود عليه السلام:                           |
| 199..... | الصراع بين طالوت وداود                       |
| 200..... | ملك داود                                     |
| 201..... | مدينة الخليل عاصمة داود عليه السلام          |
| 208..... | سليمان عليه السلام                           |
| 210..... | سليمان والنملة                               |
| 212..... | سليمان والهدد                                |
| 218..... | اسرائيليات وخرافات في قصة سليمان عليه السلام |
| 220..... | ردود العلماء على هذه الافتراءات              |



|          |                            |
|----------|----------------------------|
| 223..... | عيسى بن مريم عليهما السلام |
| 225..... | مريم أم عيسى عليهما السلام |
| 226..... | نسب مريم                   |
| 228..... | ولادة عيسى عليه السلام     |
| 233..... | الله تعالى منزله عن الولد  |
| 243..... | الفهرس                     |

## المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. تفسير القرآن العظيم - للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، أربعة أجزاء ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ١٩٨٠.
٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفدا شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، ثلاثون جزءا ، ادارة الطباعة المنيرية ، محمد منير الدمشقي ، ١٩٣٠م.
٤. محمد رسول الله والذين معه ، عبد الحميد جودة السحارة ، ٢٠ جزء ، دار مصر للطباعة.
٥. قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٩١م .
٦. قص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس لابن اسحق احمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي ، مطبعة الأنوار المحمدية ، القاهرة .
٧. البداية النهاية ، أبو الفدا الحافظ بن كثير الدمشقي ، دار الريان للتراث، ١٩٨٨م ، ٨ أجزاء .
٨. الشرق الأدنى القديم ، الدكتور عبد العزيز صالح ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩٠م.

٩. حضارة مصر القيمة واثارها - دكتور عبد العزيز صالح ، الجزء الاول ،  
مطبعة جامعة القاهرة والكتاب، الجامعي مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٩٢

٠م

١٠. العرب قبل الاسلام، جرجي زيدان ،دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٢م.
١١. دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الدكتور محمد بيومي مهران ، ٤ أجزاء  
، دار المعرفة ، الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩٥م.
١٢. من اعجاز القرآن في أعجمي القرآن، رؤوف ابو سعدة ، الجزء الاول  
والثالث ، دار الهلال ، ١٩٩٣ - ١٩٩٤ م .